CHARLOTTE BRONTE

روايات

شارلوت برونتي

الأستاذ

ترجمة: باسل سليم



الأستاذ





الأهليّة للنشر والتوزيع

e-mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12

هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962

ص.ب: 7855، عمّان 11118، الأردنّ

الفرع الثاني (المكتبة)

عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

الأستاذ/ رواية إنجليزيّة

شارلوت برونتي/ بريطانية

ترجمة: باسل سليم/ الأردنّ

مراجعة وتدقيق: معتزّ قاسم/ الأردنّ

◆

الطبعة العربيّة الأولى، 2017

◆

تصميم الغلاف: زهير أبو شايب، عمّان، هاتف 95297109 7 00962

®

خطوط الغلاف: زهير ابو شايب/ عمّان

◆

الصفّ الضوئي: إيمان زكريّا خطّاب، عمّان، هاتف 95349156 7 00962



شارلوت برونتي

الأستاذ

ترجمة: باسل سليم
مراجعة وتدقيق: معتزّ قاسم



على هامش الرواية

لاشك أن قلةً من المقالات العربية تطرقت لرواية «الأستاذ» أو *The Professor* للكاتبة الإيرلندية الأصل «شارلوت برونته» Charlotte Bronte

فكانت المقالات الإنجليزية التي تَوَقَّفتْ لتقرأ هذه الرواية مصباحاً يضيء لنا الطريق أثناء قراءتنا ويوضح بعض الملابسات التي ربما لا نلتفت لها في علاقة الأحداث بحياة الروائية، فضلاً عن هذا النمط من حديث النفس الطويل الذي يتجلى واضحاً كجمل اعتراضية أو تفسيرية ، وبكثرة واضحة، وفي رأيي إن هذا يؤيد قول القائل بأن هذه الرواية كُتبت قبل روايتها المشهورة «جين إير» والتي طبّقت الآفاق ، فالأسلوب الذي كُتبت فيه رواية «الأستاذ» أو *The Professor* يتنازع فيها الكاتبة حالان؛ حال المصلح المخلص وحال كاتب السيرة الذاتية المبتدئ، فكثرة المداخلات التي تجتاح الحوار كثيراً بمثابة تهذيب يراد وتفسير وصياغة للشخصية المثالية المخلصة والصابرة والمثابرة أحياناً ووصف للشخصيات المتسلطة والمنحرفة والمتسلقة أحياناً أخرى .

يغلب على هذه الرواية التحليل النفسي للشخوص كمحاولة لتحليل العالم من حولها، ولا تكاد تخلو صفحة من هذا الحوار الذي يسقط دائما على كل شخصية تتبدى في مشهد من المشاهد، بل يصل الأمر إلى استبطان حالة الطبيعة وصورة الأم كذلك، إنها أشبه برواية نفسية .

ولكن هذا التحليل لا يصلح لأن يكون تعمياً علمياً لاستشراف النفس الإنسانية وذلك لشدة خصوصية الشخوص محل الرواية ، فتوقع السلوك الذي كان يمارسه الأستاذ باحتراف وثقة مفرطة ومبالغ فيها لا يمثل قاعدة عامة ترتقي لأن تكون طريقاً مسلوكاً بالعموم .

ونجد للأسطورة حضوراً جيداً ولكنه متوسط القدر ، وذلك ربما يعكس شيئا من نفسية الكاتبة شارلوت التى تريد أن يحضر أدبها النسوي هى لا أن تعايش تناصاً طاغياً -وسيكون ذكورياً عادة- حتى لو كان تناصاً وظيفياً .

ولكن كان للأمثال ثقلٌ معنوي وإن كان قليلاً عدداً باعتبارها -الحكمة- حكمة خبرة طويلة أفضتْ لأصحابها بمكنونها، وقد تكون الأمثال أكثر ارتباطاً بهدف التحفيز على الإنجاز والانطلاق والإرادة والمصابرة .

أما حِسُّ التدين الذي أرادت أن تُبلِّغنا إياه الروائية فلم يكن واضحاً، وكان معتما جدا ، كانت مترددة جداً في الإبانة وعدمها وفي توجيه التدين وحقّ التدين كيف يكون، وهذا بلا شك أثر من آثار المعانية المخيفة التى فرضها تدين الوالد على الأخوات جميعاً، فكأن شارلوت كانت ترى التدين سبيلاً منجياً ولكن ليس ذاك التدين الذي عرفته في حياتها على يدي والدها ثم زوجها من بعد ذلك

وللحشمة واللباس العفيف حظ وافر في الرواية، وهو وإن كان مناسباً للفترة الفكتورية تلك إلا أن حديثها كان متسقا مع شخصيتها التي تتحفظ وتتعفف في تعاملها مع الآخرين .

ومن عجيب هذه الرواية -فيما أحسب- ذلك التقسيم الذي اجترحته شارلوت في توزيع أطوار شخصيتها على شخوصٍ متعددة كانت

مشعثة في الرواية بين مدير ومعلمة وأطفال وطلبة ، فكأنها تعالج من خلال كل شخصية جزءا من حياتها التي أمضتها ولم تُسعدها ابتداءً من هنري وانتهاء بفكتور .

وكان الألم والأمل يتناهبان هذه الرواية، ألم يصف واقعاً مخيفاً ومريراً وبأفق مغلق لا خلاص منه إلا بالتمرد، وأملٌ ظهر جليا في صورة العائلة التي كونتها «هنري» مع أستاذها، والذي شكل لها منظومة من الواجب والإرادة الصلبة والصارمة وجعلتها تُحقق أحلامها في التنقل وفي إنشاء مدرسة تغاير في منهجها تلك المدارس التي تسببت مأساة من مآسيها في موت أختيها

ملاحظة :

سيواجه قارئ الرواية نمطاً من الأسلوب المتداخل للجمل وبكثرة، وقد تُفضي به إلى التيه أحياناً والشعور بانقطاع الكلام قبل اكتماله، ولكن يجب أن يقرأ الرواية باعتبارها حواراً متشابكاً يتداخل فيه حديث النفس الذي يطفر على السطح فجأة ثم يعود ليكمل سياقه، فتأخر الخبر أو الفاعل أو غيره يحتم على القارئ الصبر وتوقع الاعتراضات بين الجمل .

كتبه معتز أبو قاسم

تصدير المترجم

تعتبر الروائية والشاعرة «شارلوت برونتي» -وهي أكبر الأخوات برونتي- كاتبة مهمة في مجال الأدب الإنجليزي حيث أصبحت رواياتها تعتبر من أهم الروايات العالمية.

ولدت شارلوت برونتي في تورونتو، يورك شاير، عام 1816 وهي الابنة الثالثة لماريا وباتريك برونتي، والذي كان كاهناً أنجليكانياً. وفي عام 1820 رحلت مع عائلتها إلى هاوورث. وفي عام 1821 توفت ماريا بسبب السرطان تاركة خلفها بناتها الخمس: ماريا، إليزابيث، شارلوت، إيميلي، وآن برونتي لتعتني بهم أختها إليزابيث برانويل. في عام 1842 أرسل باتريك كل من ماريا، شارلوت، إليزابيث، وإيميلي إلى مدرسة بنات القساوسة كوان بريدج في لانكشاير، وادعت شارلوت أن لهذه المدرسة تأثيراً صحياً عليهن فقد أدت إلى موت أختيها إليزابيث وماريا اللتين توفيتا بداء السل سنة 1925 وبعد وفاة أختيها قام الأب بإخراج شارلوت وإيميلي من تلك المدرسة.

في منزل القسيس الكائن في هاوورث، بدأت شارلوت وأختاها بنسج حكايات عن سكان ممالك خيالية والتأريخ لحياتهم ونضالاتهم. كتبت شارلوت وبرانويل حكايات خيالية عن مملكتهما «إنجريا» بينما كتبت إيميلي وآن مقالات وقصائد عن مملكتهما «جوندال». كانت كتاباتهن مُحكمة ومعقدة (ولا يزال جزء من هذه المخطوطات محفوظاً بحال جيدة) وأمدتهن

باهتمامات في مرحلة طفولتهن وبدايات مراهقتهن و رافقتهن بعد ذلك في كتاباتهن الأدبية لاحقاً عندما كبرن.

أكملت شارلوت تعليمها في «رو هيد» مير فيلد من 1831 إلى 1832، وهناك قابلت رفيقات حياتها ألين نسي وماري تايلور اللواتي لم ينقطعن عن تبادل الرسائل. وكتبت في هذه الفترة روايتها القزم الأخضر 1833 تحت اسم ليسلي. عادت شارلوت إلى هذه المدرسة فيما بعد مدرِّسةً من 1835 إلى 1838. في عام 1839، عملت مربيةً خاصة لدى عدد من العائلات في يورك شاير، وظلت في هذه المهنة حتى عام 1841 و في عام 1842 سافرت شارلوت وإميلي إلى بروكسل للتسجيل في مدرسة داخلية يديرها قسطنطين هيغر (1809-1896) وزوجته كلير زوي بارينت هيغر (1814-1891). وفي محاولة لتسديد أقساط انتسابهما إلى المدرسة، درّست شارلوت اللغة الإنجليزية بينما درّست إيميلي الموسيقى. ثم اضطرت الأختان إلى ترك المدرسة عام 1842 عندما توفيت خالتهما إليزابيث برانويل بانسداد داخلي في شهر أكتوبر. عادت شارلوت وحدها إلى بروكسل مرة أخرى في يناير 1843 لتتولى التدريس في المدرسة مرة أخرى. ولكن إقامتها الثانية في المدرسة لم تكن سعيدة على الإطلاق، فشعرت بالوحدة وأصابها الحنين إلى الوطن وتعلقت بعمق بقسطنطين هيغر (أشيع أن شخصية إدوارد رويشستر في روايتها جين آير كانت مستمدة من شخصية هيغر)، فعادت مرة أخرى إلى هاوورث في يناير 1844 واستخدمت الوقت الذي قضته في المدرسة الداخلية مصدر إلهامٍ لروايتيها البروفيسور و فاليت.

في مايو 1846، نشرت شارلوت و إيميلي وآن مجموعة مشتركة من القصائد تحت أسماء مستعارة «كيور وإليس وأكت بيل» . رغم أنه تم بيع

نسختين فقط من الكتاب إلا أن الأخوات استمررن في إنتاجهن الأدبي وبدأن بكتابة رواياتهن الأولى. وقد استخدمت شارلوت الاسم كيور بيل عندما نشرت أول روايتين لها. وكتبت شارلوت فيما بعد:

«في معارضة للدعاية الشخصية، أخفَيْنَا أسماءنا الأصلية خلف كيور وإليس وأكتن بيل. لقد اخترنا هذه الأسماء الغامضة على ضوء رغبة في استخدام أسماء ذكورية مسيحية بشكل إيجابي، حيث لم نكن نود أن نعلن أننا نساء، لأنه في ذلك الوقت كان سيتم التعامل مع طريقة كتاباتنا وتفكيرنا على أساس أنها «أنثوية». كان لدينا انطباع قوي أن مؤلفاتنا سينظر إليها باستعلاء، حيث لاحظنا كيف يستخدم النقّاد في بعض الأحيان أسلوب مهاجمة الشخصية كوسيلة عقاب، وأسلوب الغزل كمكافأة، وهو ليس بالمدح الحقيقي».

كتبت «شارلوت برونتي» أولى رواياتها وهي «الأستاذ» أو «البروفيسور». لكن الرواية لم يتم نشرها في ذلك الوقت بالرغم من أنه تم تحفيزها من قبل السيد سميث لكتابة رواية أخرى. ورداً على تحفيزه، قامت «شارلوت برونتي» بكتابة رواية «جين إير» التي تم نشرها و لاقت استحسانا لدى القراء. بعد نشر الرواية قامت «شارلوت برونتي» بكشف هويتها الحقيقية للقراء وأعلنت أنها التي كتبت الرواية.

ولدى «شارلوت برونتي» رصيد جيد من الروايات التي اعتبرت من أشهر روايات الأدب العالمي ومنها: «الأستاذ»، «جين آير»، «شيرلي»، «فيليت»، و«إيما». ولديها عدد من الأعمال القصيرة مثل: «القزم الأخضر»، «حكايات من انجريا»، «مينا لوري»، «زورما في المنفى»، «كارولين فيرنون».

توفيت شارلوت، مع ابنها الذي لم يولد بعد، في 31 مارس 1855، في سن الثامنة والثلاثين. أرجعت شهادة وفاتها السبب إلى السل (الدّرن)،

ولكن العديد من المؤرخين يرجحون أن يكون سبب الوفاة ناتجاً عن الجفاف وسوء التغذية، بسبب الإفراط في القيء الشديد من غثيان الصباح أو التقيؤ الحملي. وهناك أيضاً أدلة تشير إلى أن شارلوت توفيت من التيفوس، والذي كان سبباً في وفاة تابيثا أكرويد، مدبرة منزل عائلة برونتي، والتي كانت وفاتها سابقة لوفاة شارلوت بفترة وجيزة. وقد دفنت شارلوت في المدفن العائلي في كنيسة القديس مايكل وجميع الملائكة في مدينة هاوورث، غرب يورك شاير، إنجلترا.

وكما حصل مع المخطوط الذي كتبته «شارلوت برونتي» لروايتها «الأستاذ» الذي تم رفضه من قبل الناشرين رفضت بعض دور النشر أن تنشر هذا الكتاب بالعربية كما أعرض العديد من المترجمين عن ترجمة هذه الرواية إلى العربية. وقد ارتأيت ألا أحرم القراء الأعزاء من الاستمتاع بأول رواية للكاتبة الشهيرة «شارلوت برونتي». وها هي الآن بين أيديهم.

1

التمهيد

ذات يوم بينما كنت أقلّب بين أوراقي، عثرت في دولابي على نسخة من رسالة كنت قد أرسلتها منذ عام لأحد زملاء دراستي القدماء:

«عزيزي تشارلز، أعتقد أنه عندما كنا معا في إيتون، لم يكن أحد منا ما ذا شعبية تُذكر؛ لقد كنتَ شخصاً تهكمياً، يقظاً، وداهية، مخلوقا ذا دم بارد؛ لن أحاول رسم صورتي، ولكنني لا أذكر أني كنت شخصية جذابة- أتستطيع أنت؟ لا علم لي بأي جاذبية جمعتنا معا؛ لم أختبر شيئاً كمشاعر بيلاديس و أوريستيس تجاهك، وأنا أؤمن أنك كنت حراً من أي مشاعر رومانسية تجاهي. بعد ساعات المدرسة كنا نخرج ونتمشى معاً، كنا على تفاهم في الموضوعات التي تمس أصدقاءنا ومعلمينا. عندما تعاودني عاطفة ما، كحبٍّ غامض تجاه شيء جميل ورائع، سواء بشكل حيوي أم لا، كان برودك الساخر تجاهي لا يحرك فيَّ شعرة. شعرت بالفوقية تجاه ذلك السلوك وقتها كما أشعر الآن.

«مضى وقت طويل منذ كتبت لك، ووقت أطول منذ رأيتك آخر مرة. وقعت عيني على اسمك صدفة عندما أخذت صحيفة مقاطعتك.

بدأت التفكير بالأيام الخوالي، واسترجاع الأحداث التي حصلت منذ افترَقنا؛ وقد جلستُ وشرعت في كتابة هذه الرسالة. لا أعرف ما الذي كنتِ تفعله طيلة الوقت، ولكن يجب أن تصغي، إذا اخترت الاستماع، كيف استهزأ بي هذا العالم.

أولاً: بعد مغادرتي ايتون قابلت خاليَّ، السيد تينادل وهون. عرضا عليّ الانضمام إلى الكنيسة والعيش في بلدة سيكوم، والتي تعتبر منحة لي. وقد ألمح خالي إلى أنه إن أصبحت مديراً هناك، قد أتمكن من اتخاذ إحدى بناته الست، -اللاتي كنت أكرههن كلهن- زوجةً لي.

رفضت كلا العرضين. أمر جيد أن تكون كاهناً، ولكني كنت لأكون كاهنا سيئاً. وبخصوص الزواج، يا إلهي ما أشبه فكرة أن أكون مرتبطا لبقية حياتي بإحدى بنات خالي بالكابوس! لا شك في كونهن بارعات وجميلات، ولكن لم يتمكن أي منهنَّ رغم براعتهن وسحرهن من ملامسة أحد أوتار قلبي. ليس لدي تفكير في تمضية ليالي الشتاء في منزل قرب النار في سيكوم برفقة إحدى بنات خالي للحظة، سارة، بجسمها الضخم والمتناسق، لا؛ تحت هكذا ظروف لا بد من أني سأكون زوجاً سيئاً وكاهناً سيئاً بكل تأكيد. عندما رفضت عرض خاليَّ، سألاني علامَ كنت أنوي. أخبرتهما أني سأفكر في الأمر. ذكّراني أني لا أملك أي ثروة أو أي احتمال للحصول على ثروة، وبعد قليل من الصمت طالب خالي تينادل بصرامة «إن كنت راغباً بالسير على خطى والدي والالتحاق بالتجارة؟» لم تكن ببالي هذه الفكرة حينها. لم أعتقد أن طريقة تفكيري ملائمة لأكون تاجراً؛ لم يكن ذوقي ولا طموحي في الحياة يتخذان هذا المنحى. ولكن كان الازدراء الظاهر على محيا خالي تينادل عندما نطق كلمة تجارة -ونبرة الاستهزاء التي تحدث بها- هما ما جعلاني أقرر حينها. لم يكن والدي

بالنسبة لي أكثر من اسم، ولكني لم أرغب أن يُنطق هذا الاسم بطريقة ساخرة أمامي. أجبت بتسرع وحرارة: «لست أرى أفضل من أن أتبع خطى والدي، أجل، سأكون تاجراً» لم يحتجا على ولكن افترقنا بمشاعر كره متبادلة. بالتفكير فيما حصل، أرى أني كنت على حق في التخلص من رعاية خالي تينادل لي، وغبيا لأعرض على أكتافي عبء حمل آخر -حمل قد يكون لا يطاق- وبالتأكيد حملٌ لم أجربه من قبل.

كتبت مباشرة إلى ادوارد -تعرف من إدوارد- أخي الوحيد الذي يكبرني بعشر سنين، والمتزوج بابنة صاحب مطحنة غني وهو الآن مالك المطحنة والتجارة التي كانت ملك والدي قبل فشله. أنت تعلم أن والدي -الذي قد اعتبروه مرة بثراء كرويسوس- قد أفلس قبل وقت قصير من وفاته، وأن أمي قد عاشت حالة من الإملاق لستة أشهر من بعده، بلا عون من إخوانها الأرستقراطيين الذين أهانتهم بارتباطها بعائلة كريمسوورث. في نهاية الأشهر الست أتيت إلى هذه الحياة التي غادرتها أمي بعد قدومي، غير نادمة على فيها من أمل ضئيل.

اهتم معارف أبي بإدوارد، كما اهتموا بي حتى بلغتُ التاسعة من العمر. وصادف في تلك الفترة أن أصبح منصب ممثل منطقة إدارية مهمة في مقاطعتنا شاغراً. تقدم السيد سيكوم لتولي المنصب. قام عمي كريمسوورث، التاجر الماكر، باغتنام فرصة كتابة رسالة قاسية للمرشح، مهددا إياه أنه إن لم يوافق هو والسيد تينادل على القيام بشيء تجاه دعم ابن أختهم اليتيم، سيقوم بكشف الستار عن سلوكهم الخبيث وعديم الشفقة تجاهها، وسيبذل قصارى جهده لقلب ظروف انتخاب السيد سيكوم. عرف ذلك الرجل و السيد تينادل أن عِرق كريمسوورث بلا ضمير، وعرفوا أيضاً أن لهم تأثيراً في بلدية X، ومن باب الضرورة وافقوا على تحمل نفقة تعليمي.

تم إرسالي إلى إيتون حيث مكثت عشر سنين لم أقابل خلالها إدوارد أبداً. عندما كبر دخل في مجال التجارة وسعى وراء ندائه بجهد، وقدرة، ونجاح، مكنته من تحقيق ثروة عندما بلغ الثلاثين من العمر. علمت عن كل هذا عبر رسائل قصيرة استلمتها منه، ثلاث أو أربع مرات في السنة، ولم تختتم هذه الرسائل بلا تعبير عن عداوة تجاه سيكوم، أو لوم لي ، لعيشي كما يقول في كنف ذلك المنزل. لم أتمكن في البداية عندما كنت في ريعان الصبا من فهم لماذا وأنا يتيم الأبوين لا أكون ممتنا لخالي سيكوم الذي تجادل على تعليمي؛ ولكن عندما كبرت وسمعت عن درجة العداء، وكرههما لأبي حتى الموت الظاهر ، وعن معاناة أمي وعن كل مساوئ بيتنا ، حينها فقط أدركت عار حالة الاعتماد التي كنت أعيشها، واتخذت قرارا بألا آخذ الخز من يد رفضت حاجات أمي المحتضرة. كانت هذه هي المشاعر التي تأثرت بها عندما رفضت عرض ممثل سيكوم، والارتباط بإحدى بنات خالي. مع تشكل صدع يتعذر إصلاحه بيني وبين خاليّ، كتبت لأخي إدوارد؛ أخبرته عما حصل وأني أريد أن أتبع خطاه وأصبح تاجراً. طلبت منه أن يعثر لي على وظيفة. لم تعبّر إجابته عن استحسانٍ لسلوكي، ولكنه قال إنه يمكنني القدوم إلى شاير إذا أردت و «سيرى ما يمكن القيام به لإعطائي عملاً» كظمت كل تعليقاتي -حتى الذهنية منها- على ملاحظته هذه، وحزمت أمتعتي واتجهت شمالاً مباشرةَ.

وبعد عناء يومين من السفر (لم تكن سكك الحديد قد وجدت بعد) وصلت في أصيل تشرين الأول إلى بلدة (X). كنت أفهم أن أخي عاش في هذه البلدة، ولكن بعد الاستعلام، وجدت أن طاحونة السيد كريمسوورث والمستودع وحدهما يقعان في جَوّ بيغ بن كلوس المشبع بالدخان؛ ويقع مسكنه على بعد أربعة أميال، في الريف.

كان الوقت مساء عندما علمت وأنا أقف عند البوابة أن المسكن المخصص لي هو منزل أخي. بينما كنت أتقدم عبر الجادّة، تمكنت من الرؤية عبر ظلال الشفق، والغشاوة المظلمة التي زادت من قتامة الظِلال، إنّ المنزل كان كبيراً، وإن الأرض المحيطة به كبيرة. توقفت لبرهة في المرجة الخضراء أمام المنزل، مسنداً ظهري لشجرة نَمَتْ في الوسط، تفرست باهتمام داخل صالة كريمسوورث.

«إن إدوارد غني» قلت لنفسي. «أعتقد أنه يبلي حسنا ولكني لم أكن على دراية أنه سيد منزلٍ بهذا الحجم.مختصراً كل التعجب، التخمين والحدس وغيره تقدمت للباب الأمامي وضربت الجرس. فتح لي الباب خادم، قدمت له نفسي، تناول مني عباءتي المبللة وحقيبتي وقادني إلى غرفة مؤثّثة كالمكتبة، حيث كانت هناك نار ساطعة وشموع مشتعلة على طاولة؛ أخبرني أن سيده لم يَعُد بَعدُ من سوق البلدة (X) ولكنه أكد لي أن سيده سيكون في المنزل في غضون نصف ساعة.

كوني تُركت وحدي، اتخذت من الكرسي المحشو قرب النار مجلسي، وبينما كانت عيوني تراقب النار تشرق من الفحم المشتعل، والرماد المتساقط من فترة لأخرى على المدفأة، انشغل عقلي بضروب من التوقعات بشأن اللقاء الذي كان على وشك الوقوع. المثير للريبة بين كل تلك التوقعات، كان هناك شيء واحد موثوق به فلم أكن في خطر لقاء خيبة أمل حادة؛ وهذا التوقع ما طمئنني. لم أتوقع كمّاً فائضاً من الحنان الأخوي؛ دائما ما كانت رسائلُ أخي من النوع التي تمنع تشكل مثل هذه الأوهام. لكن ما زلت، بينما أنتظر وصوله، أشعر بالتوق، التوق الشديد، لا أستطيع إخبارك لماذا؛ تشعر يَدِي بالغرابة لالتقاط يد قرابةٍ مقبوضة لتمنع الارتعاش الذي سبب نفاذ الصبر.

فكرت بخاليّ؛ وبينما كنت أتساءل إذا ما كانت لامبالاة إدوارد تعادل الازدراء البارد الذي شعرت به دائما منهما، سمعت البوابات تفتح: تقدمت عجلات من المنزل، وصل السيد كريمسوورث؛ وبعد مضي بضع دقائق، وحوار قصير بينه وبين خادمه في القاعة، اقتربت خطواته من باب المكتبة - هذه الخطوات وحدها أعلمْت عن قدوم سيد المنزل.

لا زلت أحتفظ بذكرى مهزوزة عما كان عليه إدوارد من عشر سنوات-شاب طويل، نحيل، وقليل الخبرة؛ أما الآن، بعد أن اعتدلتُ والتفتت ناحية الباب، رأيت رجلاً قوياً، حسن المظهر ذا بشرة فاتحة، ولديه سمات الرياضي، جعلتني النظرة الأولى مدركاً حضور بديهته وحدة ذكائه، والتي بدت في حركاته وطريقة مشيه، عينه، التعبير السائد على وجهه. حيّاني باختصار، وخلال اللحظة التي تصافحنا، قام بتفحصي من رأسي حتى أخمص قدمي، ثم اتخذ موقعه في الكرسي القريب من النار وأشار لي بالجلوس في كرسي آخر.

وقال: «توقعت أن تتصل بمكتب محاسبة كلوس» لاحظت أن في صوته نبرة حادة، ربما كانت إحدى خصاله ، تحدث أيضا بلهجة الشمال، والتي بدت ثقيلة على أذني، التي كانت معتادة على لهجة الجنوب الرنانة.

قلت: «مالك النُّزُل، حيث توقفت العربة، قادني إلى هنا. لم أكن اعلم أنك تملك منزلاً كهذا، لذلك شككت بدقة معلوماته»

ورد عليَّ «آه، لا بأس! لقد تأخرت لنصف ساعة فقط في انتظارك، هذا كل ما في الأمر. حسبتُ أنك ستأتي بعربة الساعة الثامنة»

عبرت عن ندمي على أنه كان عليه أن ينتظر، لم يرد علي، ولكن حرك الحطب في النار، وكأنه أراد أن يخفي لحظة تردد، ثم عاد وتفحصني مجدداً.

شعرت داخلي بالرضا؛ لأني خلال الثواني الأولى للقائنا، لم أفشِ أي مشاعر دافئة أو حماساً زائداً، وأنني حييت هذا الرجل برباطة جأش.

سأل باستعجال: «هل قطعت علاقتك بتينادل وسيكوم؟»

«لا أعتقد أنه يجب أن أحافظ على أي اتصال معهم؛ سيعمل رفضي على عروضهم كعازل يحول بيني وبين أي تواصل معهم في المستقبل.»

أستطيع أن أخبرك السبب، وبالإضافة إلى ذلك أن أذكِّرَك في مستهل علاقتنا أنه لا «يوجد شخص يخدم سيدين» ستكون المعرفة الشخصية للسيد تينادل متضاربة مع مساعدتي لك.» كان في عينيه تهديد لا مسوغ له عندما كان ينظر إليَّ وهو ينهي مراقبته.

فاقداً الرغبة في الرد عليه، قمت بإشغال نفسي بتخمين مدى الاختلاف الموجود بين تركيبة عقل كل رجل عن الآخر. لا أعلم ما الذي استنتجه السيد كريمسوورث من صمتي- ما إذا اعتبره علامة تمرد أو دليلا على كوني خائفاً من سلوكه الدكتاتوري، بعد وقت طويل من التحديق بي، قام من كرسيه.

قال: «غداً سألفت انتباهك لنقاط أخرى، ولكن الآن وقت العشاء، ومن المحتمل أن السيدة كريمسوورث تنتظر، هل ستأتي؟»

خرج من الغرفة، وقد تبعته. بينما كنت أعبر القاعة، تساءلت كيف تبدو السيدة كريمسوورث. وفكرت «هل تكون غريبة لما أحب كتينادل، سيكوم، وبنات خالي مثل القريب المحب الذي يسير أمامي؟ أو أنها أفضل منهم؟ هل عليّ أن أظهر بعضا من طبيعتي الحقيقية خلال الحديث معها؛ أو-» أي توقعات أخرى تم اعتقالها بدخولي إلى حجرة الطعام. كشف نور

مصباح مضيء تحت زجاج باهت الستار عن شقة جميلة، مكسوة بخشب البلوط والسنديان، وضع العشاء على الطاولة، كانت هناك سيدة واقفة بجانب الموقد، كانت شابة، طويلة، حسنة القوام، كان زيها جميلاً وأنيقاً كفاية لجعلي ألاحظ كل هذا من النظرة الأولى.

مرّ بينها وبين السيد كريمسوورث ترحيب حار، عنّفته بأسلوب نصفه مرح ونصفه استياء على تأخره، كان صوتها (وأنا دائماً كنت آخذ الصوت في الحسبان عند الحكم على الشخصية) محبباً - ظننت أنه أوْحَى بروحٍ حيوية عالية. وعالج السيد كريمسوورث لومها بقبلة، قبلة لا تزال تعبِّرُ عن العريس (لم يمضِ على زواجهما عام)، اتخذت مكانها على طاولة العشاء بروح عالية. اعتذرت عن عدم ملاحظتها إياي من قبل، وصافحتني، كما تفعل السيدات عندما تعهدهن موجة من الظرف للبهجة أمام الجميع، حتى أمام أشد الناس لامبالاة. أصبح واضحاً لي الآن أكثر من قبل أن لديها بشرة جيدة، وملامح لطيفة، شعرها أحمر، أحمر فاقع. تجاذبت مع إدوارد أطراف الحديث في غمرة خلاف لغوب، كانت مغتاظة، أو تظاهرت أنها كذلك، أنه قاد عربة يسوقها حصان وحشي، ولم يكترث لمخاوفها. وقد استغاثت بي في بعض الأحيان.

«والآن سيد ويليام، أليس من السخيف أن يتحدث إدوارد بهذه الطريقة؟ قال: إنه سيمتطي جاك، وليس أي حصان آخر، علماً بأن هذا الحيوان رماه مرتين على الأرض.»

تحدثَتْ بنوع من اللعثمة، ليست مزعجة، ولكن طفولية. ورأيت أن هناك شيئاً أكثر من التعبير الطفولي في ملامحها. كانت اللعثمة والتعبير، بلا شك، ساحرين بالنسبة لإدوارد، كما يمكن أن يكونا كذلك بالنسبة لأغلب

الرجال، ولكنهما لم يكونا كذلك بالنسبة لي. بحثت عن عينيها، راغباً أن أقرأ فيهما الذكاء الذي لم أتمكن من العثور عليه في وجهها ولا من سماعه في حديثها، كانت مبتهجة، أو على الأقل ضئيلة، رأيت بالتتابع الحيوية، الغرور، التدلل. ولكني راقبت بلا جدوى عليّ أجد لمحة من جوهر.لست شرقياً؛ لا تكفيني رقبة بيضاء، شفاه ووجنات قرمزية، وعناقيد شعر لامعة، بدون تلك الشرارة التي تعيش حتى بعد ذبول الأزهار والزنابق، وتحول الشعر المصقول اللامع إلى الرمادي. عند شروق الشمس، خلال الازدهار، تكون الزهور على أحسن ما يرام، لكن كم عدد الأيام المطيرة في الحياة - مواسم تشرين الثاني المدمرة، عندما يكون بيت الرجل ومدفأته باردين حتماً، دون بريق الحكمة والفطنة الصافية والمبهجة.

كَوْني قرأت صفحة وجه السيدة كريمسوورث، عبرَتْ تنهدة عميقة عن خيبة أملي، اعتبرتها كاحترام لجمالها، ورماني إدوارد، الذي كان فخوراً بزوجته الغنية والجميلة، بنظرة، نصفها سخرية ونصفها الآخر حنق وغيظ.

أَشحت بنظري عنها، وبينما أنا أنظر حول الغرفة، رأيت لوحتين معلقتين على السقيفة - على طرفي رفّ الموقد. متوقفاً بين حين وآخر لأشارك في الحوار اللطيف، الذي جرى بين السيد والسيدة كريمسوورث، طوَّعت ذهني لتفحص تلك اللوحات. كانتا لوحتين - لسيدة ورجل مرتديين أزياء من طراز يعود لعشرين عاماً. كان الرجل في الظل. لم أتمكن من رؤيته جيداً. تمتعت السيدة بميزة الضوء الساطع من المصباح. لقد تعرفت عليها، لقد رأيتها من قبل خلال طفولتي، كانت أمي؛ وقد كانت اللوحة المرافقة لها هي الملكية الوحيدة التي تم إنقاذها من المزاد الذي بيعت فيه ممتلكات والدي.

أبهجني الوجه، كما كنت أذكر، كولد؛ مع أنني لم أكن أفهمه؛ الآن أدركت مدى ندرة هذا الصنف من الوجوه في العالم، وأنا أقدر بصدق تعبيره الوقور واللطيف. امتلكت تلك العين الجادة الرمادية سحراً قويا بالنسبة لي، كما ضمّت بعض الخطوط في ملامحه أكثرَ المشاعرِ صدقاً وعذوبة. شعرت بالأسف لكونها فقط لوحة. تركتُ السيد والسيدة كريمسوورث وحدهما، قادني خادم إلى غرفة نومي، بإغلاقي لباب غرفتي، استبعدت كل المتطفلين، تشارلز، والبقية.

وداعا إلى الآن

ويليام كريمسوورث.

لم أستلم رداً على هذه الرسالة، قَبِلَ صديقي منصباً في إحدى المستعمرات قبل استلامه لهذه الرسالة، وكان في طريقه إلى موقع عمله الرسمي. لا علم لي بما حصل له منذ ذلك الحين. سأكرّس وقت الفراغ الذي لدي، والذي كنت سأوظفه لفائدته الخاصة، للجمهور على وسعه. سردي للقصص ليس ممتعاً، وفوق ذلك كله، ليس رائعاً، ولكنها قد تهم بعض الأفراد، الذين كدحوا في نفس المهنة مثلي، سيجدون في تجربتي أحداثاً متكررة من التي حصلت معهم أيضاً. الرسالة التي في الأعلى ما هي إلا مقدمة. ها أنا أشرع الآن.

* * *

2

تبع المساءَ الضبابي الذي شهد تقديمي لبيت كريمسوورث صباحٌ من صباحات تشرين الأول الجيدة. استيقظت باكراً ورحت أمشي في المرج الذي يشبه الحديقة الذي يحيط بالمنزل. كشفت شمس الخريف التي أشرقت على تلال شاير عن ريف جميل؛ غابات خضراء ويانعة فرقت بين الحقول التي تم جمع محصولها للتو؛ و نهرٌ منزلقٌ بين الغابات، على سطحه شمسُ تشرين الأول وسماؤه؛ و دلّت المداخن الأسطوانية الطويلة، الممتدة على امتداد ضفتي النهر، على المصانع التي عملت الأشجار على إخفائها،و انتشرت هنا وهناك منازل أشبه ببيت كريمسوورث احتلت مواقع مناسبة جانب التل؛ وليست القرية بأكملها، مظهراً مبهجاً، حيوياً، وخصباً. فقد نفت التجارة والأبخرة والآلات منها كل إحساس بالرومانسية والعزلة. على بعد خمسة أميال بين التلال المنخفضة، هناك واد يحتوي البلدة (X) أطال بخار كثيف مُكونَه فوق هذه المنطقة - هناك كان يقبع «قلق» إدوارد.

أجبرت عيني على فحص هذا المشهد، ولفترة أجبرت عقلي على إمعان التدبر فيه، وعندما وجدت أنه لم يثر في قلبي أي مشاعر سعيدة - ذلك أنها لم تبث في أي أمل قد يشعر به أي شخص، عندما يرى أمامه

مشهداً لمهنة حياته قلت لنفسي: «ويليام، أنت ثورة على الظروف السائدة، أنت غبي، ولا تعرف ماذا تريد، اخترت التجارة وعليك أن تكون تاجراً. أُنظر» وتابعت في ذهني «انظر إلى هذا الدخان السخامي في غور، واعلم أنه هناك يقع منصبك! هناك لن يكون بمقدورك أن تحلم، أو تتأمل أو تنظر، هناك ستخرج للعمل وحسب!»

وهكذا بعدما وبَّختُ نفسي، عدت إلى المنزل. كان أخي في غرفة الفطور. قابلته برباطة جأش، لا أستطيع إظهار البهجة أمامه، كان واقفا على السجادة، مولياً ظهره للنار، كم من الأمور التي قرأتها في عينيه عندما التقت بعيني عندما تقدمت لتحيته، ولَكَم بدا ذلك متناقضاً مع طبيعتي! قال لي: «صباح الخير» بحدة وأومأ برأسه، ثم انتزع، بدلا من تناول الطعام الصحيفةَ من الطاولة، وبدأ بمطالعتها بمظهر السيد الذي وجد حجة للهرب من ملل الحديث مع مرؤوس. كان من الجيد أن اتخذتُ قراراً بتحمله هذه المرة، وإلا تمادى سلوكه إلى درجة التعبير عن حالة غثيان لا تُحتمل كنت أسعى لقمعها. نظرت إليه، قمت بقياس قوامه القوي والمتناسق، رأيت انعكاس صورتي في المرآة على رف الموقد، أذهلت نفسي بالمقارنة بين الصورتين. كنت أشبهه من ناحية الوجه بالرغم من أنني لست وسيماً؛ كانت ملامحي أقل اتساقا، عيوني داكنة أكثر، وحاجب أعرض- كنت أدنى منه من ناحية المظهر- أنحف وأخف، لست طويلا جداً كبشري، إدوارد تفوق علي بكثير، إن ثبت أن عَظَمَةَ فكرهِ كعظمة جسده فسأكون عبداً أمامه؛ لأني لن أتوقع منه كرم الأسد لشخص أضعف منه، عينه الباردة الطمّاعة، وسلوكه الحازم أخبراني أنه لا يرحم. هل كان لدي القوة العقلية للتنافس معه؟ لا أعلم، فأنا لم أحاول من قبل. غَيّر دخول السيدة كريمسوورث مسار أفكاري للحظة. بدت جيدة، مرتدية الأبيض،

شعَّ وجهها ورداؤها بعذوبة العروس. خاطبتها بدرجة من الهدوء التي سمحت لي بها بهجة الليلة الماضية، ولكنها ردت ببرودة وتحفظ: لقد علمها زوجها ألا ترفع الكلفة مع موظفه.*مكتبة الرمحي أحمد*

حالما انتهى الإفطار، أخبرني السيد كريمسوورث أنهم سيجلبون العربة عند الباب، وأنه يتوقع أن أكون جاهزاً للذهاب معه في غضون خمس دقائق إلى البلدة (X) لم أبقه منتظراً، وما لبث أن انطلقنا بسرعة عبر الطريق. كان الحصان الذي قاده هو نفس الحصان الشرس الذي عبرت السيدة كريمسوورث عن خوفها منه. مرة أو أكثر، بدا على جاك الهياج، ولكن الضرب بالسوط من يد سيده التي لا ترحم أجبرته على الخضوع ،وعبرت فتحات أنف إدوارد المتوسعة عن نصره كنتيجة للمنافسة بينهما، نادراً ما توجه إليّ بالحديث طوال الرحلة، كان فقط يفتح شفتيه بين حين وآخر ليشتم حصانه.

كانت البلدة (X) مليئة بالحركة والصخب عندما دخلناها، تركنا الأحياء السكنية حيث توجد المنازل والمحلات، الكنائس والمباني العامة؛ تركنا كل ذلك، متجهين نحو منطقة المطاحن والمخازن؛ من ثم عبرنا من بوابتين ضخمتين إلى فناء معبد، كنا في بيغ بن كلوسن وكانت الطاحونة أمامنا، تتقيأ السخام والدخان الأسود من مدخنتها الطويلة، وتهتز خلال أسوارها الآجر بحركة الأمعاء الحديدية، كان العمال يمرون جيئة وذهاباً، وكان يتم تحميل عربة بالقطع. نظر السيد كريمسوورث من جهة لأخرى، وبدا أنه من نظرة واحدة قد استوعب ما كان يجري، ترجل تاركا الحصان والعربة في رعاية رجل سارع إلى أخذ اللجام من يده، أمرني باللحاق به إلى مكتب المحاسبة. دخلناه، مكان مختلف كلياً عن قاعة استقبال بيت كريمسوورث - مكان عمل، بأرضية خشبية، وخزنة، ومكتبين مرتفعين

مع كرسيين، وبعض المقاعد. كان هناك رجل جالس على أحد المكتبين، الذي خلع قبعته عندما دخل السيد كريمسوورث، وفي اللحظة التالية عاد ليكون مشغولا بعمله، أكان كتابة أو حسابات، لا أعلم أياً منهما كان.

جلس السيد كريمسوورث بجانب النار بعد أن خلع معطفه. بقيت واقفا بجانب المدفأة؛ وقال: «ستبيتون، يمكنك أن تغادر الغرفة، لدي عمل أود مناقشته مع هذا السيد. عد عندما تسمع الجرس.»

وقام الرجل من المكتب وغادر المكان، مغلقاً الباب وراءه. حرك السيد كريمسوورث حطب النار، ثم طوى ذراعيه أمام صدره، وجلس دقيقة يفكر، بشفتين مضمومتين وحواجب متشابكة. لم يكن لدي عمل سوى مراقبته، يا لحسن ملامحه! يا له من رجل وسيم! من أين أتى انقباض تلك الهيئة القاسية لجبينه، بين كل تلك السمات المميزة؟

متجهاً نحوي، بدأ حديثه بحدة: «أتيت شاير لتتعلم كيف تصبح تاجراً؟»

«أجل، هذا صحيح»

«هل قررت بشأن هذا الموضوع؟ أعلمني بذلك.»

«أجل»

«حسن، لست مجبراً على مساعدتك، ولكن لدي منصب شاغر هنا، إن كنت مؤهلاً لاستلامه. سأجربك، ما الذي تتقن عمله؟ هل تعرف شيئاً آخر غير شهادتك الجامعية عديمة القيمة-اليونانية، اللاتينية وما إلى ذلك؟»

«درست الحساب»

«شيء أعترف أنك فعلته»

«أتقن القراءة والكتابة بالفرنسية والألمانية»

«أمم» ثم فكر ملياً، ثم فتح درجاً وأخرج منه رسالة وأعطاني إياها.

«هل باستطاعتك قراءة هذا؟»

كانت رسالة تجارية باللغة الألمانية، ترجمتها، لم أستطع تحديد ما إذا كان راضيا بذلك أم لا، بقي محياه ثابتاً.

وقال: «إنه من الجيد أنك على علم بشيء مفيد، شيء قد يمكنك من أن تكسب طعامك ومسكنك: طالما أنك تعرف الفرنسية والألمانية، سأتخذك موظفي الثاني لإدارة المراسلات الأجنبية للمنزل وسأمنحك راتباً جيداً 90£ بالسنة والآن» تابع وقد رفع صوته، «فلتسمع لمرة واحدة كل ما سأخبرك به عن علاقتنا معاً، وكل هذا الخداع! لا أريد أي تفاهات بهذا الخصوص، لأنها لا تلائمني. لم أجد لك حجةً كونك أخي؛ لو وجدتك غبياً، مهملاً، مبدداً، كسولاً، أو لديك أي عيوب قد تضر بمصالح العمل، سأطردك كما أطرد أي موظف لديّ. تسعون باونداً في السنة مرتب جيد، وأنا أتوقع أن أحصل على عمل يستحق ما أدفعه لك، تذكر أيضا أن الأمور تجري بأساس عمليّ هنا - العادات، الأفكار، والمشاعر التجارية هي ما تلائمني. هل تفهمني؟»

أجبته: «إلى حدّ ما، أفترض أن ما تعنيه أنه عليّ أن أعمل جيداً بدل الراتب الذي تعطينيه، ألّا أتوقعَ معروفاً منك، وألّا أعتمدَ عليك بأي مساعدة غير الذي أكسبه منك ؛ هذا يناسبني تماماً، وسأوافق على العمل لديك بهذه الشروط.»

استدرتُ ومشيت للنافذة؛ هذه المرة لست بحاجه لرؤية وجهه لمعرفة رأيه: لا أعلم ما كان ولم أكن مهتماً بمعرفته. بعد صمت دقائق قال «من المحتمل أنك تتوقع مسكناً لك في منزل كريمسوورث وأنك ستأتي وتذهب معي بالعربة. أريد إعلامك أن مثل هذه الترتيبات لا تناسبني. أرغب في إبقاء المقعد المجاور لي لأي رجل أعمال ، أرغب من باب تجاري في أخذه معي لتمضيه يوم أو يومين في منزلي. ستبحث عن مسكن مناسب في X. تركت النافذة وتوجهت للمدفأة.

أجبته «بالطبع سأبحث عن مسكن في X، لا يناسبني أن أسكن في بيت كريمسوورث أنا أيضاً»

كانت نبرة صوتي هادئة. دائماً ما كنت أتحدث بهدوء. مع ذلك لا تزال عين كريمسوورث الزرقاء ساخطة. حصل على انتقامه بطريقة غريبة. وقال متوجها إليّ: «أفترض أنك فقير بما فيه الكفاية، كيف تتوقع أن تعيش حتى موعد قبض أول مرتب لك؟»

قلت له: «سأدبر أمري»

وكرر بصوت مرتفع: «كيف تتوقع أن تعيش؟»

«قدر استطاعتي، سيد كريمسوورث»

«أن تقحم نفسك في الديون، أليس كذلك؟ بأي حال، أنا أعلم أنه قد يكون لديك بعض العادات الأرستقراطية المبذرة، إذا كان هذا صحيحاً تخلَّ عنها، لا أتساهل مع أي شيء من هذا القبيل هنا، ولن أعطيك شلناً إضافياً، بصرف النظر عن المسؤوليات التي تحملها على عاتقك، تذكر ذلك.»

أجل، سيد كريمسوورث، ستجد أني أتمتع بذاكرة قوية.»

لم أقُل أكثر من ذلك. لا أعتقد أنه الوقت الملائم لمزيد من التفاوض. بادرني شعور فطري أنه سيكون من الحمق أن تجعل مزاجك يفور عادة مع شخص كإدوارد. قلت لنفسي: «سوف أضع كوبي تحت القطارة، ستبقى ثابتة تحت هذا التقطير، عندما تمتلئ، ستفيض من تلقاء نفسها إبان ذلك الصبر. أمران مؤكدان. أنا قادر على أداء العمل الذي أوكله إليّ السيد كريمسوورث؛ أستطيع أن أكسب أجرتي بضمير، وهذه الأجرة تمكنني من العيش. بالنسبة لحقيقة أن أخي يتخذ موقف السيد المتكبر القاسي تجاهي، فالخطأ خطؤه، لا خطئي؛ وهل سيجبرني ظلمه ومشاعره السيئة على أن أحيد عن الطريق الذي اخترته؟ لا، على الأقل، قبل أن أنحرف، سأتقدم كفاية لأرى إلى أي مدى ستذهب بي مهنتي. أنا لا أزال على المدخل - بوابة عسيرة كفاية، يجب أن تكون نهايتها جيدة.» بينما كنت أفكر بهذا الأمر، رن السيد كريمسوورث الجرس، ودخل نفس الخادم الذي صرفه منذ قليل مجددا.

«سيد يتريتون، أري السيد ويليام رسائل الإخوة فوز، وناوله النسخ الإنجليزية من الردود، سيقوم بترجمتها». سارع السيد ستريتون، رجل في حوالي الخامسة والثلاثين، بوجه ماكر وخطير، بتنفيذ أوامره، وضع الرسائل على المكتب، وجلست على المكتب ورحت أترجم الردود من الإنجليزية إلى الألمانية. رافق هذا المجهود الأول لكسب عيشي إحساس بالبهجة، إحساس لم يتم تسميمه أو إضعافه بوجود مراقب العمل الذي وقف يراقب عملي لبعض الوقت بينما كنت أكتب. حسبت أنه كان يحاول قراءة شخصيتي، ولكني شعرت بأمان من يرتدي خوذة وقد أسدل القناع أمام وجهه لحمايته، أو بالأحرى أريته وجهي بثقة من يري رسالة باليونانية لرجل أميّ، قد يرى أسطراً، ويتبع أحرفاً، ولكنه لن يفهم شيئاً منها، طبيعتي تختلف عن طبيعته، وعلاماتها كانت لديه مثل كلمات من لغة لم

يفهمها. منذ مدة ابتعد عني مرتبكاً، وغادر مكتب المحاسبة، عاد إليه مرتين فقط خلال اليوم؛ مرة قام بخلط وشرب كأس من البراندي والماء، والتي استخرج مكوناتها من خزانة صغيرة بجانب المدفأة، بعدما ألقى نظرة على ترجمتي -يستطيع قراءة الفرنسية والألمانية- خرج مجدداً بصمت.

* * *

3

عملت عند إدوارد ككاتب بإخلاص، دقة، واجتهاد. كان لدي القدرة والتصميم على القيام بكل ما أُوكِلَ إليّ. راقب السيد كريمسوورث بدقة علّهُ يجد أخطاء، ولكن بلا فائدة؛ وكلف تيموثي ستيتون، رئيس العمال والمفضل لديه، بمراقبتي. كان تيم مرتبكاً؛ كنت أجاريه بالدقة وأسرع منه. سأل السيد كريمسوورث عن طريقة عيشي، ما إذا غرقت في الديون أم لا، حساباتي مع مالكة المنزل كانت جيدة. استأجرت مسكنا صغيراً تمكنت من دفع تكاليفه من مدخراتي القليلة وما ادخرته من مصروف خلال بقائي في ايتون، لأنه دائما كان سؤال أحدٍ مساعدةً ماليةً أمراً مكروهاً لدي، وهذا جعلني اكتسب عادة الاقتصاد في مصاريفي؛ ادِّخار مصروفي الشهري بحرص، لأتدارك خطر أن أكون مجبراً، في لحظة ضرورة مستقبلاً أن اطلب مساعدة إضافية. أذكر أن بعضهم كان يدعوني بالبخيل، وقد كنت أربط التأنيب بهذه المواساة -من الأفضل أن يسيئوا فهمي الآن على أن يتم رفضي لاحقاً. وبعد هذا اليوم حصلت على مكافأتي، حصلت عليها من قبل، عندما أعطاني خالي ورقة 5£، والتي تمكنت من تركها هناك، معلماً إياهم أن تكاليف سفري مؤمنة. وظف السيد كريمسوورث تيم ليعرف ما إذا كان لدى صاحبة البيت أي شكوى عن

أخلاقي، كان جوابها إنها وجدتني رجلاً متديناً، وسألت تيم عما إن كان لدي أي نية في الانضمام للكنيسة يوماً ما؛ لأنه، كما قالت، كان لديها مساعد قسيس يقيم في منزلها لا يجاريني في الهدوء والرزانة. كان تيم رجلا متدينا بنفسه، في الواقع، لقد كان ميتودياً، والتي لم تمنعه من أن يصبح وغداً، وقد أتى مغتاظاً من سماعه هذا الحديث عن تقاي. كونه نقله إلى السيد كريمسوورث، هذا الرجل الذي لم يتردد على دار عبادة من قبل، ولم يمتلك إلها إلّا المال، حوَّلَ المعلومات إلى سلاح يهاجم فيه اطراد مزاجي. شرع في إطلاق نظرات ساخرة مخفية، لم أفهم مغزاها منذ البداية، حتى روت لي مالكة المنزل حوارها مع السيد ستيتون، أفادني هذا، ذهبت بعد ذلك إلى مكتب المحاسبة مستعداً، وتمكنت من استقبال سخريته المجدفة، عندما صُوّبت نحوي، بحصن منيع من اللامبالاة. أعياه التعب منذ مدّة من هدر ذخيرته على صنم ولكنه لم يتخلص من أسهمه ولكنه احتفظ بها في مخزنه.

مرة خلال دوامي استلمت دعوة لبيت كريمسوورث؛ كانت بمناسبة حفلة كبيرة على شرف عيد ميلاد سيّد البيت، لطالما كان معتاداً على دعوة موظفيه لحفلات كهذه، ولم يتمكن من تجاهلي؛ كنت دائماً موضوعا في الخلف. ارتدى السيد كريمسوورث رداء ساتان بأناقة و شريطة، وكان فياضاً بالشباب والصحّة، لم يلاحظني البتة سوى بحركة قام بها عن بعد، بالطبع لم يتحدث السيد كريمسوورث إليّ؛ لم يتم تقديمي لإحدى الشابات اللاتي كنّ ملتفحات بغيوم فضية من القطن الموسلين، جلسن بترتيب في الجهة المقابلة لي، في غرفة واسعة وطويلة، في الحقيقة، لقد كنت معزولاً، ولم أتمكن سوى من تأمل المشعّات منهن عن بعد، وعندما تعبت من تأمل المنظر الساطع، كنت أتَّجِه من باب التغيير لتأمل تصميم السجاد. السيد كريمسوورث، كان واقفاً على السجاد، مسنداً ذراعه على رف الموقد،

وحوله مجموعة من النساء الجميلات، اللاتي كان يتحدث إليهن بفرح، السيد كريمسوورث بهذه الوضعية، نظر نحوي، بدوت تعبا ووحيداً؛ كبحت نفسي كالمعلم أو المربية؛ لقد كان راضياً.

ابتدأ الرقص؛وددت لو يتم تعريفي على فتاة ذكية ومحبة، وأمتلك حرية اختيار أن أريَها أنه بإمكاني الشعور وإيصال الإحساس بسعادة التواصل الاجتماعي - إنني وباختصار لست جماداً أو قطعة أثاث، ولكنني إنسان واعٍ، يفكر، ويتصرف. انسلّت العديد من الوجوه المبتسمة والأجسام الرشيقة من أمامي، ولكن تم تبديد الابتسامات على عيون أخرى، وطوّقت الأجسام بأذرع غير ذراعيّ. أشحت بعيداً معذباً، تركت الراقصين وتوجهت لغرفة الطعام المكسوة بخشب الزان والبلّوط، لم يربطني أي خيط انسجام مع أحد في هذا المنزل، بحثت عن صورة أمي ووجدتها. تناولت شمعةً من منضدة وحملتها. نظرت مطولاً وبعمق، تعلق قلبي باللوحة. انتبهت إلى أن أمي قد أورثتني كثيرا من قسماتها ومحيّاها وجبينها، عيونها، ولون بشرتها. لا يوجد جمال يعجب الناس الأنانيين بقدر حبٍ مصقول ولطيف تجاه أنفسهم؛ لهذا السبب، يعتبر الآباء برضاً قسمات وجه بناتهم، والتي دائما ما يعتبر تشابههم مرتبطاً بمسحة و رِقّة شكلهم. كنت أتساءل ما إذا كانت هذه الصورة، والتي كانت مثيرة لاهتمامي، ستصدم المشاهد النزيه، عندما نطق صوت من خلفي هذه الكلمات «همم، هناك إحساس في هذا الوجه»

استدرت، وقف رجل طويل بجانبي، شاب، بالرغم من أنه يكبرني بخمس أو ست سنوات - باعتباراتٍ أخرى للمظهر مخالفة للوضع العام، ولو أنه الآن، بما أنني لست أميل إلى رسم صورته بتفاصيلها، يجب على القارئ أن يكتفي بالصورة الظليلة التي وضعتها للتوّ، كان كل ما رأيت منه للحظة، لم أفحص لون حواجبه، ولا لون عينيه، رأيت قوامه والخطوط

العريضة لشكله، رأيت أيضاً أنفه الحسّاس، كانت هذه الملاحظات، قليلة العدد، وعامّة، (آخر ما كان متوقعاً) كافية، لأنها مكنتني من التعرّف عليه.

«مساء الخير يا سيد هانسدن» تمتم بانحناءة، وبعدها، كالمغفل الذي كنته، بدأت بالابتعاد، ولماذا؟ ببساطة لأن السيد هانسدن كان صاحب مصنع وطاحونة، وكنت أنا مجرد عامل، ودفعتني غريزتي عمّن هو أعلى مني مرتبةً. رأيت هانسدن بشكل متكرر في بيغ بن كلوس، حيث كان يأتي تقريباً كل أسبوع ليناقش أمور العمل مع السيد كريمسوورث، ولكني لم أتحدث معه، ولا هو تحدث معي، وحملت عليه نوعاً من الضغينة؛ لأنه كان أكثر من مرة الشاهد الصامت على الإهانات الموجهة من إدوارد لي. كان لديَّ قناعة أنه قد يعتبرني عبداً فقيراً، لذلك تجنبت حضوره وتحاشيت الحديث معه.

سألني بينما ابتعدت عنه: «إلى أين أنت ذاهب؟» كنت لاحظت أن السيد هانسدن قد أشبع رغبته من ضروب الحديث الفظة، وقلت لنفسي، «إنه يعتقد أنه يستطيع التحدث كما يشاء مع عامل فقير، ولكن مزاجي ليس مرناً كما كان يفترض، ولا تُسبب لي حريته الفظة أي مسرّة.

رددت عليه بلا مبالاة، وتابعت ابتعادي عنه. زرع نفسه في طريقي بكل برود.

«ابقَ هنا لفترة، إن الجو حارٌ جدا في قاعة الرقص، بالإضافة إلى أنك لا ترقص، لم يكن لديك شريكة الليلة.»

كان محقاً، وبينما كان يتكلم لم تسرّني أي من نظراته، نبرة صوته أو أسلوبه، تم استرضاء حبي لذاتي، لم يخاطبني بدافع التسامح، ولكن لأنه، لاذَ بغرفة الطعام الباردة من حرِّ قاعة الرقص للانتعاش، أراد الآن شخصاً

للتحدث معه، كطريقة معاصرة للّهو. أكره أن تتم معاملتي بدافع التسامح، ولكن أحب صنع الجميل، ولذلك بقيت.

تابع مشيراً للّوحة: «هذه صورة جيدة»

سألته: «هل ترى الوجه جميلاً؟»

«جميلاً، لا، كيف يمكن أن يبدو جميلاً، بعيون ووجنات غائرة؟ ولكنه مميز، يبدو أنه يفكر. يمكنك أن تجري حديثاً مع هذه المرأة، إن كانت على قيد الحياة، في مواضيع أخرى غير اللباس، الزيارات، والإطراء.»

اتفقت معه بالرغم من أنني لم أخبره بذلك، تابع:

«لا يعني أني معجب بوجه كهذا، فهو يفتقر إلى الشخصية والقوة، هناك الكثير من ال-حس-اس-ية (هكذا لفظها بالتفصيل، لاوياً شفته بنفس الوقت) في هذا الوجه؛ بالإضافة لذلك، هناك نبل مكتوب على الحاجب وواضح على الجسد، أكره نبلاءكم.»

«أتعتقد إذن، يا سيد هانسدن أن السلالة الشريفة والنبيلة يمكن قراءتها في مجموعة من الصفات المميزة؟»

«فلتذهب السلالة النبيلة إلى الجحيم! من يكترث ما إذا كان لنبلائكم صفاتٌ مميزةٌ أم لا، طالما لدينا -نحن تجار شاير- الصفات الخاصة بنا؟ ولكن من منهما الأفضل؟ ليست خاصتهم بكل تأكيد. أما بالنسبة لنسائهم، فالأمر مختلف معهن، فهن يحصدن الجمال منذ الطفولة وصاعداً، وربما بقليل من الاهتمام والعناية أن يصلن لدرجةٍ من الامتياز من هذه الناحية، مثل الجاريات الشرقيات. حتى هذا التفوق مشكوكٌ بأمره. قارن هذا الجسد بجسد السيدة كريمسوورث - أيهما أفضل؟

أجبت بهدوء: «قارن نفسك بالسيد كريمسوورث، يا سيد هانسدن»

«أوه، إن السيد كريمسوورث ممتلئ أكثر مني، وأعرف أن لديه أنفاً مستقيماً، حواجب محدودبة، وما إلى ذلك، ولكن لم يرث هذه الإيجابيات- إن أمكن اعتبارها إيجابيات من أمه النبيلة، بل من والده، الذين كما يقول أبي، شاباً أزرق العينين، أوسم رجل في المقاطعات الثلاث. إنه أنت يا وليام نبيل عائلتك، ولست زميلا جيداً كأخيك السوقيّ.»

كان هناك شيء في أسلوبه الصريح والمباشر جعلني مسروراً؛ لأنه أشعرني بالراحة في الحديث معه. تابعت الحديث بدرجة من الاهتمام.

«كيف تعرف أني أخو السيد كريمسوورث؟ حسبت أنك والجميع تنظرون إلي وكأني مجرد عامل مسكين.»

«حسن، وهذا ما نفعله، وماذا تكون سوى عامل مسكين؟ أنت تقوم بالعمل المُسدى إليك من قِبَل كريمسوورث وهو يمنحك مرتَبك، بالرغم من أنه مرتب قليل.»

بقيت صامتاً. اقتربت لغة هانسدن من الأسلوب الوقح، ولكن لا يزال سلوكه لم يهنّي أبداً، لقد أثار فضولي وحسب؛ أردته أن يستمر، وهذا ما فعله.

قال: «إن هذا العالم سخيف.»

«لماذا يا سيد هانسدن؟»

«أتساءل لماذا تسأل بينما أنت نفسك دليل قوي على السُّخف الذي ألمح إليه.»

كنتُ مصراً على أن يشرح لي وجهة نظره من تلقاء نفسه، دون أن أدفعه لذلك؛ لذلك التزمت الصمت.

سألني: «هل كانت نيتك أن تصبح تاجراً؟»

«كانت هذه رغبتي الجادة منذ ثلاثة أشهر.»

«يا لشدة غبائك، أنت تبدو كالتاجر! يا له من وجه جدي هذا الذي لديك!»

«إن وجهي يبدو كما صنعه الخالق، يا سيد هانسدن.»

«الخالق لم يخلق وجهك أو رأسك ليناسبا X. ما الخير الذي تستطيع صرعات الكمال والفضيلة وتقدير الذات والاجتهاد أن تفيدك هنا؟ ولكن إن كنت تحب بيغ بي كلوس، إذن ابقَ هنا؛ هذا شأنك وليس شأني.»

«ربما ليس لدي خيار آخر.»

«حسن، لا أكترث للأمر، لا فرق عندي ما الذي تفعله وأين تذهب؛ ولكني انتعشت الآن - سأذهب للرقص مجدداً، وإني أرى فتاة حسنة تجلس في زاوية أريكة بالقرب من أمها، لنرى هل سأتمكن من الحصول عليها كشريكة رقص في لمح البصر؟ إن سام وادي هناك يحاول إقناعها، ألن أوقفه؟»

وذهب السيد هانسدن، راقبته من خلال الباب، لقد تجاوز وادي، طلب يد الفتاة، وقادها بِنَصرٍ. كانت شابة طويلة، حسنة الخلقة، ممتلئة القوام، وأنيقة الملبس، وكان أسلوبها قريباً من أسلوب السيدة كريمسوورث، أدارها هانسدن خلال الرقصة بنشاط، بقي بجانبها طول الليلة، وقرأت في محياها المليء بالحيوية والرضا أنه نجح في جعل نفسه محبوباً لديها. وبدت

أمها (وهي امرأة ممتلئة، اسمها السيدة لوبتون) مسرورة، من المحتمل أن رؤيةً نبويةً قد تراءت أمام عينها الباطنية. إن جذور عائلة هانسدن ضاربةٌ في القِدم؛ ومزدرية كيورك (وكان هذا اسم محدّثي) مزعوم كونه يتمتع بإيجابيات مولده، كان عرف أو قدّر في قرارة قلبه التميّز الذي منحه إياه نسبه الغابر أو بالأحرى نسبه الرفيع في مكان شبيه بالفطر كبلدة X. فيما يتعلق بساكنيها، فلم يعرف أحدٌ شيئاً عن جدّه، علاوة على ذلك، كانت عائلة هانسدن لا تزال مستقلة، وأفاد تقريرٌ أن يورك قام بعرض عادل، عبر نجاحه في العمل، عندما أعاد الازدهار العريق لثروة عائلته التي كانت آخذة بالانهيار. بأخذ هذه الظروف عين الاعتبار، قد يكتسي وجه السيّدة لوبتون العريض ببسمة رضاً بينما راحت تتأمل وجه وريث عائلة هانسدن وود المشغول بإغداق عزيزتها سارة مارثا بالغزل. أنا الذي أصبحتْ نظراته أقلّ قلقاً، ومن المرجّح أنَّ تكون أكثر دقةً، رأيت أنَّ أسس التهنئة الأمومية كانت واهنة، بدا لي أن الرجل كان راغباً في إعطاء انطباعٍ أكثر من أن يتلقّاه. لا أعلم ما الذي كان في نفس السيد هانسدن، ذلك بينما كنت أشاهده (لم يكن لدي شيء أفضل لعمله)، اقترح علي، من حين لآخر، فكرة أنه أجنبي. في البنية والملامح قد يقال عنه إنجليزي، بالرغم من أنه قد يلاحظ عليه من خلال اندفاعه أنه شخص غالي (من بلاد الغال)؛ ولكنه لم يتمتع بالحياء الإنجليزي: تعلّم في مكان ما بطريقة ما فنَّ وضع نفسه موضع الراحة، وعدم سماحه لأي خجل من التدخل كحاجز بينه وبين رضاه وسعادته. لم يُظهِر دماثة، مع ذلك لا يمكن دعوته بالبذيء أو المبتذل؛ لم يكن غريب الأطوار، مع ذلك فهو لم يشبه أحداً رأيته من قبل، يعلن سلوكه العام عن الرضا الكامل عن نفسه، ومع ذلك، في بعض الأحيان، عَبَر شبحٌ شبيهٌ بالخسوف محياه، وبدا لي كعلامة شك قوية

ومفاجئة لنفسه، كلامه وأفعاله تعبّر عن عدم الرضا عن حياته أو عن مستواه الاجتماعي، آفاقه المستقبلية ومكاسبه الفكرية - لا أعلم أيّها، بعد كل ذلك، ربما كان كل هذا نزوة مكبوتة.

* * *

4

لا يرغب أي رجل بالاعتراف بأنه قام بخطأ في اختيار مهنته، وكل رجل يستحق الاسم، سيسبح مطولاً عكس التيار قبل أن يسمح لنفسه بالصراخ، «أنا محتار» ويسلم بأن يتم جرفه ثانية إلى البر. منذ الأسبوع الأول لإقامتي في X وجدت عملي مزعجاً، العمل بذاته، قراءة وترجمة الرسائل التجارية، كان عملاً جافاً ومضنيا كفاية، ولو كان ذلك كل شيء، لكنت تحملت كل هذا الإزعاج؛ لست ممن يمتلكون طبعاً غير صبور، متأثرا بالرغبة في الحصول على لقمة عيشي وإرضاء نفسي والآخرين أصبحت تاجراً، كان يجب عليّ أن أتحمّل بصمت صدأ وتشنج قدراتي؛ لم يكن يجب أن أهمس، حتى في نفسي، إني توّاقٌ للحريّة. كان يجب أن أحبس كل تنهيدة قد يكون قلبي قد تجرّأ وأعلن عن ضيقه تحت سد دخان، وجلبة بيغ بن كلوس الخالية من البهجة، ورغبته في الحرية والمناظر المنعشة، كان يجب عليّ أن أنصب صورة الواجب، صنم المثابرة، في غرفتي الصغيرة، وكان يجب عليهما أن يكونا آلهة منزلي، والتي بسببهما لم يقطعني العزيز على قلبي والذي كنت أقدره في قلبي الطيب منه والقوي؛ خيالي. ولكن هذا

ليس كل شيء، فالكراهية التي قفزت بيني وبين موظّفي ضاربة جذورها العميقة وناشرة ظلالها كلّ يوم، أقصتني من كل شعاع نور في الحياة؛ وبدأت أشعر كالنبتة التي تنمو في الظلمة الرطبة على جدران بئرٍ لزجة.

كان «الكره» هو الكلمة الوحيدة التي تعبر عن الشعور الذي يكنّه إدوارد كريمسوورث لي. قدر كبير من هذا الشعور كان لا إرادياً، والذي كان عرضة للهيجان من قِبل أي نظرة أو كلمة منّي. أزعجته لهجتي الجنوبية، أغاظته درجة التعليم الواضحة في لغتي، أثارت دقتي وإتقاني، وإنتاجي كرهه، وأعطته نكهة ومذاق الحسد اللّاذع؛ خشي من أنني في يوم من الأيام سأكون تاجراً ناجحاً. لو كنت أقل منه في شيء، لم يكن ليكرهني تماماً، ولكنني كنت أعلم كلَّ ما عَلِم به، والذي كان أسوأ هو تفكيره أنّني وضعت قفلاً من الصمت على ثروتي الفكرية، والتي لم يكن يجاريني بها. لو كان بإمكانه أن يضعني في موقف سخيف أو مخزٍ، لكان سامحني على ذلك، ولكني كنت محميا بثلاث ميزات: الحيطة واللباقة، والمراقبة. أما التجسس والتطفل كما كان من خبث ادوارد، لم يتمكنا من إرباك عيون الوشق خاصتي، حراستي الفطرية. قام خبثه بمراقبه بَرَاعتي يوماً بعد يوم، آملاً أنها قد تنام، وجاهزاً للانسلال كالأفعى خلال نومها، ولكن البراعة لا تنام.

تلقيت أول راتب لي، وكنت عائداً إلى مسكني، وقلبي وروحي مملوكان بشعور سعيد أن السيد الذي دفع لي تذمَّر من كلِّ بنسٍ دفعه في ذلك الراتب الضئيل (لم أعد أعتبر السيد كريمسوورث أخاً لي بل كان سيداً قاسياً؛ شاء أن يكون طاغية لا يرحم، هذا كل ما في الأمر).

شغَلَتْ عقلي أفكارٌ قوية؛ تحدث صوتان في جوفي؛ نطقا بنفس الجملة المملة مراراً وتكراراً. أحدهما قال: «يا ويليام، حياتك لا تطاق.» والآخر

قال: «ماذا يمكنك أن تفعل لتحسينها؟» سرت بسرعة؛ لأنها كانت ليلة باردة وقارصة؛ بينما اقتربت من سكني، انتقلت من نظرة شمولية لعلاقاتي إلى تخميناتي الخاصة عما إذا كانت نار منزلي خامدة؛ ناظراً تجاه نافذة غرفة المعيشة.

لم أرَ أيَّ وميض أحمر، «أهملتها تلك الخادمة الفاسقة كعادتها، ولن أرى سوى رماد شاحب إذا دخلت، إنها ليلة جيدة مضاءة بالنجوم، سأتمشى قليلاً.»

كانت ليلة جيدة، وكانت الشوارع نظيفة وجافة بالمقارنة مع X؛ كان هنالك ضوء هلالي الشكل للمشاهدة من برج الكنيسة، ولمعت المئات من النجوم في السماء.

لا شعوريا، توجهت خطاي ناحية الريف، دخلت شارع غروف وبدأت أشعر بسعادة رؤية أشجار مظلمة، حول منزل يقع في الضاحية، عندما ناداني رجل كان مستنداً على البوابة الحديدية لإحدى الحدائق الصغيرة التي تتصدر المنازل المتقنة التصميم، بينما مررت مسرعا من أمامه.

«لماذا العجلة؟ تبدو كـ(لوت) الذي ترك (صودوم) عندما شك بأن غيوماً نحاسية مشتعلة ستمطر عليهم ناراً»

توقفت لبرهة ناظراً تجاه المتحدّث. شممت رائحة سيجارة ورأيت شعلتها، انحنى ناحيتي شبح رجل. وتابع ذلك الشبح: «إنني أتأمل في الحقول هذا المساء» وتابع «يعلم الله كم هذا العمل منعش! بالذات عندما يرسل لي القدر عاملاً بازار تويدي بدلاً من أن يرسل إلي ريبيكّا على سنم جمل، بأساور ذهبية على معصميها، وحلقة في أنفها.» كان الصوت مألوفاً لي، وسماعي له للمرة الثانية مكنني من التعرف إلى صاحبه.

«عمت مساءً يا سيد هانسدن!»

«مساء جميل، هذا مؤكّد! ولكنّك كنت لِتَعبر من أمامي دون أن تتعرّف على ما لم أكن مهذبا كفاية وتحدثت أولاً.»

«لم أتمكن من التعرف عليك»

«عذر مشهور! كان يجب عليك التعرف علي، فلقد عرفتك، بالرغم من أنك كنت منطلقا كالقاطرة البخارية. هل تلاحقك الشرطة؟»

«سيكون هذا مضيعة لوقتهم، لستُ بتلك الأهمية لأجذبهم نحوي.»

«واحسرتاه، أي الراعي المسكين! يا له من شيء تندم عليه، ولأي درجة من الحزن بلغت، بالحكم من نبرة صوتك! ولكن بما أنك لست هاربا من الشركة، مِمّن أنت هارب إذاً؟ الشيطان؟»

«على العكس، أنا ذاهب إليه الآن»

«هذا جيد، الحظ حليفك: هذا مساء الثلاثاء، هناك العديد من العربات العائدة من دينيفورد الليلة، وهو أو بعض منه، لديهم مقعد فيهم كلهم؛ لذلك إذا تقدمت وجلست في ردهة العزّاب خاصتي، قد تلتقطه بينما يعبر بلا تعب أو مشقّة.» مع أنني أظن أنه من الأفضل أن تتركه وشأنه الليلة، سيكون لديه العديد من الزبائن ليخدمهم، يوم الثلاثاء هو اليوم الذي يكون فيه مشغولاً في X ودينيفورد؛ على أي حال، تفضل بالدخول»

قام بفتح البوابة بينما كان يتحدث.

سألته: «هل حقا ترغب بدعوتي إلى الدخول؟»

كما ترغب، أنا وحدي؛ ستكون رفقتك لي لساعة أو اثنتين أمراً لطيفاً، ولكن إن لم تكن تفضل إمضاء الوقت معي، لن أصرّ على ذلك. أكره أن أُجبر أحداً.»

كان ملائماً لي قبول دعوته كما ناسبه تقديمها. عبرت من البوابة وتبعته إلى الباب الأمامي، الذي قام بفتحه، من ثم قطعنا طريقا ودخلنا ردهة منزله، أشار لي بالجلوس في كرسي بالقرب من المدفأة بعد أن أغلق الباب، جلستُ وجُلت بنظري.

كانت غرفة مريحة ودافئة وجميلة؛ كان الموقد مملوءاً بنار شاير الحمراء، ليست كجمرات جنوب إنجلترا البائسة المكومة في زاوية موقد. على المنضدة، نشر مصباح ضوءاً لطيفاً ومبهجاً؛ بدا الأثاث الذي اشتمل على أريكة وكرسيين مريحين، فاخراً بالنسبة لشاب أعزب، ملأت رفوف الكتب الخفايا على كِلا جانبي الموقد؛ كانت مؤثثة بشكل جيد، ومرتبةً بتنظيم مثالي. لاءم ترتيب الغرفة ذوقي؛ لا أحب العادات غير المنظمة. استنتجت من الذي رأيته أن أفكار هانسدن بهذا الشأن تتوافق مع أفكاري. بينما أزال بعض المنشورات والصحف عن الطاولة المتوسطة إلى البوفيه، ألقيت نظرة على رفوف الكتب القريبة مني. كان أغلبها كتب فرنسية وألمانية، كتاب المسرح الفرنسيون القدماء، كتّاب مقالات متعددة، ثايرز (أدولف ثايرز، سياسي ومؤرخ فرنسي)، فيليمان، باول، جورج ساند، أوجين سو، وبالألمانية - جوته، فريدريك شيلر، هينريك تشوك، جون بول ريتشر؛ وبالإنجليزية توجد أعمال اقتصاد سياسي. لم أتمكن من تفحص المزيد؛ لأن السيد هانسدن لفت انتباهي.

«يجب أن تتناول شيئاً، فقد تشعر بالحاجة إلى شيء منعش بعد المسير لمسافة لا يعلم قدرها أحد في ليلة كَنَدِيّة كهذه، ولكن يجب ألا تكون الماء والبراندي (نوع من الشراب)، ولا حتى عبوة نبيذ، ولا عبوة من نبيذ الكرز. لا أحتفظ بسم كهذا. لدي شراب رين واين لأشربه، ولديك حرية الاختيار بينه وبين القهوة.»

لقد وافقني السيد هانسدن في هذا أيضاً، إذا كان هناك شيء أمقته بشكل عام في الحياة، فسيكون امتصاص المشروبات الروحية والنبيذ القوي. لم يكن لدي، على أي حال، رغبة برحيقه الألماني، ولكني أحب القهوة، فأجبت: «أعطني بعضاً من القهوة يا سيد هانسدن»

رأيت أن إجابتي أعجبته، لقد توقع مني ردَّ فعل لاذع تجاه عرضه الصارم لي بأنه لن يمنحني أيا من النبيذ أو المشروبات الروحية. أطلق اتجاهي نظرة فاحصة ليرى ما إذا كانت مودتي أصيلة أو مجرد تظاهر بالأدب. ابتسمت لأنني فهمت مغزاه، وبينما احترمت ثباته، أذهلتني ريبته؛ بدا راضياً، دق الجرس، وطلب قهوة، والتي تم إحضارها، أما لنفسه فاكتفى بعنقود عنب ونصف لتر من شيء حامض. كانت قهوتي ممتازة، أخبرته بذلك، وأظهرت الشفقة المرتعدة التي ألهمنيها ثمنه الروحي.

لم يجب، وأعتقد أنه بالكاد سمع تعليقي. في تلك اللحظة، كست وجهه لحظة الكسوف التي ألمحت لها مسبقاً، مطفأة ابتسامته، ومستبدلا إياها، بنظرة تجريدية، نظرته المداعبة والفَطِنة. استخدمت فترة الصمت لإجراء فحص سريع لمظهره الخارجي. لم يسبق لي أن شاهدته عن قرب من قبل؛ وبما أن نظري قصير، حصلت على فكرة غير واضحة وعامة عن مظهره، كنت مذهولا حينها، بعد تفحّص، لإدراكي كم كانت قسمات وجهه صغيرة وأنثوية؛ قامته الفارهة، خصلات الشعر السوداء الطويلة، وجهه وسلوكه العام، قد أذهلوني بفكرة وجود شيء قوي وعظيم على الإطلاق، تم صب ملامحي في قالب أخشن وأعرض من خاصّته. فطنت أنه ستكون هنالك فروق بين الرجل الباطن والظاهر منه، مثير للجدل، لأنني حسبت أن روحه لديها من التصميم والإرادة ما يفوق ما في جسده من ألياف وعضلات. ربما في غمار كل هذه المفارقات بين «بنية الجسم»

و«الشخصية» يكمن سر هذه الكآبة المتقطعة، لديه الرغبة ولكن ليست لديه القدرة، وقام عقله النشيط باحتقار زميله الضعيف. بالنسبة لمنظره، فيجب عليَّ الاستعانة بامرأة بخصوصه؛ بدا لي أنه سيكون تأثير وجهه على صبية مشابها لتأثير وجه صبية حاد ومثير للاهتمام - بالرغم من قلّة جماله- على رجل. ذكرت خصلات شعره من قبل، كانت ممشّطة بطريقة جانبية فوق جبهة بيضاء وعريضة. كان لوجنته نضارة، قد تبدو ملامحه جيدة على اللوحة الزيتية القماشية، ولكن عادية على الرخامية: كانت ملامحه تشكيليّة، وضعت الشخصية بصمتها على كل منها؛ بينما قام أسلوب تعبيره بتشكيلها كما يحب ويشتهي، ومسخته، معطيةً إياه ملامح ثور عابس، وقريباً ستمنحه ملامح فتاة مزعجة، امتزج المظهران بشكل متكرر، مشكلان مظهرا غريباً.

وبدأ حديثه، خارجا من نوبة صمته «ويليام، يا لك من شخص غبي لتقبل العيش في بيت السيد كينغس المُوحش والمعتم، بينما تستطيع أن تتخذ مسكناً هنا في غروف ستريت، وأن تكون لك حديقة كحديقتي!»

«يجب أن أكون بعيدا عن الطاحونة.»

«ماذا في ذلك؟ من المفيد لك أن تسير من هنا إلى هناك لثلاث أو أربع مرات في اليوم؛ وثم هل أنت من العصر الأحفوري لدرجة أنك لا ترغب برؤية وردة أو ورقة خضراء؟»

«لست رجلا أحفورياً»

«ماذا تكون إذن؟ أنت تجلس في مكتبك ، في مكتب محاسبة كريمسوورث طيلة أيام وأسابيع، تكشط وتكتب بقلم و ورقة، كالآلة وحسب، لا تنهض من مكانك، لا تشتكي من أنك مرهق، لم تطلب إجازة

من قبل، أنت لا ترتاح أبداً، ولا حتى تحظى بسهرة تريح أعصابك؛ أنت لا تبقى حتى برفقة من حولك أو لا تدلل نفسك بالمشروب.»

«وهل تقوم بذلك، يا سيد هانسدن؟»

«لا تعتقد أنه يمكنك إرباكي بأسئلتك، وضعي ووضعك مختلفان تماما، ومن التفاهة أن تبحث عن أي تشابه بينهما. ما أريد قوله هو أنه عندما يتحمل المرء شيئاً لا يُحتَمل، عندها يكون غبياً.»

«ومن أين لك أن تحيط علماً بصبري؟»

«ولماذا تحسب نفسك غامضاً؟ بدوت متفاجئاً تلك الليلة لمعرفتي إلى أي عائلة تنتمي، والآن تتعجب من وصفي إيّاك بالصَبور. ماذا تظن أنني فاعل بعينيَّ وأذنيّ؟ كنت في مكتب المحاسبة عدة مرات عندما كان كريمسوورث يعاملك كالكلب، عندما كان يأمرك أن تجلب له كتاباً وتقوم بجلب الكتاب الخطأ، أو كان يظن هو أنه الكتاب الخطأ، يقوم برميه في وجهك، كان يأمرك بفتح أو إقفال الباب كما لو كنت خادمه الشخصي؛ ولم يقل شيئاً عن مكانتك في الحفلة الشهر الفائت، التي لم يكن لك فيها شريكة أو حتى مكان، ولكن حام حولك كالعالة الفقير الرّث، ويا لصبرك على كل هذه الظروف!»

«حسن، يا سيد هانسدن، وماذا بعد؟»

«بالكاد أستطيع أن أخبرك ماذا بعد، النتيجة التي يتم استنتاجها عن شخصيتك تعتمد على طبيعة الأهداف التي تقود سلوكك، إن كنت صابراً على كريمسوورث لأنك تتوقع أن تحصل على شيء منه، بدافع أنك تكرهه أو لا تتحمل طغيانه، إذن فأنت ما يسميه الجميع بالمرتزقة، ولكنك قد تكون حكيما جداً، لو كنت صبوراً لاعتقادك أن الإساءة تقابل بالرضوخ،

إذن أنت ساذج، و بلا أي شكل رجلا تستحق المال، وإن كنت صبوراً لأن طبيعتك باردة وهادئة، سهلة، صعبة الاستفزاز، وأنك لا تستطيع الوصول لدرجة المقاومة ، للأسف، فقد خلقك الله ليتم سحقك، قم بالاستلقاء و دَعِ الماحقة تسحقك»

لم تكن بلاغة السيد هانسدن من النوع اللطيف أو المداهن. ضايقني بكلامه. ذكّرني بالشخصيات الذين بالرغم من أنهم حسّاسون، يكونون قاسين تجاه حساسية الآخرين. علاوة على ذلك، بالرغم من أنه لم يكن يشبه السيد تينادل ولا كريمسوورث، فقد كان جارحاً، وتوقعت أنه متعجرف بطريقته الخاصّة. كان هناك شيء من الاستبداد في لومه الذي قصد به حثّ المُضْطَهَد على الثورة على المُضطَهِد. ناظراً في عينيه بتمعن، لاحظت بوضوح أكثر قراره بمنح نفسه حرية واسعة لدرجة أنها قد تضيق على حريات جيرانه. راجعت هذه الأفكار على جناح السرعة، لم بدرت مني ضحكة خافتة وعفوية، متأثراً باكتشاف داخلي للتناقض البشري؟ كانت كما حسِبتها: تَوَقَّع هانسدن أن أتلقى تكهناته المهينة والخاطئة بهدوء سخريته الباردة والمتعجرفة، وهو نفسه قد أثارته ضحكة بالكاد أعلى من الهمس.

عبَسَتْ حواجبُه واتسعت فتحتا أنفه.

«أجل، أخبرتك أنك أرستقراطي، ومَنْ غيرُ الأرستقراطي يضحك هذه الضحكة ويبدي هذه النظرة؟ ضحكة ساخرة باردة. ضحكة متمردة؛ تهكُّم السيّد، الكره الأرستقراطي، لقد كنت أرستقراطياً رائعاً يا ويليام كريمسوورث، أنت جاهزٌ تماما لتكون واحداً، لقد أفشلَ الحظُّ التعيس الطبيعة! انظر إلى الملامح، الجسم، حتى اليدين، تميّز من جميع النواحي، تميّز بشع! والآن لو كان لديك مال وعقار، كيف يمكن أن تتصرف، أن تحافظ

على امتيازات هذه الطبقة، أن تدرب النزلاء على احترام طبقة النبلاء، أن تعارض في كل خطوة القوة المتقدمة للناس، أن تدعم نظامك الفاسد، وأن تكون على أهبة الاستعداد للخوض عميقا في دم الفلاحين، إذا جاز التعبير، ليست لديك القوة، لا تستطيع عمل شيء، أنت مقيد ومرمي على شاطئ التجارة، مجبور على الاصطدام برجال عمليين، لا تستطيع مواجهتهم لأنك من المستحيل أن تكون تاجراً.»

لم يحرّك في النصف الأول من حديثه شيئاً، على الإطلاق، وإن تأثرتُ قليلاً، فقد جعلتني أتعجب من التشويه الذي لوّث فيه التحاملُ حكمَه على شخصيتي؛ ولكن جملته الختامية، لم تحركني فقط بل هزّتني؛ كانت الضربة التي وَجَّهَتْها نحوي قاسية؛ لأن الحقيقة أشهرت السلاح. لو ابتسمت الآن لكان بدافع ازدراء نفسي.

لاحظ هانسدن تفوقه علي فاستمر في الحديث قائلاً:

«لن تجني شيئاً بالتجارة. لن تجني أكثر من كسرة خبز وبعض الماء الذي تعيش عليه الآن، فرصتك الوحيدة في الحصول على منافسة جيدة، هي بزواجك من أرملة ثرية، أو أن تهرب مع وريثة.»

قلت بينما نهضت من مكاني: «أتركُ هذه التغيرات للذين قاموا بابتكارها»

«وحتى ذلك بلا أمل» وتابع ببرودة أعصاب «أي أرملة سترضى بك؟ أي وريثة؟ لست إنساناً مغامراً كفاية للأولى، ولا وسيماً ومذهلاً كفاية للأخرى. تظن أنك مثقف ودمث الأخلاق، خذ دماثتك وثقافتك واذهب بهما إلى السوق، وأخبرني ما السعر الذي دفع لك فيهما.»

سيطر السيد هانسدن على مزاجي هذه الليلة، كان الوتر الذي لمسه شاذاً، وقد رفض أن يلمس غيره. مبغضاً النزاع، والذي نلت كفايتي منه كل يوم، استنتجت في النهاية أن الصمت والوحدة كانا مفضلين على الجدال، تمنيت له ليلة سعيدة.

«ماذا! أنت ذاهب أيّها الفتى؟ حسن، عمت مساء: ستجد طريقك إلى الباب.» وبقي جالساً بجانب النار بينما غادرت الغرفة والبيت. قطعت شوطاً كبيرا تجاه منزلي قبل أن أدرك أنني كنت أسير بسرعة كبيرة، وأتنفس بصعوبة، وكانت أظافري كانت مغروزة في راحة يدي المقبوضتين، وكانت أسناني كانت تصطكّ عند اكتشافي لهذا الأمر، أرخيت يدي وأسناني وأبطأت خطاي، ولكني لم أتمكن من إبطاء تدفق موجات الندم إلى عقلي. لمَ جعلت من نفسي تاجراً؟ لمَ ولجت بيت هانسدن هذا المساء؟ ولمَ علي، غداً فجراً أن أكون في مطحنة كريمسوورث؟ سألت نفسي كل تلك الأسئلة طوال الليل، وطالبت نفسي بأجوبة عليها طوال الليل. لم أتمكن من النوم، كان رأسي مشتعلاً، وقدماي متجمدتين؛ وأخيراً رنّت أجراس المصنع، ونهضت من سريري مع عبيدٍ آخرين.

* * *

5

لكل شيء ذَروة، لكل شعور كما لكل وضع في الحياة. قلبت هذه الحقيقة في عقلي بينما، في إشراقة فجر كانون الثاني المتجمد، أسرعت الخطى في شارع منحدر ومتجمد ممتد من منزل السيدة كينغ إلى كلوز. سبقني العاملون بحوالي ساعة واحدة ، كانت المطحنة مضاءة وجاهزة للعمل عند وصولي. ذهبت لمكتبي في مكتب المحاسبة كالعادة؛ تصاعد بعض الدخان من النار التي تم إشعالها للتوّ، لم يصل ستريتون بعد. أقفلت الباب وجلست في مكتبي، كانت يداي المغسولتان منذ قليل بماء شبه متجمد فاقدتي الإحساس؛ لن أتمكن من الكتابة حتى استعادتا حيويتهما، لذلك تابعت تأملي ولا يزال موضوع «الذروة» عالقاً في ذهني. أَزْعَجَ شعوري بعدم الرضا عن نفسي تيّار تأملاتي.

«هيا، ويليام كريمسوورث» تحث ضميري أو أيا ما يكون ذلك الذي يشغلنا ويحملنا على القيام بتلك المهمة «تعال وألق نظرة على الذي يمكن أن تحصل عليه، وما لا يمكنك الحصول عليه. أنت تتحدث عن الذروة، وهل وصل تحملك إلى ذروته هو أيضاً؟ لم يمض سوى أربعة أشهر. تخيلت نفسك أنك ستكون شخصاً جيدا عندما أخبرت خالك تينادل أنك

سَتَحْذو حذْوَ والدك، ومن المحتمل أن تحقق منها شيئاً جيداً كيف تعجبك X؟ في هذه اللحظة، ماذا عن رائحة شوارعها، محلاتها، مخازنها، ومصانعها! كيف يبهجك هذا اليوم؟ نسخ الرسائل حتى الأصيل، تناول العشاء وحيداً في مسكنك، ومن ثم نسخ الرسائل حتى المساء، ومن ثم الوحدة؛ لأنك لن تجد السعادة في منزل براون أو سميث، ولا برفقة نيكول أو أيكل، أما بالنسبة لهانسدن، فقد اعتقدتَ أنّه من الأفضل لك الابتعاد عن مجتمعه - هو! هو! كيف أعجبك إمضاؤك للوقت معه ليلة البارحة؟ هل كانت جميلة؟ وحتى هو الرجل الموهوب الأصيل لا يحبك، واعتزازك بنفسك يمنعك من أن تحبه، دائما ما كان يراك ناقصاً، ودوماً سيراك إنساناً ناقصاً؛ وظيفتاكما ليستا متساويتين، وإن كانتا متساويتين، فإن عقليكما لن يكونا كذلك؛ حتى لو حاولت جَعْلهما كذلك؛ لا تأمل إذن أن تحصل على عسل الصداقة من تلك النبتة الشائكة. مرحباً، يا كريمسوورث! إلى أين ذهب تفكيرك؟ تغادر جماعة هانسدن كما تغادر النحلة الصخرة، كما يغادر الطير الصحراء، وتنشر آمالك أجنحة توّاقة تجاه أرض من الرؤى، حيث، في الضوء المتّقد في ضوء بلدة X تجرؤ على الحلم بالتجانس والطمأنينة والوحدة. لن تقابل أيا من هؤلاء الثلاثة، لأنهم ملائكة. قد تنجح أرواح الرجال المثاليين في ملاقاتهم في الجنة، ولكن نفسك لا يمكن لها أن تصبح مثالية. دقّت الساعة الثامنة! دبت الحيوية بيديك، هيا إلى العمل!»

وقلت: «العمل؟ لم علي أن أعمل؟ لا أستطيع الإرضاء بالرغم من أنني أكدح كالعبد.» كرر صوت في جوفي «عمل، عمل!»

«قد أعمل، ولكن بلا فائدة» ولكني أخرجت رزمة من الرسائل وتابعت عملي، عمل لا نهاية له وبغيض كزحف إسرائيلي على أرض مصر التي شوتها الشمس بحثاً عن القش والقصب لتحقيق حكاية الآجر.

سمعت صوت عربة السيد كريمسوورث تدخل الساحة في حوالي الساعة العاشرة، بعد دقيقة أو اثنتين دخل إلى مكتب المحاسبة، كان من عادته أن ينظر ناحية ستيتون وناحيتي، يعلق معطفه، ويقف لدقيقة مولياً ظهره للنار، ومن ثم يخرج. لم ينحرف اليوم عن عادته، ولكن الفرق الوحيد كان عندما نظر إليّ، بدلاً من أن يكون حاجبه قاسياً، كان شرسا، وبدل من أن تكون نظرته باردة، كانت ثاقبة. تفحصني لدقيقة أو اثنتين وبعد ذلك مضى في صمت. حانت الساعة الثانية عشرة، وقت الاستراحة من العمل، رحل العمال لتناول الغداء وذهب ستيتون أيضاً، أراد مني أن أغلق باب مكتب المحاسبة وأن آخذ المفاتيح معي. كنت أربط حزمة من الورق لأعيدها في المكتب استعداداً للخروج، عندما ظهر كريمسوورث عند الباب ودخل مقفلاً إيّاه.

وقال بصوت وحشي، في حين اتسعت فتحتا أنفه وكانت عيناه تقدح شرراً: «أنت ستبقى هنا»

كوني وحيداً ذكرني بعلاقتي بإدوارد، وهذا ما جعلني أنسى اختلاف وظائفنا، وتجاهلت أسلوب الكلام الحريص وأجبته باختصار: «حان الوقت للذهاب للمنزل» وأدرت المفتاح في الدرج.

«سوف تبقى هنا، ودعِ المفتاح مكانه في القفل!»

«لماذا؟ ما السبب الذي يدفعني لفعل ذلك؟»

أفعل كما أقول لك بدون أسئلة، أنت خادمي وعليك إطاعتي! ما الذي كنت تفعله؟» قال كل ذلك بنفس واحد وتوقف عن الكلام عندما غلب الغضب النطق.

«تستطيع أن تنتظر إذا أردت، ها هو المفتاح وها هي الأوراق»

«توقف عن وقاحتك! ما الذي كنت تنوي فعله؟»

«عملك، وقد قمت به على أحسن وجه.»

«أيها المنافق الثرثار المداهن المتباكي، يا قرن الشحم.» (ذلك النعت الأخير من لهجة شاير، ويلمّح إلى قرن زيت الحوت الأسود، والذي يستخدم عادة لتزييت عجلات العربات والتشحيم).

«هيا، يا إدوارد كريمسوورث، هذا يكفي. لقد حان الوقت لنصفي حسابنا أنا وأنت. لقد خدمتك لمدة ثلاثة أشهر وقد وجدتها أشد العبوديات قرفاً على وجه الأرض. أبحث عن عامل غيري، لن أبقى هنا بعد اليوم.»

«ماذا! أتجرؤ على إعطائي ملاحظات؟ «توقف على الأقل من أجل راتبك.» وتناول السوط المعلق بجانب معطفه.

سمحت لنفسي بضحكة ساخرة لم أسعَ لإخفائها. اشتاط غضبه، وبعد أن تلفظ بدزينة من الشتائم القذرة، دون أن يرفع سوطه، تابع كلامه «لقد راقبتك وعرفت كل شيء أيها الحقير! ما الذي كنت تخبر الناس به في بلدة X عني؟ جاوبني على ذلك!»

«أنت؟ ليس لدي أي رغبة أو دافع للحديث عنك.»

«أنت تكذب، إن مهنتك هي الحديث عني، أصبحت لديك عادة إخبار الجميع والشكوى لهم عن المعاملة السيئة التي تتلقاها مني. لقد أخبرت الجميع أني أعطيك راتباً بخساً وأجعلك تتجول كالكلاب، أتمنى لو كنت كلباً! لكنت جلست وسلخت لحمك عن عظمك بهذا السوط.»

لوح بأداته، لمس آخر السوط جبهتي. جرت رعشة في عروقي، بدا أن دمي توقف، ليعود ويندفع بحرارة عبر قنواته، نهضت برشاقة ومشيت حيث كان واقفاً، وواجهته.

«اخفض سوطك! واشرح لي الآن، ماذا تعني؟»

«ها أنت! مع من تتحدث؟»

«أتحدث معك. لا يوجد أحد غيرك هنا. أنت تقول إنني كنت أستغيبك وأقول إنك كنت تستعبدني وتعطيني راتبا بخساً. أعطني دليلك على هذه الادعاءات.»

ليست لدى كريمسوورث كرامة، وعندما طالبته بدليل، أعطاني واحداً بصوت عالٍ و مؤنب.

«أتريد أسباباً؟ إذن ستحصل عليها؛ اتجه نحو الضوء كي يتسنى لي رؤية وجهك الصفيق وهو يسودّ، عندما ترى الدليل الذي يثبت أنك كاذب ومنافق. في اجتماع عام في البلدة البارحة، كان لدي الفرصة لسماع نفسي وأنا أُهان من قبل المتحدث المقابل لي في المسألة المطروحة، بالتلميح إلى علاقاتي الخاصّة بالنميمة على الوحوش التي بلا رحمة، وطاغية العائلة وما إلى ذلك من حثالة؛ وعندما نهضت للإجابة، قوبلت بصرخة من حشرة قذرة، حيث ذِكْر اسمك مكّنني من معرفة الغرفة التي نشأ بها هذا الهجوم. وعندما نظرت حولي، رأيت ذلك العدو اللدود، هانسدن يتحدث كأنه الناطق الرسمي. رأيتك تتحدث مع هانسدن في منزلي منذ حوالي الشهر، وأعلم أنك كنت في سكن هانسدن البارحة، لا تنكر ذلك.»

«لن أنكر ذلك، وإن كان هانسدن قد تعقب بعض الناس للطعن فيك فقد فعل الصواب. تستحق اللعنة؛ لم يوجد رجل أسوأ منك ولا سيد أقسى منك، ولا أخ أكثر وحشية منك.»

«هاي أنت» تابع السيد كريمسوورث، ولكي يكمل نداءه، لوَّح بالصوت تجاه رأسي. كانت دقيقة واحدة كافية لانتزاعه من يده، وكسره نصفين، ورميه تحت الموقد. اندفع نحوي ولكني تجنبته، وقلت له: «المسني وسوف أجعلك تقف في المحكمة أمام القاضي.»

إذا تمّت مقاومة أناس مثل كريمسوورث بصرامة وهدوء، يجنحون إلى تهدئة وقاحتهم الفاضحة، لم تكن له رغبة في المثول أمام القاضي، وأرى أنه أدرك أني كنت أعني ما قلته. بعد نظرة طويلة وغبية تجاهي مذهولاً، بدا أنه يعتقد أن ماله منحه مقاماً أعلى من شحاذ مثلي، وأنَّ في يديه طرقاً أخرى للانتقام أفضل من طريقة العقاب الشخصي الخطيرة.

قال لي: «خذ قبعتك وممتلكاتك واخرج من هذا الباب، ارحل إلى أبرشيتك وفقرك: تسوّل، اسرق، مت جوعاً، أو ارحل بعيداً، افعل ما تشاء، ولكن إياك أن تريني وجهك مرة أخرى! إذا سمعت أنك خطوت في إنش من ممتلكاتي، سأستأجر رجالاً لِجَلدك.»

«ليس من المحتمل أن تحصل على فرصة، حالما أكون خارج ممتلكاتك، ما حاجتي للعودة إليها؟ أتركُ شخصاً، أتركُ طاغية، أتركُ شيئاً أسوأ من أسوأ شيء قد أتعرض له، لذا لا يوجد خوف من عودتي.»

صاح كريمسوورث بي: «اذهب وإلا أجبرتك على ذلك.»

مشيت بهدوء إلى مكتبي، أخرجت من حاجياته ما كان ملكاً لي، أغلقت الدرج ووضعت المفتاح على سطح المكتب.

«ما الذي أخذته من مكتبي؟ اترك كل شيء في مكانه وإلا استدعيت شرطياً لتفتيشك.»

«انظر جيدا إذن.» وأخذت قبعتي ولبستُ قفازي، وخرجت من ذلك المكتب، خرجت ولن أعود هناك أبداً.

أذكر أنه عندما رن الجرس وقت الغداء، قبل قدوم كريمسوورث ووقوع الحادثة السابقة، كانت لدي شهية مفتوحة وكنت أنتظر إشارة بداية وقت الغداء. نسيتها الآن، ولكن، صورة البطاطا ولحم الضأن المشوي انمحت بسبب المشادة الكلامية التي حصلت منذ ساعة، فكرت فقط في المشي، في أن حركة عضلاتي ستتوافق مع ثوران أعصابي: ومشيت بسرعة بعيداً كيف لي أن أقوم بشيء آخر؟ أزيح حملاً عن قلبي؛ شعرت بالخفّة والحرية. ابتعدت عن بيغ بن كلوس بلا أي صدع في تصميمي دون أن يصاب اعتزازي بنفسي بأي كَلْم. لم أُخضع الظروف، الظروف هي من حررتني. كانت أبواب الحياة مفتوحة على مصراعيها أمامي، لم يعد أفقها محاطا بالسور الأسود لطاحونة كريمسوورث. ومضت ساعتان حتى هدأت مشاعري تركتني أعاين المكان الذي استبدلت به ذلك الحزام السخامي. عندما نظرت حولي، عجباً! امتدت أمامي غروفتاون، قرية من الفيلات تبعد خمسة أميال عن X كان يوم الشتاء القصير قد شارف على نهايته، صعدَ من النهر الذي تطل عليه بلدة X ضباب صقيعيّ، الذي امتد على ضفتيه الطريق الذي اتخذته، أعتمت الأرض ولكنها لم تتمكن من إخفاء زرقة سماء كانون الثاني الصافية. كان هناك سكون رائع هنا وهناك، فضلُ هذا الوقت الهدوء، بما أن الناس كانوا مشغولين داخل المباني، ولم تصل ساعة إطلاق الناس من العمل، ملأ الجوَّ صوتُ جريان الماء؛ لأن النهر كان عميقا وماؤه غزيراً، وقد امتلأ بالثلج الذائب. توقفت لفترة،

مستندا على جدار، ونظرت إلى الأمواج: شاهدت الاندفاعة القوية لموجاته. أردت من ذاكرتي أن تسجل انطباعا دائما للمشهد، وتحتفظ به كذكرى للمستقبل. دقت ساعة كنيسة غروفتاون الساعة الرابعة؛ ناظرا للأعلى ألتقطُّ مشهداً لأشعة الشمس الساطعة عبر بعض أغصان شجر البلوط الخالية من الأوراق المحيطة بالكنيسة، لوَّن ضوؤها المشهد كما رغبته. توقفت لبرهة حتى اختفي صوت جرس الكنيسة الهادئ من الجوّ، وخرجت من السور متوجهاً مرة أخرى تجاه بلدة X راضي العين والأذن والإحساس.

* * *

6

دخلت البلدة راجلاً جائعاً؛ تواتر إلى ذهني ثانية العشاء الذي سهوت عنه؛ ونزلت الشارع الضيق المؤدي إلى سكني بخطى سريعة وشهية مفتوحة. عندما فتحت الباب الأمامي ودلفت إلى المنزل. تساءلت عن حالة نار المدفأة، كان الليل باردا وفكرة الموقد الممتلئ بالجمر البارد جعلتني أرتعش. فاجأني، عند دخولي غرفة المعيشة، وجود نار مشتعلة ومدفأة نظيفة. بالكاد لاحظت هذه الظاهرة عندما أدركت وجود شيء يثير الإعجاب؛ كان المقعد الذي أشغله عادة قرب المدفأة مشغولاً، جلس رجل عليه وقد عقد يديه أمام صدره، ماداً رجليه على السجادة. بما أن نظري قصير، شاكاً كما كان وميض النار، تفحّصٌ عن قرب أكد لي أن الرجل الذي كان جالساً هو السيد هانسدن لا غير. لم أكن أسعد من ذلك لرؤيته، إذا أخذنا بعين الاعتبار الطريقة التي افترقت فيها عنه الليلة الفائتة، و بينما مشيت للمدفأة وحركت الجمرات لتقوية النار، قلت له بهدوء: «عمت مساء» أظهر سلوكي المودة القليلة التي شعرت بها، ولا زلت أتساءل عن السبب الذي أتى به إلى هنا؛ وتساءلت أيضاً ما هي الدوافع التي جعلته يتدخل بيني وبين إدوارد، بفضله قام بطردي من العمل، ولا زلت لا

أرغب بطرح الأسئلة عليه، أو أن أظهر له فضولي ولهفتي، إن اختارَ أن يشرح لي فسيكون هذا الخيار تطوعا منه دون سؤالي له، أعتقد أنه على وشك أن يقوم بذلك.

وكانت كلماته: «أنت تدين لي بالعرفان»

وقلت: «هل على ذلك؟ آمل ألا يكون كبيراً، لأن فقري يمنعني من تحمُّل ديون كبيرة من أي نوع.»

«إذن أعلن عن إفلاسك؛ لأن هذا الدَّين يزن طناً على الأقل. عندما أتيت إلى هنا وجدت نارك مطفأة فأشعلتها لك مجددا وجعلت هذه الخادمة التعيسة تنفخ لتذكيها حتى تشتد، والآن هيا قل: (شكراً لك)»

«ليس قبل أن أتناول شيئاً، لا أستطيع شكر أحد وأنا أتضور من الجوع.»

ضربت الجرس وطلبت شاياً وبعض اللحم البارد.

وصاح هانسدن بينما أغلقت الخادمة الباب: «لحم بارد، يا لك من شره يا ويليام! لحم مع الشاي! ستموت من كثرة الأكل.»

«لا يا سيد هانسدن، لن يحصل ذلك» شعرت بضرورة مخالفته، كنت غاضباً، ومغتاظا من رؤيته هناك، ومغتاظاً من خشونة أسلوبه.

وقال: «إن الأكل الزائد هو الذي يجعل مزاجك متعكراً.»

وطالبته: «كيف تعرف ذلك؟ هذا يشبهك أن تعطي آراء واقعية دون أن تعلم أياً من ظروف الوضع، لم أتناول غداءً»

ما قلته كان لاذعاً وعدوانياً كفاية، وكان رد هانسدن أن نظر إلى عيني وضحك.

أنَّ لبعض الوقت «أيها المسكين! لم يتناول غداءً، أليس كذلك؟ يبدو أن سيده لن يَدَعه يعود للمنزل. هل طلب منك كريمسوورث أن تصوم كوسيلة لعقابك، يا ويليام؟» (في هذه الفقرة يستخدم هانسدن ضمير it بدلًا من الضمير he ليشير إلى ويليام وكأنه كلب وليس بشراً)

«لا يا سيد هانسدن»

لحسن الحظ، عند هذه المرحلة العابسة، حضر الطعام، وبدأت مباشرة بتناول الخبز و الزبدة مع بعض اللحم. مُنهيا طبقي، أصبحت إلى هذا الحد بشرياً عندما أعلنت لهانسدن أنه يجب عليه عدم الجلوس هناك محدّقاً، وأن بإمكانه القدوم إلى الطاولة وفعل ما قمت به.

«ولكني لا أحب ذلك أبداً» وبعد ذلك استدعى الخادمة بسحبه لحبل الجرس، وأعلن للخادمة عن رغبته بشرب كأس من الماء والمخلوط بالشراب. « واجلبي المزيد من الحطب، يجب على السيد كريمسوورث أن يحافظ على دفء المكان طالما أنا هنا.»

بينما ذهبت الخادمة لتنفذ أوامره، جر كرسيه حول الطاولة حتى أصبح في الجهة المقابلة لي.

وتابع: «حسن، أفترض ليس لديك عمل الآن»

«أجل» أخذت الموضوع وكأني منزعج من الذي حدث، خضوعاً لنزوة لحظية، لعدم رغبتي بإظهار الرضا أمامه. «أجل، بفضلك، ليس لدي عمل. قام كريمسوورث بطردي، بسبب تدخلك في ملتقى عام، كما فهمت.»

«آه! ماذا! هل ذكر هذا؟ لقد رآني أشير للأولاد، أليس كذلك؟ ما الذي كان لديه ليقوله عن صديقه هانسدن شيء جيد؟»

«أوه، إنه بالكاد يعرفني، أنا شخص خجول لا يخرج ما عنده مرة واحدة، وهو بدأ بالتعرف علي للتوّ، ولكنه سيجد عندي بعض الصفات الجيدة، والممتازة! لا يوجد ند لعائلة هانسدن في تتبع الوغد، إن فريستهم هو الشرير غير الشريف، لا يستطيعون الابتعاد عنه أينما يصادفونه، الآن استخدمت كلمة واقعي- وهذه الكلمة تعود لعائلتي، كانت تطلق علينا من جيل إلى جيل، لدينا أنوف جيدة لتتبع الإساءات؛ أرسلنا وغداً لأبعد من ميل، نحن مصلحون بالفطرة، وكان من المستحيل لي العيش في نفس المدينة مع كريمسوورث، لألتقي به أسبوعياً، لأشاهد بعض من سلوكياته تجاهك (أنا لا اهتم بك البتة، ولأني لم أكن أطيق الظلم الذي أساء به إلى حقّك الطبيعي بالمساواة) ما أريد قوله هو أنه من المستحسن أن أشهد كل هذا دون أن أشعر بشيطان أو ملاك نسلي يعمل داخلي. عملت بفطرتي، عارضت طاغيةً، وكسرت قيداً.»

كان هذا الحديث مهما لي؛ لأنه أراني شخصية هانسدن الحقيقية، وشرح لي دوافعه، كان مهما لي لدرجة أنى نسيت أن أرد عليه، وجلس صامتاً متفكراً بمجموعة الأفكار التي اقترحها على هذا الحديث.

وسألني: «هل أنت ممتن لي؟»

في الحقيقة، كنت ممتنا، وكنت على شفير ذلك، وللحظة أعجبني، على الرغم من تحفظه على أن الذي عمله لم يكن من أجلي. ولكن الطبيعة البشرية عنيدة. رافضاً أن أجيب على سؤاله بالإيجاب، وطارداً أي فكرة للامتنان، سألته إن كان يتوقع أي مكافأة على بطولته، فليبحث عنها في عالم آخر؛ لأنه ليس من المتوقع أن يراها هنا. ورداً على ذلك نعتني «بالوغد

الأرستقراطي الوقح»، بينما اتهمته مجدد بأخذه الخبز من فمي (تعبير يستخدم للدلالة على التسبب بقطع الرزق).

وقال: «خبزك كان قذراً! قذراً وكريهاً! لأنه آتٍ من أيدي طاغية، وأنا أخبرك أن كريمسوورث طاغية، طاغية تجاه خدمه، طاغية تجاه موظفيه، وقريباً سيكون طاغية تجاه زوجته.»

«تفاهة! الخبز يبقى خبزاً، والمرتب يبقى مرتباً، وقد خسرتهما بسبب الذي قمت به.»

وأدرك هانسدن: «هناك منطق في كلامك، أنا مجبر على الاعتراف بأني مذهول أنك أبديت ملاحظة عملية أخيراً. اعتقدت، من خلال مراقبتي لشخصيتك، أن الفرحة التي حصلت عليها من حريتك ستمحو، لفترة على الأقل، كلّ أفكار التروي والاحتياط. غيرت رأيي فيك لنظرك إلى ما هو ضروري.»

«نظري إلى ما هو حيوي! وكيف لي أن افعل عكس ذلك؟ يجب أن أعيش، ولكي أعيش يجب أن أنظر إلى ما هو ضروري والذي لا يمكنني تحصيله إلّا بالعمل. وأعيد وأكرر، لقد أخذت منّي عملي.»

وتابع هانسدن ببرودة أعصاب: «ما الذي تريد أن تفعله؟ لديك علاقات جيدة؛ أعتقد أنهم سيؤمنون لك عملا في مكان آخر.»

«علاقات جيدة؟ من؟ لدي الرغبة في معرفة أسمائهم.»

«عائلة سيكوم»

«قطعت علاقتي بهم.»

نظر لي هانسدن بِشَكّ.

«لديّ، وهذا أكيد»

«من المؤكد أنك تعني أنهم تخلوا عنك، ويليام»

«كما تشاء. عرضوا على رعايتهم بشرط أن التحق بالكنيسة، رفضتُ الشروط والجزاء، انسحبت من عند أعمامي باردي المشاعر وفضلت رمي نفسي بين ذراعيّ أخي، والذي تم حرماني من كنفه بسبب تدخل شخص غريب، تدخلُّك أنت.»

لم أتمكن من إخفاء ابتسامة عندما قلت كل هذا، وظهر تعبير طفيف للمشاعر على شفتيّ هانسدن.

«آه، لقد فهمت» ورأيت أنه فهم تماما ما قصدته في ثناياي. وتابع، بينما كان جالسا لدقيقة أو اثنتين وذقنه على كفه، مشغولاً بقراءة محياي:

«هل أنت جاد، أليس لديك شيء لتتوقعه من عائلة سيكوم؟»

«أجل، الرفض والاشمئزاز. لماذا تسألني مرّتين؟ كيف يمكن ليدين تلطختا بحبر مكتب المحاسبة، ملطختين بشحم المخازن، أن يسمح لهما بالاتصال بالأيادي الأرستقراطية؟»

«سيكون هنالك صعوبات، بلا شك، ولكنك ما تزال من سيكوم، مظهراً، لهجةً وملامح وحتى في السلوك، أتعجب لتخليهم عنك.»

«لقد تخلوا عني، لذا لا تتحدث عن الموضوع مرة ثانية.»

«هل تندم على ذلك يا ويليام؟»

«لا»

«لِمَ لا؟»

«لأنهم ليسوا أناساً قد يكون لي معهم أي مودة.»

«أقول لك إنك واحد منهم.»

«هذا يظهر أنك بالكاد تعرف شيئاً عن الموضوع، أنا ابن أمي، ولكني لست ابن أخت خالي.»

«ولكن لا يزال أحد أخوالك سيداً، بالرغم من أنه ليس سيدا معروفاً أو غنياً، والآخر شريف.»

«هراء، أنت تعلم أو تكاد تعلم يا سيد هانسدن أنه لو كان في نيتي أن أكون مطيعا لهم، لما انثنيت عن محاولة كسب رضاهم. لكنت ضحيت براحتي ولم أتمكن من الحصول على رعايتهم.»

«من المحتمل، ولذلك رأيت أنه من الأفضل لك أن تتبع رغباتك أنت.»

«بالضبط. عليّ أن أتبع رغباتي، حتى يوم منيتي؛ لأنه لا يمكنني أن أفهم أو أتبنّى، رغبات غيري.»

تثاءب هانسدن «أرى شيئاً واضحاً في كل هذا، إن كل هذه المسألة ليست من شأني» تمَطّى ثم تثاءب من جديد، «أتساءل كم الساعة الآن. لدي موعد الساعة السابعة»

«الساعة السابعة إلّا رُبعاً حسب ساعتي.»

«حسناً إذن، سأذهب، لن تتدخل في التجارة بعد الآن؟، سألني، مسندا مرفقه على رف الموقد.

«لا، لا أعتقد ذلك.»

«ستكون أحمق إن فعلت ذلك. من المحتمل، أن تغير رأيك بخصوص عرض خالك وتلتحق بالكنيسة.»

«يجب أن يتم تجديدي على الصعيدين الداخلي والخارجي قبل أن أفعل ذلك، إن الكاهن الجيد من أفضل الناس.»

قاطعني هانسدن بتهكّم «فعلاً! هل تعتقد ذلك؟»

«أجل أعتقد ذلك. ولكن ليس لدي الصفات التي تجعلني كاهناً جيداً؛ أفضل أن أعاني من صعوبات الفقر، بدلاً عن تبني مهنة ليس لدي فيها موهبة.»

«أنت زبون صعب إرضاؤه، لن تكون تاجرا ولا كاهناً، لا يمكن أن تكون محامياً ولا طبيباً، ولا أن تنتمي إلى طبقة النبلاء؛ لأنه ليس لديك مال. أنصحك بالسفر.»

«ماذا! بلا مال؟»

«عليك أن تسافر بحثا عن العمل يا رجل، يمكنك تحدُّث الفرنسية بلكنة انجليزية رديئة بلا شك، ولكن ما زلت تستطيع تكلمها. اذهب إلى القارّة وانظر ما الذي ينتظرك هناك.»

صِحتُ بحماسة: «يعلم الله أني أريد الذهاب.»

«إذن اذهب، ما الذي يمنعك من هذا؟ يمكنك الذهاب إلى بروكسل على سبيل المثال، مقابل خمسة أو ستة باوندات، إذا كنت تعرف كيف تدبر أمورك بالاقتصاد.»

«ستعلمني الضرورة إن لم أكن أعرف.»

«فلتذهب إذا ودَعْ مواهبك تشق لك الطريق هناك. أعلم بروكسل بقدر ما أعرف X. وأنا على علم أنها ستناسب شخصاً مثلك أفضل من لندن»

«ولكن ماذا عن المهنة، يا سيد هانسدن! عليّ الذهاب إلى حيث توجد وظيفة، وكيف لي أن أحصل على توصية، أو توظيف في بروكسل؟»

«هنا يتحدث عنصر الحذر. أن تكره أن تتقدم خطوة قبل أن تعرف كل إنش في طريقك. هل لديك ورقة وقلم وحبر؟»

«آمل ذلك» وأخرجت له أدوات الكتابة بسرعة؛ لأنني خَمَّنْتُ ما كان مقدماً على فعله. جلس وكتب بعض السطور، طوى، ختم، كتب العنوان على الرسالة، وأعطاني إياها.

«هاك، هذه هي الخطوة الأولى لتزيل أول صعوبة من صعوبات طريقك. أنا واثق من أنك لست من النوع الذي قد يضع رقبته في عقدة دون أن يرى طريقة لإخراجها منها مجدداً، وأنت هناك. إني أكره المتهوّر، ولا يوجد شيء يجبرني على التدخل في شؤون شخص متهوّر، إن أولئك المتهورين مع أنفسهم، يكون تهورهم مع أصدقائهم أكثر بعشر مرّات.»

قلت له، آخذا الرسالة: «هذه هي رسالة التوصية على ما أفترض؟»

«أجل، مع هذه لن تتعرض للخطر، أن تجد نفسك في عوز، وهو شيء تعتبره مُحِطّاً من قيمتك، إن لدى الشخص الذي ستقدم هذه الرسالة له ثلاثة أماكن ليضعك في أحدها اعتماداً على التوصية.»

قلت له: «سيناسبني ذلك.»

طالَبَ السيّد هانسدن «حسن، وأين هو امتنانك؟ ألا تعرف كيف تقول شكراً؟»

وكان جوابي الذي ليس له علاقة بالموضوع «لدي خمسة عشر باونداً وساعة، أعطتني إياهنّ عرّابتي، التي لم أرها في حياتي منذ ثمانية عشر عاماً» واعتبرت نفسي على ذلك رجلاً سعيداً، و أكّدتُ أنّني لم أحسد أحداً في النصرانية من قبل.

«ولكن امتنانك؟»

«يجب عليّ أن ارحل عما قريب، يا سيد هانسدن - غداً، إن كان كل شيء على ما يرام: لن أبقى يوماً إضافيا في X.»

«جيد، ولكن من الجيد الاعتراف بالمساعدة التي حصلت عليها، كن سريعاً! ستدق الساعة السابعة، يجب أن يتم شكري.»

«فقط تنحَّ عن الطريق، سيد هانسدن: أريد المفتاح من هناك على الطرف الثاني من رف الموقد. سوف أحزم أمتعتي قبل أن أنام.»

دقت ساعة البيت السابعة.

«الفَتَى وثنيّ» قال هانسدن، ملتقطاً قبعته، وغادر الغرفة، يضحك مع نفسه. كان لدي ميول لأتبعه: رغبت بحق أن أغادر X في اليوم التالي، ومن المؤكد أنه لن تتسنى لي فرصة أخرى لأودّعه. أُغلق الباب الأمامي بقوة.

قلت: «دعه يذهب، سنتقابل مجدداً يوماً ما.

* * *

7

أيها القارئ، لا بدَّ أنك لم تكن في بلجيكا من قبل؟ ولا تعلم ولو بالصدفة ملامح الدولة؟ ولا تملك قسماتها مرسومة في ذاكرتك كما هي مرسومة في ذاكرتي؟

مدونات الماضي محفوظة في ثلاث -لا بل أربع- لوحات معلّقات على حوائط الحجرة الأربعة. أولاً: ايتون، كل ما هو في الصورة، من منظور بعيد، مصغّرة، ولكنّها ملونةٌ على نحو حديث، خضراء، وندّية، بسماء ربيعية، مكومة بالغيوم المتألقة والماطرة؛ لأن طفولتي لم تكن مملوءة بضوء الشمس، كان لديها ساعاتها المعتمة والباردة. ثانياً: X، ضخمة وداكنة، كانت اللوحة متشققة ومدخنة، سماء صفراء وغيوم سخامية، ليست سماوية، خضرة الضواحي كانت ملوثة مشهد كئيب جداً.

ثالثاً: بلجيكا، وسأتوقف عند هذا المنظر الطبيعي. وبالنسبة للرابعة: فهي مغطاة بستارة لدي الحرية في سحبها أو تركها مسدلةً، بما أراه ملائماً لي ولقدرتي. على أي حال يجب أن تبقى معلقة هكذا دون إزعاج. بلجيكا! اسم لا رومانسي ولا شاعري، ولكنه اسم لنطقه رنّة في أذني، وصدى في قلبي، لا تقدر أي تركيبة مقاطع صوتية، على إصدارها. بلجيكا! أكرر هذه الكلمة بينما أنا جالس وحدي منتصف الليل. تحرك عالَمي الماضي كعملية

البعث، تنفتح القبور ويقوم الأموات، تشاهد الأفكار والمشاعر والذكريات التي نامت، من قِبَلي وهي تصعد من الغيوم -وهم محاطين بهالات- ولكن عندما أحدق في أشكالهم الضبابية، وأحاول التحقق من هيئاتهم، يموت الصوت الذي أيقظهم، ويغرقون، كل واحد منهم، مثل غشاوة خفيفة، مستغرقة في قالب، وضعت في جرار، ثم حُرِّرَت في معالم. الوداع أيتها الأشباح المنيرة!

هذه هي بلجيكا، أيها القارئ، انظر! لا تنعت الصورة بالمهترئة أو القاتمة، لم تكن لا مهترئة ولا قاتمة بالنسبة لي عندما رأيتها للمرّة الأولى. لم يبدُ لي أن شيئاً مبتذلاً عندما رحلت عن أوستند في طريقي إلى بروكسل، كان لمتعتي حافة مشحوذة بنصل حاد. كنت صغيراً، كانت صحتي جيدة، لم ألتقِ بالبهجة أبداً، لم يُوهِن أو يُتخِم تدخل منها أحد ملكاتي الطبيعية. أمسكت بالحرية بيدي، وقد أحيت ابتسامتها وحضنها حياتي كالشمس ورياح الغرب. أجل، في تلك الفترة شعرت كأنني رحّال لا يشك في التقاطه لمشهد شروق شمس برّاقة من خلف التلال؛ ماذا لو كان الطريق ضيقاً، منحدراً وحجرياً؟ هو لا يراها، عيناه مسمّرتان على القمّة، متوردا، وكونه متورّداً فهو قد حصل على المشهد الذي كان يبتغيه. يعلم أن الشمس ستواجهه، أن عربته الآن قادمة من الأفق الشرقي، وأنّ النسيم الذي يداعب وجنته يفتح للتقدم طريقاً واسعة سماوية بين الغيوم الناعمة كاللآلئ والدافئة كاللّهب. نصيبي الكدح والمعاناة، معززة بالطاقة، مشوقة بآمال مشرقة وغامضة، لم أعتبر هذا النصيب من صعوبات الحياة. صعدت التلّة؛ كان هناك حصى وأشواك في طريقي ولكن كانت عيناي مسمّرتين على القمة القرمزية في الأعلى؛ كان خيالي محلقا في السماء الزرقاء، ولم أعرِ بالاً للصخور تحت قدمي، ولا إلى الأشواك التي تخدش يديَّ ووجهي.

نظرت أحيانا ببهجة من نافذة الديليجنس (مركبة فرنسية) (لم تكن تلك أيام القطارات والسكك). حسن! وما الذي رأيته؟ سأخبرك بأمانة. مستنقعات خضراء قصبيّة؛ حقول خصبة، محروثة على شكل بشع جعلتها تبدو كالبساتين؛ أحزمة من الشجر المقطوع، كأجمة الصفصاف، ضاربة في الأفق، قنوات ضيقة؛ تنزلق على حافة الطريق؛ بيوت مزارع هولندية، زرائب وسخة، سماء ساكنة، أرض رطبة، حقول رطبة، قمم منازل مبتلة: لم تر عيني شيئاً جميلاً أو فاتنا طول الطريق، ولكن بدا لي كل شيء جميلاً وفاتناً. استمرت هكذا لفترة طويلة مع ضوء النهار، ولكن رطوبة الأيام السابقة بللت الدولة قاطبة. ومع تصاعد الظلمة عادت الأمطار تنهمر، والتقطَت عيني أولى أضواء مدينة بروكسل، خلال الظلمة الخالية من النجوم. لم أرَ من المدينة سوى أنهارها تلك الليلة، كَوْني تَرَجَّلتُ من الديليجنس أخذتني عربة إلى فندق حيث نصحني زميل لي أن أنزل هناك، كوني تناولت عشاء رحّال، أويت إلى السرير ونمت نومة رحّال.

نهضتُ في اليوم التالي بعد نوم هادئ بشعور أني ما زلت في X. وبما أني رأيت أنه النهار، عرفت أنه أدركني النوم وقد تأخرت على مكتب المحاسبة. تلك الاستجابة اللحظية اختفت واستبدلت بالشعور بالحرية، ومشرعاً ستارة سريري البيضاء، سرَّحت نظري في غرفة بيضاء واسعة، يا لاختلافها عن الغرفة القاتمة والصغيرة! بالرغم من أنها كانت مريحة، لفندق نزلت فيه لليلة أو ليلتين في لندن، بانتظار أبحار المجموعة! بما أنه بعيد عني أن أنتهك ذكرى تلك الغرفة القاتمة! فهي عزيزة على قلبي، لأنه بينما كنتُ مستلقياً هناك في الظلمة تمكنت من سماع جرس القديس بول يخبر لندن بحلول منتصف الليل، وأذكر بوضوح النغمات العميقة الموزونة المشحونة برباطة جاش وقوة ضخمة. رأيت القبّة لأول مرة من نافذة تلك

الغرفة، بين ضباب لندن. أفترض أن الأحاسيس، المثارة بالأصوات الأولى، والمشاهد الأولى، لا يمكن الشعور بها سوى مرّة واحدة، قدّرها الذاكرة؛ أحبسهم في جرّات، وأحفظهم في محراب آمن! حسن، نهضت. يقول المسافرون إن الغرف في بلاد الغربة قاسية وغير مريحة، حسبت غرفتي مبهجة. لديها نوافذ كبيرة، تفتح كالأبواب، بألواح زجاجية صافية وواسعة؛ كان هناك مرآة على طاولة الملابس، مرآة متلألئة على رف الموقد، كانت الأرضية نظيفة ولامعة، عندما ارتديت ملابسي ونزلت السلالم، أذهلتني الدرجات الرخامية، كما أذهلتني الصالة الجليلة التي تم اقتيادي إليها. قابلت خادمة هولندية فور نزولي: كانت مرتدية حذاء خشبياً، تنورة تحتية حمراء قصيرة، لباس نوم قطني. كان لها وجه عريض، وملامح وجه حمقاء، عندما كلمتها بالفرنسية، ردت عليّ بالهولندية، بأسلوب بعيد عن الحضارة؛ ولكنني حسبتها ساحرة؛ إذا لم تكن جميلة ولا مهذبه، فهي بحق جذّابة؛ ذكرتني ببعض الإناث اللاتي في اللوحات التي رأيتها في سنين غابرة في صالة سيكوم.

قصدتُ الغرفة العامة؛ كانت واسعة جداً وعظيمة، وكان هناك موقد لتدفئتها؛ كانت الأرضية سوداء، والموقد أسود، تقريباً كل الأثاث كان أسود: ومع ذلك لم أختبر شعوراً بالابتهاج أكبر من جلوسي على طاولة طويلة سوداء (مغطّاة جزئيّاً بقماشة بيضاء)، وبعد أن طلبت الفطور، صببت لنفسي فنجاناً من القهوة من دلّة قهوة. قد يجد بعض الناس منظر الموقد قابضاً للصدر، ولكن ليس لي، ولكنه كان بلا شك دافئاً، وجلس رجلان بقربه يتحدثان الفرنسية، من الصعب متابعة كلامهم السريع أو إدراك مغزى كلامهم؛ مع ذلك كانت الفرنسية، على لسان الفرنسيين أو البلجيكيين (لم أكن على دراية بفظائع اللهجة البلجيكية) كالموسيقى في أذني. أحد

الرجلين اعتبرني رجلا انجليزياً - بلا شك من طريقة كلامي مع النادل؛ لأنني أصررت على تحدث الفرنسية بلهجة جنوب إنجلترا، بالرغم من أن الرجل كان يفهم الإنجليزية، بعد أن حدجني بنظرة أو نظرتين، بادرني الرجل الحديث بأدب بإنجليزية جيدة؛ أذكر أني دعوت الله لو أني أتحدث الفرنسية كما يتحدث هو الإنجليزية؛ أذهلتني طلاقته ونطقه الصحيح للمرة الأولى بفكرة الصفة العالمية للعاصمة التي كنت فيها؛ كانت هذه تجربتي الأولى لمهارة اللغات المتعددة التي وجدت أنها عادية في بروكسل.

تريّثت في تناول الفطور قدر استطاعتي، بينما كان على الطاولة، خلال حديثي مع الرجل الغريب، كنت رحّالاً حراً مستقلاً، ولكن في النهاية تمت إزالة الأشياء ورحل الرجُلان، وتوقف الوهم فجأة، و رجع الواقع. أنا، رجل قد تحرر من العبودية للتّوّ، تحررت من واحد وعشرين سنة من الكبح والقيود، يجب عليّ، استرداد قيود الاعتماد على الغير. بالكاد قد تذوقت فرحة التخلص من سيّد عندما ناداني الواجب: «اذهب وابحث عن وظيفة أخرى.» لا تبطئ أبدا في مهمة مضنية وضرورية؛ أنا لا أشعر بالبهجة قبل العمل، ليس من طبيعتي أن أفرح لذلك؛ من المستحيل أن أستمتع بنزهة في المدينة، بالرغم من أنّي وجدتُ الجوَّ جيّداً جداً، قبل أن أقدّم رسالة توصية سيد هانسدن، وأحصل على وظيفة جديدة، منتزعاً قلبي من الحرية والسرور، تناولت قبعتي، وأجبرت جسدي على الخروج من الفندق إلى الشارع.

كان يوماً جميلا، ولكنّي لن أنظر إلى السماء الزرقاء ولا إلى البيوت الفخمة؛ كان فكري منصباً على شيء واحد؛ العثور على «السيد براون رقم-، شارع رويال» لأنه العنوان الذي على رسالتي. نجحت بجهدي؛

وقفت أخيرا أمام الباب المطلوب، طرقت الباب وسألت عن السيد براون وسُمح لي بالدخول.

وجدت نفسي في حضرة سيد كبير في العمر، جدّي، ذي منظر محترم، عند اقتيادي إلى غرفة إفطار صغيرة. قدمت له رسالة السيد هانسدن؛ استقبلني بتهذيب. بعد القليل من الحديث المفكك سألني ما إذا هناك شيء يستطيع أن يفيدني فيه بخبرته ونصيحته. قلت له: «نعم» ورحت أخبره أنني لست رجل أعمال يسافر من أجل المتعة، بل عاملاً سابقاً، أريد وظيفة، وبشكل مستعجل. جاوبني أنه سيساعدني قدر استطاعته كونه صديقاً لسيّد هانسدن. بعد قليل من التفكير، ذكر لي اسم بيت تجاري في مقاطعة، وبائع كتب في لوفان.

تمتمت بيني وبين نفسي: «كاتب وبائع!». «لا» هززت رأسي. جرّبت هذه الوظيفة وكرهتها، اعتقدت أن هناك وظائف أخرى تلائمني، إضافة إلى أنني لم أرغب أن أغادر بروكسل.

أجابني السيد براون: «لا علم لي بمكان آخر، إن كنتَ تفكّر بالتعليم، لدي صلة بمدير مدرسة كبيرة وهم في حاجة لمدرس لغة إنجليزية ولاتينية.»

فكرت لدقيقتين، ثم أخذتُ الفكرة بجدية.

قلتُ له: «هذا هو ما كنت أبحث عنه، يا سيدي!»

سألني: «ولكن هل تفهم الفرنسية جيداً لتعلم البلجيكيين الإنجليزية؟»

لحسن الحظ كان بإمكاني الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب؛ أستطيع التحدث بالفرنسية جيداً وإن لم أكن طليقا، كوني درست الفرنسية من معلم فرنسي. أستطيع القراءة جيدا والكتابة.

تابع السيد براون: «إذن أستطيع أن أضمن لك هذه الوظيفة، لن يرفض السيد بيليت بروفيسوراً أوصيت به؛ ولكن عُد هنا مجدداً الساعة الخامسة عصراً، وسأقدمك له.»

صعقتني كلمة بروفيسور، فقلت له: «أنا لست بروفيسوراً»

«آه، لا تقلق، فكلمة بروفيسور هنا في بلجيكا تعني الأستاذ، هذا كل شيء»

هدأ ضميري، شكرت السيد براون وانسحبت في الوقت الحاضر. خرجت هذه المرّة إلى الشارع بقلب مرتاح؛ تم تنفيذ المهمة التي وضعتها لنفسي ذلك اليوم. قد أستريح الآن لبضع ساعات. شعرت بالحرية لأنظر إلى الأعلى. لاحظت للمرّة الأولى نقاء الهواء، وزرقة السماء الصافية، ونظافة المنازل المطلية بالأبيض؛ رأيت لأي مدى وصل حسن شارع رويال، وبينما أسير على رصيفه الواسع، تابعت استعراض الفنادق الفخمة، حتى أبدت السياج، البوابات، وأشجار الحديقة الظاهرة للعيان، محطّ جذب جديد. أذكر أنه قبل دخولي الحديقة، وقفت متأملا تمثال الجنرال بليارد، وثم صعدت سُلّماً عظيماً خلفه، ونظرت للأسفل نحو شارع خلفيّ، الذي علمتُ لاحقاً أنه كان يسمّى بشارع إيزابيلا. أذكر أني كنت أنظر إلى باب أخضر لبيت كبير مقابل لي حيث كان منقوشاً، على لوحة نحاسية، «مدرسة داخلية للبنات.» مدرسة داخلية! سببت لي الكلمة شعوراً بعدم الارتياح، بِتُّ وكأنها تعبر عن التحفّظ. بعض الآنسات هذه الأيام بلا شك كن يخرجن من الباب، بحثت عن وجه جميل بينهن، ولكنّ قلنسواتهن الفرنسية غطَّت ملامحهن؛ رحلن في غضون لحظة.

اجتزت قدراً معتبراً من بروكسل قبل أن تصبح الساعة الخامسة، ولكن عندما دقت الساعة الخامسة كنت قد رجعت إلى شارع رويال.

عندما دخلت مجدداً إلى غرفة إفطار السيد براون وجدته جالساً إلى الطاولة، ولكنه لم يكن وحيداً–كان هناك رجل واقف بجانب المدفأة. قُدِّمَ لي على أنه ربُّ عملي المستقبلي. «سيد بيليت، السيد كريمسوورث، سيد كريمسوورث، السيد بيليت.» انتهت حفلة التعارف بانحناءة من كلا الطرفين. لا أدري ما نوع الانحناءة التي قمت بها؛ انحناءة عادية، كما أفترض؛ لأني كنت في حالة ذهنية هادئة، لم أشعر بالاهتياج الذي شعرت به عندما قابلت إدوارد للمرة الأولى. كانت انحناءة السيد بيليت مؤدبة جداً ولكنها لم تكن مصطنعة، جلسنا أنا وهو متقابلين. أخبرني السيد بيليت بصوت جميل ومنخفض، وهذا غريب على أذني، بصوت مميز، بأنه كان يسمع عن شخصيتي وأهدافي من «السيد براون المحترم» والتي أراحته من عناء التفكير في تعييني كمعلم للغة الإنجليزية واللاتينية في المؤسسة، ومع ذلك، من أجل الشكليات، طرح عليّ بعض الأسئلة للاختبار؛ لاختبار قدرتي. قام بذلك وعبر عن رضاه عن إجاباتي بعبارات مليئة بالإطراء، طرأ موضوع الراتب بعد ذلك؛ كان الراتب ثابتاً على ألف فرنك في السنة، مع الإقامة، «وبالإضافة إلى ذلك» اقترح السيد بيليت، «بما أنه هناك ساعات معينة لن نحتاج لخدماتك خلالها، يمكنك خلالها أن تتخذ عملاً آخر، وهكذا تستغل وقت فراغك في فائدة لك.»

حسبت ذلك لطيفاً جداً، ثم وجدت أن الشروط التي أملاها علي سيد بيليت كانت متسامحة بحق بالنسبة لبروكسل، كان التعليم رخيصاً جدا بسبب كثرة عدد المعلمين. تم ترتيب الأمور على أنى سأبدأ عملي في اليوم التالي، وبعد ذاك افترقت عن السيد بيليت.

حسن، وكيف كان؟ وماذا كان انطباعي عنه؟ كان رجلا في الأربعين من عمره، حجمه متوسط، وجسده هزيل، كان وجهه شاحبا ووجنتاه

غائرتين، وعينان مجوفتين؛ كانت ملامحه عادية ومحبوبة، بلمحة فرنسية (لأن السيد بيليت لم يكن بلجيكيا، بل فرنسي المولد والنسب) ومع ذلك، كانت درجة القساوة غير المنفصلة عن قسماته الغاليّة، في هذه الحالة، مخففة بعينين زرقاوين لطيفتين، والتعبير على محياه كئيب، تقريباً معاناة، كانت ملامح وجهه رقيقة وروحانيّة. استخدمت كلمتين فرنسيتين، لأنهما تعبران بشكل أفضل من الإنجليزية عن الذكاء الذي صبغ ملامحه. كان شخصية مثيرة للاهتمام وخلّابة. تساءلت عن غياب كل صفات مهنته العادية، وخفت ألا يكون منضبطاً وحازماً كفاية ليكون معلم مدرسة. ظاهريا، كان السيد بيليت يمثل نقيضاً تاماً لرب عملي السابق، إدوارد كريمسوورث.

متأثراً بالانطباع الذي أخذته عن لطافته، كنت مذهولا عند وصولي إلى بيت مُوَظّفي في اليوم التالي، وحصولي على النظرة الأولى للذي سيكون ميدان عملي المستقبلي، أعني الغرف الصفية الواسعة ذات الإضاءة الجيدة، رأيت تجمعات طلابية كبيرة، فتيان بالطبع، الذي أظهر مظهرهم الجماعي علامات معهد تعليمي مزدهر ومنضبط. بينما أخذت جولة بين الصفوف مع السيد بيليت، خيم صمت على كل النواحي، وإذا سُمِعَتْ همس أو تمتمة، فنظرة واحدة من معلّم كانت كافية لإسكاتها فوراً. كنت مذهولاً من مدى تأثير عملية فحص بسيطة. عندما تفقدت الصفوف الدراسية، قال لي السيد بيليت: «هل تمانع أن تأخذ الأولاد كما هم وتمتحن مستوى إنجليزيتهم؟»

كان الاقتراح غير متوقع، ظننت أنه مسموح لي بثلاثة أيام للتحضير؛ ولكنه فأل سيء أن تبدأ أي عمل بالتردد، لذلك ذهبت لدرج البروفيسور الذي كنا بقربه، وواجهت حلقة الطلاب. احتجت لثانية لأستجمع أفكاري، وثانية أخرى لأجهّز بالفرنسية الجملة التي أردت أن أبدأ بها. جعلتها قصيرة قدر الإمكان، «يا سادة، خذوا كتاب القراءة الخاص بكم»

سأل أحد الطلاب ذو وجه قمري: «الإنجليزي أم الفرنسي يا سيدي؟»

كانت الإجابة بالطبع؛ «الإنجليزي.»

قررت ألا أُتعب نفسي كثيراً في هذا الدرس؛ ليس الوقت ملائما لأثق بلساني الذي ينقصه التدريب بمهمة الشرح، كانت لهجتي ومصطلحاتي عرضة للانتقاد من قبل الرجل الواقف بجانبي، بالإضافة إلى أنه ليس من الضرورة إظهار تفوقي، وتابعت باستخدام الوسائل وفقاً لذلك.

صحت بهم عندما أخرجوا كتبهم «البداية.» صاحب الوجه المدوّر (المعروف باسم جولس فاندركيلكوف، كما عرفت لاحقاً) قرأ الجملة الأولى. كتاب تعليم القراءة كان وكيل ويكفيلد، يستخدم بكثرة لأنه يحتوي أمثلة على المحادثة الإنجليزية؛ من المحتمل أن تكون لفافة رونيّة، لعدم وجود تشابه بين الكلمات، كما نطقها جولس، باللغة التي يستخدمها الإنجليز في بريطانيا العظمى. يا إلهي، كيف تكلم من أنفه، نَخَر وصَفَر؟ كل ما قاله كان يصدر من حلقه وأنفه، لأنها هذه هي الطريقة التي يتحدث بها البلجيكيون، ولكني استمعت إليه حتى أنهى قراءة الفقرة دون أن أصحح له أي كلمة، بينما بدا راضيا عن نفسه، ومقتنعاً بلا شك أنه قد أبلى بلاءً حسناً كما لو أنه إنجليزي المولد والنشأة. لزمت الصمت واستمعت إلى تلاوة مجموعة منهم، وعندما أنهى الطالب الثاني عشر بغمغمة وهسيس، وضعت الكتاب من يدي بوقار.

قلت: «توقف» كان هناك لحظة توقف أعطيت الطلاب خلالها نظرة حادة وثابتة؛ سيظهر الكلب علامات إحراج إذا نظرت إليه بحدة ولمدّة

كافية، وهذا كان تأثيري على الطلاب البلجيكيين. انتبهت إلى أن بعض الوجوه أمامي قد بدأت تعبس، وأخرى تشعر بالخزي، ضممت يدي ببطء وهتفت بصوت له صدى:

«كم هو مخيف!»

نظروا إلى أنفسهم، متجهمين، محتارين، يؤرجحون كعوبهم؛ لم يكونوا مسرورين، ولكنهم كانوا مذهولين، وبالشكل الذي تمنيتهم به. بما أني قللت من ثقتهم بنفسهم، حان الوقت الآن إلى أن أرفع من قدري لديهم، ليس بالأمر السهل، باعتبار أني بالكاد قد تحدثت لخوفي من خيانة نقصي.

قلت: «اسمعوا يا سادة!» قصدت أن أضع في صوتي نبرة لطيفة لشخص أعلى منزلة، الذي تأثر بقلة حيلتهم، والتي أثارت سخريته، يقرر أخيرا أن يمد يد العون، بدأت من أول الكتاب وقرأت بصوت بطيء ما يقارب العشرين صفحة، جلسوا جميعا صامتين، مستمعين بانتباه، مضت ساعة في الوقت الذي انتهيت فيه من القراءة. قمت من مكاني وقلت بالفرنسية:

«سنعيد غداً آمل أن كل شيء سيكون جيداً»

انحنيت لهم وغادرت الغرفة برفقة السيد بيليت.

قال مديري بعدما دخلنا الردهة: «جيد جداً، أعجبني هذا الشيء في البيان، فكرة أن يكون الشخص منتظماً مهمّة جداً وسيصبح لديه علم.»

قادني السيد بيليت إلى شقتي، غرفتي، كما قال السيد يملؤه شعور بالرضا. كانت غرفة صغيرة بسرير صغير جداً، ولكن أفهمني السيد بيليت

أنني سأشغلها وحدي، ما سبب لي راحة كبيرة. بالرغم من أنها كانت غرفة صغيرة، فقد كان لديها نافذتان. بما أنه لا توجد ضريبة على ضوء الشمس، لا يمانع البلجيكيون في دخوله منازلهم؛ فقط هنا، لم تكن هذه الملاحظة مناسبة، لأن إحدى هذه النوافذ كانت موصدة بألواح خشبية؛ أطلت النوافذ المفتوحة على ساحة لعب الأولاد. نظرت إلى الآخر بينما أتساءل ما المشهد الذي سيقدمه إذا تخلصتُ من الألواح. قرأ السيد بيليت التعبير على عيني، ومضى شارحاً.

وقال: «الشباك المغلق يطل على حديقة المدرسة الداخلية للبنات، وسائل الراحة ضرورية. حضرتك تفهم هذا؟»

كان ردّي: «أجل أجل» وبدوت راضياً بذلك؛ ولكن كان أول ما فعلته عندما رحل السيد بيليت هو تفحص تلك الألواح الخشبية عن قرب، آملا العثور على أي شق قد أتمكن من تكبيره، وألقي نظرة على الأرض المَصونة. باء بحثي بالفشل؛ لأن الألواح كانت سليمة ومرصوفة بعناية. من المذهل كم شعرت بخيبة الأمل. فكرت أنه من الجميل أن تنظر إلى حديقة مزروعة بالشجر والورود، من الرائع أن ترى الآنسات وهن يلعبن؛ كونها درست شخصية الأنثى في مراحل متعددة، بينما كنت محجوبا عن المشهد بستارة قطنية، بينما، بفضل الشكوك التافهة لدي الآن فقط خيار النظر إلى ساحة مليئة بالحصى، بخطوة كبيرة في الوسط، والأسوار والنوافذ المتشابهة لغرف الأولاد. ليس فقط حينها، بل بعد ذلك أيضاً نظرت بعين غير راضية على الألواح المعذَبة، تواقا لتحطيمها وإلقاء نظرة على المنطقة الخضراء التي تخيّلتها خلفها. عرفت أن هناك شجرة نمت حتى الشباك ولكن لم يكن

عليها أوراق لتصدر حفيفاً، غالبا ما كنت أسمع اصطدام الأغصان بالألواح. في وضح النهار، عندما أصيخ السمع؛ أستطيع سماع الآنسات في ساعات الخلق، ولأقول الحقيقة، كانت ردود فعلي العاطفية شيئاً ضئيلاً، في الحقيقة، الأصوات الوقحة المتكررة بكثرة، التي تصدر من الجنة المخفية، اخترقت عزلتي بصخب. بدت لي فعلا أن رئتي بنات الآنسة رويتر وأولاد السيد بيليت كانت الأقوى، ومن ناحية الصراخ، غلبت الفتيات الأولاد. نسيت أن أقول إن رويتر كان اسم السيدة المسنّة التي أوصدت شباكي بالألواح الخشبية. قلت عنها مسنّة لأنني استنتجت، من حكمي على حذرها وإجراءاتها أنها كبيرة في السن، ثم، لم يتحدث عنها أحد كأنها شابة. أذكر أني كنت متفاجئاً عندما سمعت اسمها المسيحي؛ اسمها زُرَيد-السيدة زريد رويتر. ولكن أناس هذه القارة يسمحون لنفسهم نزوة اختيار أسماء لم تمر علينا نحن الإنجليز. أعتقد انه لدينا قائمة محدودة لنختار منها.

إبّان ذلك كان طريقي يلين شيئاً فشيئاً. تمكنت من السيطرة على الصعوبات، تلك التي ترافق أي مهنة في العالم. منذ زمن أتقنت اللغة الفرنسية لدرجة جعلتني مرتاحا مع طلابي؛ بما أنني بدأت معهم على أساس صحيح وتابعت بصمود لأحتفظ بالميزة التي حصلت عليها، لم يحاولوا التمرّد، في حالتي، كل الذين في درجتي وعلى اطلاع بما يجري في المدارس البلجيكية، وطبيعة العلاقة بين الطلاب والمعلمين، يعتبرونه غير مهم أو شائعاً. قبل إنهائي هذا الفصل سأذكر شيئاً عن النظام الذي اتبعته في صفوفي: قد تكون خبرتي مفيدة للآخرين.

لم أكن دقيق الملاحظة لأتتبع شخصية شباب مقاطعة برابانت، ولكن يستلزم قدرا من اللباقة لربط تقاسيم الشخص بقدراته. قدراتهم

الثقافية كانت ضعيفة، وميولهم الحيوانية قوية؛ لذلك كان هناك نوع من الضعف وقوة خاملة فيهم، كانوا بليدين ولكن عنيدين وثقيلين كالرصاص، وكالرصاص صعب تحريكهم. بما أن الفتية كذلك، من المنافي للعقل أن تطلب منهم الكثير عن طريق المجهود الذهني؛ امتلاكهم لذاكرة ضعيفة، ذكاء محدود، قدرات تأملية واهنة، أدى إلى ارتدادهم بنفور عن أي عمل يتطلب فحصاً عن قرب أو تفكيراً عميقاً. وإن تم إجبار ذلك المجهود منهم بوسائل عشوائية من قبل المعلم، فسيقاومون بكل عِند وتذمر ويأس الخنازير، بالرغم من عدم شجاعتهم كأفراد ولكنهم كانوا يتصرفون بشكل جماعي.

فهمت هذا قبل وصولي إلى مؤسسة السيد بيليت، عصيان الطلاب الجماعي كان سببا في فصل أكثر من معلم لغة إنجليزية، كان من الضروري استخراج التطبيق الأكثر توازنا ووسطية من طلاب ذوي كفاءة تطبيقية قليلة - أن تساعد في كل وسيلة عملية، أن تكون لطيفا، مراعياً، وحتى متنازلاً، لحد معين، لرغبات منحرفة بشكل غير عقلاني، كوني وصلت إلى هذه الدرجة من الانغماس، يجب أن تثبت قدمك، أن تزرعها، أن تضرب جذورها في الأرض - أن أصبح ثابتا كأبراج كنيسة غاودولا؛ خطوة واحدة، أو نصف خطوة كافية لتقع رأساً في خليج الغباء، مقيماً هناك، ستتلقى دلائل من الامتنان البلجيكي والشهامة في حمام من لعاب برابانت وحفنات من الطين. قد تصقل طريق التعلم كثيراً، وتزيل كل حصبة من الطريق، ولكنك ستصر أخيراً على أن يأخذ الطالب بيدك ويسمح لك أن تقوده بهدوء في الطريق المُعَدّ. عندما خفضت مستوى درسي لأدنى مستوى طلابي،عندما أظهرت نفسي بمظهر الأستاذ الدمث والمتسامح، تغيّرني

كلمة وقاحة، أو حركة عصيان، إلى طاغية. أقدم عندها بديلاً واحداً، الخضوع والاعتراف بالخطأ، أو الطرد المخزي. استجاب هذا النظام وتأسس نفوذي على أساس قوي. كان يقال: «إن الفتى والد الرجل»، فكرت بذلك في بعض الأوقات وأنا أنظر إلى أولادي مستذكراً تاريخ أسلافهم السياسي. كانت مدرسة بيليت خلاصة الشعب البلجيكي.

* * *

8

والسيد بيليت نفسه؟ كيف استمرَّ إعجابي به؟ أوه، جيد جداً! لا يوجد ما هو ألطف من أسلوبه في معاملتي. لم أتلقَّ منه التجاهل البارد أو التدخّل المغيظ أو السلوك المتعالي. أخشى أن مرشدين مسكينين يعملان بكدّ في المؤسسة، لم يكونا ليقولا شيئا كهذا؛ سلوك المدير بالنسبة لهم كان جافاً، حازماً، وباردا. أعتقد أنه لاحظ تفاجئي بالفرق الذي وضعه بيني وبينهم، وقد علل ذلك قائلا ببسمة ساخرة «هذه ليست سوى فلمنكية!»

ومن ثم سحب السيجار من فمه وبصق على أرضية الغرفة التي كنا جالسين بها. لقد كانوا بحق فلمنكية كلاهما كانت لديه ملامح الوجه الفلمنكية حيث كانت عقدة النقص واضحة في خطوط لا يمكن إخطاؤها؛ لم يزالوا رجالاً، رجالاً صادقين؛ ولا أفهم كيف تخدم حقيقة كونهم سكان الأرض الأصليين كحجة لمعاملتهم بقسوة وحقارة. سمَّمت هذه الحقيقة البهجة التي كنت سأستمدها من سلوك السيد بيليت الدمث معي.

من المؤكد أنه مقبول أن تجد مُوَظِّفكَ بعد ساعات العمل قد أصبح زميلاً مرحاً، وإذا كان في بعض الأحيان ساخراً أو في بعض الأحيان متملقاً، ولو اكتشفت أن دماثته كانت تظاهرا أكثر منه حقيقة، ولو اشتبهت

بوجود صوّان أو حديد تحت غطاء خارجي من المخمل- مع ذلك لا أحد منا كامل، مرهقاً من جو القسوة والغطرسة الذي عشته في X، ليس لدي نية الآن في إلقاء مرساة في منطقة هادئة، أن أشرع في بحث فضولي عن عيوب تم إخفاؤها عن ناظري. أردت أن آخذ السيد بيليت كما بدا لي، أن أصدق أنه مطبوع على حب الخير ولطيف حتى يثبت لي حدث معاكس أنه عكس ذلك. لم يكن متزوجاً، وعرفتُ بعد ذلك أنه لديه جميع الأفكار الفرنسية والباريسية عن الزواج والنساء. توقعت وجود درجة من الانحلال في أخلاقه، كان هناك شيء من البرودة والسأم في نبرته كلما لَمّح إلى ما كان يسميه «الجنس اللطيف»؛ ولكنه كان مهذباً ليدخل في مواضيع لم أستدعها، بما أنه كان ذكيا جدا ومعجباً بالنقاشات الثقافية، كان لدينا الكثير لنتحدث فيه، دون أن نبحث عن مواضيع في الوحل. كرهت أسلوبه في ذكر موضوع الحب، أمقتُ الفجور من صميم قلبي. شعر باختلاف أفكارنا ولذلك، عبر اتفاق صامت، بقينا بعيداً عن الموضوع.

كانت أمُّ بيليت هي التي تعتني بمنزله، وهي سيدة فرنسية حقيقة؛ كانت جميلة، على الأقل هذا ما روته لي، وسعيت لتصديقها، أصبحت الآن بشعة، ربما طريقة لبسها جعلتها تبدو أبشع مما هي حقاً. قد تمشي داخل المنزل بدون قبعة، بشعر مشعث، نادراً ما كانت ترتدي ثوباً في المنزل؛ قميصاً قطنياً؛ حذاء غريبا على قدميها، وبدلاً منهم ارتدت شباشب واسعة، مداسة عند الكعوب. من ناحية أخرى، عندما يحلو لها أن تخرج من المنزل، كما في أيام الأحد، فإنها ترتدي رداء ملونا، قماشه خفيف، قبعة حرير مزينة بإكليل من الزهر، مع شال جميل. لم تكن عجوزا سيئة الطباع، ولكن متحدثة طائشة. دائما ما كانت تبقى في المطبخ، كانت تتجنب ابنها، من الواضح أنها كانت تخاف منه، عندما كان يوبخها، كان توبيخه عنيفاً ومطنبا، ولكنه نادرا ما كان سيكلف نفسه عناء توبيخها.

كان لدى السيدة بيليت مجتمعها، دائرة زائريها المختارة الذين لم أرهم إلّا نادرا لأنها كانت تستقبلهم فيما تسميه مكتب، جرة صغيرة محاذية للمطبخ، ويُنزل إليها بدرجة أو درجتين. رأيت السيدة بيليت مرات عديدة جالسة على الدرجتين منشغلة بالمهمة الثلاثية التي تتضمن تناولها لعشائها، وتبادل القيل والقال مع خادمتها المفضلة، مدبرة المنزل، وتوبيخ عدوها، الطبّاخ، لم تكن تتناول الغداء، ومن الواضح أنها لم تتناول الطعام مع ابنها، وبالنسبة لأن ترى وجهها على طاولة الأولاد، فكان هذا مستحيلاً. قد تبدو هذه التفاصيل غريبة على الأذن الإنجليزية، ولكن هذه بلجيكا، وبلجيكا ليست إنجلترا، وأساليبهم ليست كأساليبنا. بأخذ عادات حياة السيدة بيليت، كنت متفاجئاً حينما في مساء أحد أيام الخميس (كان الخميس دائما نصف عطلة)، بينما كنت جالسا في غرفتي أصحّح عددا من أوراق عمل في اللاتينية والإنجليزية، طرق خادم على الباب، وعندما فُتح الباب، قدم لي إطراءات السيدة بيليت وستكون سعيدة لرؤيتي أتناول الطعام (وجبة مشابهة لشاينا الإنجليزي) معها في غرفة الطعام.

قلت: «متعة؟» لأني ظننت أني أسأتُ الفهم، كانت الرسالة والدَّعوة غير عاديتين؛ تكررت نفس الكلمات. قبلت الدعوة، بينما أنا أنزل الدرجات تساءلت أي نزوة دخلت عقل المرأة الكبيرة، كان ابنها خارج المنزل - ذهب ليمضي الليلة في قاعة جراند هارموني أو نادٍ آخر كان هو عضواً فيه. عبرت ذهني فكرة غريبة بمجرد أن لمست مقبض الباب.

قلت «من المؤكد أنها لن تمارس الحب معي، سمعت عن عجائز فرنسيات يقمن بأشياء غريبة في ذلك الخط، والطعم؟ أعتقد أنهم يبدؤون بعلاقات كهذه بالطعام والشراب.»

كان في اقتراح عقلي المُثار درجة كبيرة من الرعب، وأن سمحت لنفسي أن أمعن التفكير بالأمر توقفت حينها، عدت مسرعاً إلى غرفتي، وأغلقت على نفسي الباب؛ ولكن عندما يكون الرعب الخطر مُلَثّماً، ستكون أمنية العقل الأولى هي التأكد من الحقيقة المجردة، محتفظاً بذريعة السفر إلى لحظة تحقّق التوقّع المرعب. أدرت مقبض الباب وعبرت العتبة، أغلقت الباب خلفي، وقفت في محضر السيدة بيليت.

يا إلهي! بدا أن مظهراً يؤكد لي ما كنت أخشاه. كانت جالسة هناك، مرتدية ثوبا من الموسلين الأخضر، قبعة مزينة بشريطة وورود حمراء في أهداب الثوب؛ كانت طاولتها مفروشة بحذر؛ كان هناك فواكه، كعك، وقهوة-مع قارورة من شيء لم أعرف كنهه. بدأ العرق البارد بالنزول على حواجبي، كنت قد نظرت خلفي نحو الباب المغلق، عندها ما أراحني هو - عندما سرحت عيني في اتجاه الموقد- أني وجدتُّ جسداً آخر جالسا على كرسي كبير بجانبه. كانت امرأة أيضا، وكانت سمينة ومحمرّة بقدر ما كانت السيدة بيليت نحيلة ومصفرّة، فوق ذلك كان لباسها جيداً، وأحاطت زهور ربيعية بألوان مختلفة تاج قلنسوتها البنفسجية المخملية. كان لدي الوقت فقط لملاحظة هذه الأمور عندما بادرتني السيدة بيليت بالكلام عندما اقتربت مني بما أرادتها أن تكون خطوة رشيقة ومرنة: إن السيد مجبر على أن يترك كتبه ودراساته وفقا لطلب شخص غير مهم مثلي، هل يسمح لي السيد أن أعرفه على صديقتي العزيزة السيدة رويتر، التي تسكن في المنزل المجاور لمدرسة الآنسات؟؟»

فكرت «آه، عرفت أنها كانت كبيرة في السن» انحنيت واتخذت مجلسي، جلست السيدة رويتر إلى الطاولة مقابلي.

سألتني بلهجة بروكسل: «هل تعجبك بلجيكا، يا سيد؟» أستطيع الآن أن أميز بين النطق الباريسي للسيد بيليت وبين لفظ الفلمنكيين. أجبت بأدب وتساءلت عن مدى الخشونة التي يجب عليها أن تكون كرئيسة لمعهد لندوة النساء التعليمية، والذي كنت دائما ما أسمع عنه مديحاً. في الحقيقة كان هناك شيء يجعلك تتعجب. بدت السيدة رويتر كمُزارعة مرحة فلمنكية، أو حتى سيّدة نُزُل بدلا عن مديرة مدرسة داخلية صارمة. بشكل عام، فإنّ نساء القارة أو على الأقل النساء البلجيكيات يسمحن لأنفسهن بحرية معينة لسلوكهن، حديثهن، وهيئتهن، مثل التي قد تعرض عنه عجائزنا باعتباره قذرا، وحمل وجه السيدة رويتر دليلا على عدم اختلافها عن نساء هذه الدولة؛ كان هناك لمعان وشهوانية في عينها اليسرى، أبقت عينها اليمنى نصف مغلقة كالعادة، وهو أمر حسبته غريبا جداً. بعد عدة محاولات فاشلة في معرفة دوافع هاتين المرأتين المضحكتين في دعوتي للانضمام إليهن في الطعام، تخليت عن الموضوع، مستسلما للحيرة الحتمية، جلست وقلّبت نظري بينهما، حريصاً على أن أكون منصفاً تجاه الكعك والقهوة الذي أمدتاني بهما. تناولتا الطعام أيضاً بشهية، بعد أن أتيتا على كميّة كبيرة من الكعك، قدمتا لي كأسا صغيرة. رفضتها. أما السيدتان فقد خلطا لنفسيهما ما بدا لي قدحاً من البنش، (شراب مُسكِر) واضعا إياه على منضدة قرب المدفأة، سحبتا كرسيهما ودعتاني أيضا لأنضم إليهما. أطعتهن؛ كوني جالساً بينهن، خاطبتني السيدة بيليت أولاً ومن ثم السيدة رويتر.

قالت السيدة بيليت «ستتحدث الآن عن العمل،» وتابعت الحديث بتفصيل، والذي كان بتأثير من رغبتها في دعوتها لي لذلك المساء لتعطي صديقتها السيدة رويتر الفرصة لتقدم اقتراحا مهماً، والذي قد يتضح أنه يقع في مصلحتي.

قالت السيدة رويتر: «شرط أن تكون حكيماً، وبالفعل أنت كذلك. خذ رشفة من البنش (أو البونش كما لفظتها) لكنه شراب لطيف وصحي بعد وجبة دسمة.

انحنيت، ولكن رفضته. تابعت.

قالت بعد تناولها رشفة: «أشعر بعمق بأهمية السلطة التي منحتني إياها ابنتي العزيزة، لأنك على وعي، يا سيد، أن ابنتي هي من تدير المؤسسة في المنزل التالي؟»

«آه ظننت أنه أنتِ من تديرينها، يا سيدتي» بالرغم من أني أذكر أنها كانت تُدعى مدرسة الآنسة رويتر الداخلية وليست السيدة رويتر.

«أنا! آه لا، أنا فقط أدير المنزل وأراقب الخدم، كما تفعل صديقتي السيدة بيليت لابنها ليس أكثر من ذلك. آه، حسبتَ أنني أعطي دروسا في الصف، أليس كذلك؟»

وضحكت بصوت عال ضحكة طويلة، كما لو أن الفكرة دغدغتها.

قلت: «لا يحق للسيدة أن تضحك، إذا كانت لا تعطي دروساً، فهذا ليس لأنه ليس باستطاعتها» وأخرجت منديلاً أبيض وحملته إلى أنفي، منحنيا في نفس الوقت.

تمتمت السيدة بيليت بصوت منخفض: «يا له من شاب ساحر!» كون السيدة رويتر أقل عاطفية، بما أنها كانت فلمنكية وليست فرنسية، اكتفت بالضحك مرّة أخرى.

وقالت: «أنت شخص خطير، إن كان بإمكانك أن تلفق إطراء بهذه الدرجة، ستكون زُرَيْد خائفة منك؛ ولكن إن كنت طيبا، فسأحتفظ بسرك،

ولن أخبرها عن قدرتك على المجاملة. والآن اسمع للاقتراح الذي تطرحه عليك. سمعت أنك معلم ممتاز وبما أنها تسعى للحصول على أفضل المعلمين لمدرستها (تفعل كل شيء وكأنها ملكة، وهي في الحقيقة عشيقة زوجها) كلفتني بمهمة التدخل هذا المساء، وإقناع السيدة بيليت باحتمالية تشغيلك. زُرَيْد محترسة، فهي لا تتقدم خطوة دون أن تتفحص الأرض بشكل جيد لدرجة أنها لن تكون سعيدة عندما تعلم أني كشفت نواياها لك، لم تأمرني بالذهاب إلى ذلك الحد، ولكني فكرت أنه لا يوجد ضرر من إطلاعك على السر، وكان لدى السيدة بيليت نفس الرأي. احرص على ألا تخوننا لدى زُرَيْد-أعني لابنتي؛ إنها إنسانة كتومة وحريصة، لا تستطيع أن تفهم متعة أن ينهمك المرء في القيل والقال قليلاً.

صاحت السيدة بيليت: «تماما مثل ابني!»

ردَّت الأخرى: «تغير العالم كثيراً منذ طفولتنا! أصبح لدى الشباب رؤوساً قديمة الآن. ولكن لنعد للموضوع، يا سيد. ستذكر السيدة بيليت موضوع إعطائك الدروس في مؤسسة ابنتي لابنها، وهو سيتحدث معك؛ وغداً، تأتي لمنزلنا، وتطلب مقابلة ابنتي، وستذكر لها الموضوع وكأنك عرفت عنه أول مرة من السيد بيليت نفسه، وكن متأكدا من عدم ذكر اسمي تماماً، لأني لا أرغب بانزعاج زُرَيْد على حسابي.»

«جيد، جيد!» قاطعتها-لأن كل هذا الحديث والإطناب قد بدأ يشعرني بالملل الشديد، «سأستشير السيد بيليت وسيسير كل شيء كما ترغبون. عمتنّ مساء، أيتها السيدات. أنا ممتن لكن.»

قالت السيدة بيليت: «كيف ستذهب الآن؟»

«دون أن تأخذ شيئاً معك أيضاً من التفاح أو البسكويت أو القهوة؟»

«شكراً، شكراً» وخرجت أخيرا من الشقة.

رجعت إلى غرفتي راجعت في عقلي ما حدث هذا المساء. بدا الأمر غريباً، ومعالجَاً بطريقة غريبة، عقدت المرأتان الأمور قليلاً، ولكنني أجد أن الشعور الأول لي تجاه هذا الموضوع هو الرضا. في المقام الأول، سيكون إعطاء دروس في معهد آخر ضرباً من التغيير، وتعليم الآنسات سيكون وظيفة مثيرة للاهتمام، وأن يسمح لك بالدخول على مدرسة للآنسات سيكون حدثاً جديدا علي. فكرت بينما كنت أنظر إلى النافذة الموصدة بالألواح «فوق ذلك، سأرى أخيرا الحديقة الغامضة: سأحدّق بالملائكة وبجنة عدن.

* * *

9

لم يتمكن السيد بيليت من رفض عرض السيدة رويتر؛ الأذن بقبول موظف إضافي، كونه شكل مقالة عن شروط تشغيلي. تم ترتيب الأمور من اليوم التالي لأعطي دروساً في مؤسسة السيدة رويتر فترة الأصيل من كل أسبوع.

عندما حل المساء، سعيت إلى الاجتماع بالآنسة حول الموضوع؛ لم يتوفر لدي الوقت للزيارة كوني كنت مشغولا جداً بصفوفي. أذكر أنه قبل خروجي من غرفتي ناقشت نفسي فيما إن كان عليّ أن أغير ملابسي لشيء أكثر أناقة. استنتجت أخيرا أن الأمر سيكون مضيعة للجهد. فكرت «بلا شك، أنها عجوز صارمة؛ مع أنها ابنة مدام رويتر، فقد تكون تجاوزت الأربعين خريفاً، علاوة على ذلك، لو كان الأمر عكس ذلك فكانت شابة وجميلة، فإني لست وسيماً، ولا يمكن لأي لباس أن يجعلني كذلك، لذلك سأذهب بهيئتي هذه،» وانطلقت، ناظراً من جانب لآخر بينما تعدّيت باب المرحاض، مغلوباً من مرآة: رأيت وجها نحيفا اعتياديا، بعينين غائرتين وداكنتين تحت جبهة كبيرة وعريضة، ببشرة خالية من تورّد أو جاذبيّة؛ شيء صغير، ولكنه ليس شاباً، لا يهدف لكسب حب الآنسة، ليست مؤخّرة لسهام كيوبيد.

بعد قليل كنت عند مدخل المنزل، سحبت الجرس في ثانية؛ وفي التالية فُتح الباب، وظهر خلفه طريقٌ معبد بالرخام الأبيض والأسود؛ تم طلاء الحائط بطريقة مشابهة للرخام، وفي نهاية الطريق فتح باب زجاجي، رأيت من خلاله شجيرات، تبدو ساحرة تحت أشعة شمس مساء ربيعي؛ لأنه حان الآن منتصف نيسان.

كانت هذه نظرتي الأولى للحديقة؛ لكن لم يكن لدي الوقت لأطيل النظر، بعدما أجابت الخادمة عن سؤالي عما إذا كانت سيدتها في المنزل بالإيجاب، فتحتَ الأبواب القابلة للطي على اليسار، وبعد أن أشارت لي بالدخول أغلقتها خلفي. وجدت نفسي في صالة بأرضية مدهونة بشكل حسن. كانت الكراسي والأرائك مغطاة بستائر من الجوخ، موقد فخاري أخضر، صور معلقة على الجدران بأُطرٍ ذهبيّة، ساعة بندول ذهبي، وزينات أخرى على رف الموقد، تتدلى ثريا كبيرة متلألئة من منتصف السقف، مرايا، مفاتيح أرغن، ستائر من الموسلين، وأكملت تصميم الأثاث طاولة رئيسية جميلة. بدا كل هذا جميلا ولامعاً، ولكن كاد الأثر العام أن يكون قارساً لولا أن كان لديها أبواب أخرى قابلة للطيّ، مفتوحة، مُبدية للعيان صالوناً أصغر، مؤثثاً بأناقة أكثر قد أبدى راحة أكثر للعين. كانت الغرفة مكسوة بالسجاد، وكان هناك بيانو، أريكة، خزانة شيفون فوق ذلك، كانت تحتوي على نافذة بهية بستارة قرمزية، والتي عرضت مشهدا للحديقة كونها لم تكن مغلقة، خلال الألواح الزجاجية الكبيرة، والتي دارت حولها أوراق نبات اللبلاب، وبعض من نبات الكرمة.

قال صوت من خلفي «السيد كريمسوورث، أليس كذلك؟» واستدرتُ متفاجئاً بحركة إلزامية. كنت مأخوذاً بتأمل الصالة الجميلة لدرجة أني لم أنتبه لدخول أحد إلى الغرفة الكبيرة، كانت الآنسة رويتر من

خاطبتني، ووقفتْ قربي، وعندما انحنيت لها بدم بارد مستردٍ فورياً - لأني لا أحرج بسهولة-بدأت الحديث بالإشارة إلى مدى جمال حجرتها الصغيرة، والميزة التي تتفوق بها على السيدة بيليت وهي أنه لديها حديقة.

قالت: «أجل» دائما ما كانت تعتقد ذلك، «إنها الحديقة التي جعلتني أحتفظ بهذا المنزل، وإلّا ما كنت بقيت في هذا المنزل وانتقلت إلى واحد أكبر وأفضل منذ زمن، ولكن كما ترى فلا يمكنني أن آخذَ حديقتي معي، ومن النادر أن أعثر على حديقة بحجمها وجمالها في أي مكان آخر في البلدة.»

وافقتها الرأي.

قالت وهي تقف: «ولكنك لم ترها بعد، اقترب من النافذة وانظر إليها جيداً.» تبعتها، فتحت النافذة، ومائلا إلى خارج النافذة، استطعت رؤية الأرض المطوية التي كانت بالنسبة لي منطقة غير معروفة. كانت قطعة طويلة، ولكن ليست عريضة من أرض مُسْتَنْبَتَة، بواد محاط محدود بأشجار فواكه عملاقة حتى المتنصف؛ كان هناك نوع من مرجة خضراء، روضة من أشجار الزهر، وبعض من الورود، وعلى الجانب البعيد، أيكة مزروعة باللَيلَك وشجر الأبنوس والأكاسيا. بدت جيلة في نظري، شديدة الجمال، مضى عليّ زمن طويل لم أرَ فيه حديقة كهذه. لم تكن عيناي مسمّرتين فقط على حديقة الآنسة رويتر، بل ألقيت نظرة على شجيراتها المتبرعمة، سمحت لنظري بالعودة إليها، ولم أبعده بسرعة.

حسبت أنني سأرى صورة سوداء طويلة وهزيلة، صفراء، بقلنسوة بيضاء، معصوبة تحت الذقن كمنديل راهبة؛ بينما وقفت بجانبي امرأة ضئيلة الحجم، مشكلة على نحو مستدير، التي تكون بالتأكيد أكبر مني، ولكن لا تزال شابة؛ لا يمكن أن تكون، كما أعتقد، أكبر من ستة وعشرين

أو سبعة وعشرين سنة؛ كانت بوسامة امرأة انجليزية؛ لم يكن لديها قلنسوة؛ كان شعرها بندقي اللون، وقد صففته على شكل خصلات؛ لم تكن ملامحها جميلة، ليست ناعمة جداً، ولا عادية، ولكن لم يكن أي منها بأي درجة واضحة، وكان لدي سبب في اعتبارها مُعبِّرة. أي ملامح كانت غالبة عليها؟ هل كانت الحصافة؟ الإحساس؟ أجل، ظننت ذلك؛ ولكن لا يمكن أن أكون متأكداً من ذلك. اكتشفت أنه كان هناك صفاءُ عين، وطراوةُ بَشْرة، ممتعان للنظر لأبعد حد. كان لون وجنتها مشابها للون التفاحة الحمراء، التي تكون سليمة من اللب كما هي حمراء القشرة.

دخلت والآنسة رويتر في العمل. قالت إنها ليست متأكدة من حكمة الحركة التي كانت مقدمة عليها، بأني كنت شاباً جداً، وقد يعترض الأباء على وجود أستاذ مثلي لبناتهم: «ولكن من الجيد أن يتصرف المرء طبقاً لحكمه هو، وأن يقود الأباء بدلا من جعلهم يقودونه.» ملائمة المعلم لا تتعلق بالعمر، ومن الذي سمعته، وأراه بنفسي، أفضل أن أثق بك على أن أثق بسيد ليدرو، معلم الموسيقى، وهو رجل متزوج في حوالي الخمسين من العمر.»

تبعتها و أملت أن أكون عند حسن ظنّها؛ أنه إن عرفتْ نفسي، كنت غير قادر على فضح أيّ ثقة بنفسي. وقالت: «الباقي، سيتم تولي المراقبة بحزم.» وتابعت لتناقش موضوع الشروط. كانت حذرة جداً، لم تساومني أبداً، ولكنها سبرت غوري لتعرف ماذا كانت توقعاتي، وعندما فشلت في جعلي أذكر بعضاً منها، جادلت وجادلت بإطناب، وأخيراً ثبتتني على خمسمئة فرنك في السنة، ليست بالكثير، لكني قبلت. قبل أن ينتهي النقاش، بدأ يصبح الوقت مظلماً بعض الشيء. لم أتعجل بالموضوع لأنني رغبت بالاستماع إليها وهي تتحدث؛ كنت مأخوذا بموهبتها في العمل. لم يكن باستطاعة إدوارد أن يظهر.

إنه عمليٌّ أكثر منها، بالرغم من أنه قد يظهر غلظة أكثر منها وإلحاحاً؛ وكان لديها العديد من الأسباب، والعديد من التفسيرات؛ بعد كل هذا نجحت في إثبات أنها غير مهتمة وحتى تحررية.

في الآخر استنتجت، لا تستطيع أن تقول أكثر من ذلك، لأنه بما أني رضخت لها في كل شيء، لم يعد لديها سبب لممارسة أساليب الكلام خاصتها. كنت مجبراً على النهوض. تمنيت لو جلست لفترة أطول؛ ماذا لديَّ لأعود إليه سوى غرفتي الفارغة؟ وكانت لعينيّ المتعة في النظر إلى الآنسة رويتر، بالذات بعدما لطَّفَ الشفق ملامحها قليلاً، في الغسق أتخيل أن جبهتها مكشوفة كما هي سامية، كانت لشفتيها عذوبة إضافة إلى أنها مرسومة بخطوط الإحساس. مددت يدي عندما وقفت، عن قصد، بالرغم من أنه مخالف لآداب وطباع الأجانب، ابتسمتْ وقالت: «آه! هذا شبيه بكم أيها الإنجليز.» ولكن أعطتني يدها بلطف. قلت لها: «هذه هي ميزة دولتي يا آنسة، وتذكري أني سأطالب بها دائماً.»

بدرت منها ضحكة صغيرة، بشكل ودّي، وبنوع من السكينة الجلية في كل ما تفعله سكينة لاأمتني بشكل خاصّ، على الأقل ظننت ذلك ذاك المساء. عندما خرجت مجدداً إلى الشارع، بدت لي بروكسل مكانا محبباً جداً، وظهر لي أن هناك مهنة مرحة و زاخرة بالأحداث تفتح أبوابها على مصراعيها لي، في تلك الليلة اللطيفة ذاتها، إن الرجل كائن سريع التأثر، أو على الأقل رجل مثل هذه الأيام.

* * *

10

في اليوم التالي بدت ساعات الصباح تمضي ببطء في منزل السيدة بيليت؛ أردت أن يأتي الأصيل لأذهب وأعطي دروسي في المدرسة المجاورة وبين احتياطاتها المحببة؛ لأنهم بدوا لي محببين. وصلت ساعة التسلية، تناولنا الغداء الساعة الواحدة، انتهى ذلك بالوقت المحدد، أخيراً قرع جرس كنيسة غاودلا معلنة عن ساعة رحيلي.

قابلت السيدة بيليت عند آخر الدرج الخلفي الضيق الذي امتد من غرفتي.

قالت بالفرنسية: «تبدو مشرقا اليوم، لم أرك فرحاً هكذا من قبل، ماذا دهاك؟»

أجبتها: « على ما يبدو أني أحبُّ التغيير.»

«فهمت، لكن يجب عليك أن تبقى عاقلاً، أنت لا زلت صغيرا على لعب هذا الدور. كما تعلم عليك أن تكون حذراً.»

«ما الذي خطر له؟»

«لا أعلم، عليك أن تشكل انطباعك، هذا كل شيء.»

ضحكت، لعب بأعصابي شعور لذيذ وبهيج لفكرة أن تشكيل الانطباعات الحية؛ كانت رتابة الحياة اليومية التي كانت حتى اليوم مصدر ألمي، لم يحرك في زي الطلاب للفتيان أي مشاعر ما عدا الغضب في بعض الأحيان. افترقنا عن السيد بيليت وبينها نزلت الطريق تبعني بواحدة من ضحكاته صوت خليع فرنسي ساخر.

وقفت مجددا عند الباب المجاور وأُذن لي بالدخول إلى الممر الجميل بأسواره المطلية كالرخام. تبعت البوابة، ونازلاً خطوة، مع استدارة، وجدت نفسي في رواق، فُتح باب جانبي، ظهر إصبع الآنسة رويتر الجميل. أستطيع الآن أن أرى ثوبها في وضح النهار، ثوباً من نسيج قطني أنيق، شريط زينة من الدانتيل، أحذية فرنسية مرتبة أظهرت رقبتها ومعصميها وقدميها في حسنٍ تام؛ ولكن يا للجلال وجهها عندما اقتربت فجأة مني! كان في عينيها همٌّ وعمل على جبهتها، بدت تقريباً عابسة. كانت «صباح الخير سيدي» مؤدبة لكنها مبتذلة ومنهجية جداً، ألقت بمنشفة باردة ورطبة على انطباعي الأوليّ، عادت الخادمة عندما ظهرت السيدة، ومشيت ببطء عبر الرواق، جنبا بجنب مع الآنسة رويتر.

قالت: «سيعطي السيد درساً في الحصة الأولى لليوم، سيكون الإملاء أو القراءة الأنسب لتبدأ بها اليوم، لأنها أسهل وسائل تلقي التعليمات بلغة أجنبية، وفي البداية، يكون المعلم متردداً»

كانت محقة، كما عرفت من خبرتي؛ بقي لي أن أرضخ فقط. نتابع الآن في صمت. انتهى الرواق في قاعة كبيرة وفخمة ومربعة؛ كشف باب زجاجي على جانب قاعة طعام طويلة بطاولات وخزانة وسلالم عريضة تصعد بشكل لولبي على الجانب الآخر؛ كان الجدار المتبقي يحتوي على بابين كبيرين قابلين للطيّ، مغلقان الآن، وهما بلا شك تُفضيان إلى الصفوف.

وضعت الآنسة رويتر عينها عليَّ حرفياً، لتتأكد ما إذا كنت رابط الجأش كفاية قبل أن تدخلني إلى عرينها. أفترض أنها رأتني في حالة مقبولة من الاستقلالية؛ لأنها فتحت الباب، وتبعتها عبره. حيّا دخولنا صوت ضجيج الحشد؛ مشيت في ممر بين مقعدين دون النظر إلى يميني وشمالي وصادرت مقعداً وطاولة مرفوعين على منصة، بعلو خطوة، للسيطرة على قسم؛ كون القسم الآخر تحت رقابة مديرة رفيعة في آخر المنصة، مرفقة للحاجز المتحرك الذي يقسم هذه الغرفة الصفية عن أخرى خلفها، كان هناك طاولة خشبية كبيرة مطلية بالأسود؛ وضع على طاولتي إصبع طبشور عريض من أجل أي فرصة لشرح أي إبهام قواعدي أو لفظي قد يحدث في حصّتي بكتابته على الطاولة. كان هناك إسفنجة رطبة بجانب الطبشورة لمسح السبورة بعد أن تؤدي مهمتها.

أبديت تلك الملاحظات بحذر وتأنٍّ، قبل أن أسمح لنفسي بإلقاء نظرة على المقاعد التي كانت أمامي؛ بعد تفحصي للطاولة، تمحّصي للطبشورة، ولمسي الإسفنجة بأصابعي لأتأكد من أنها رطبة كفاية، وجدت نفسي جاهزا كفاية لأرفع نظري وأنظر حولي.

أول ما لاحظته هو أن الآنسة رويتر غادرت الصف، لم أرها في أي مكان؛ مديرة أو معلمة، التي كانت تشغل منصتي، وحدها بقيت لحمايتي، كانت صغيرة في الظل، و، بقصر نظري، استطعت أن أرى أنها ذات جسم نحيل وبشرة دهنية، وكان نصف سلوكها، بينما جلست، الكسل ونصفه الآخر تكلف. أضاء بوضوح أكثر وبشكل بارز، بالضوء القادم من النافذة الكبيرة، الذين يقطنون المقاعد أمامي، بعض منهن فتيات في الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة، بعض النساء الصغيرات في الثامنة عشرة (كما بدا لي) حتى العشرين؛ بدا واضحاً عليهن أكثر اللباس احتشاماً،

وأبسط تسريحة شعر؛ وملامح جيدة، بشرة متورّدة، عيون واسعة وبراقة، بدت أجساد ممتلئة بالزخر. لم أتصور المنظر كرواقي؛ كنت مذهولاً، نزلت عيناي تمتمت بصوت منخفض «أخرجن دفاتر الإملاء، يا آنسات.»

لم آمر الأولاد في مدرسة السيد بيليت بهذه الطريقة. تبع ذلك جلبة مع فتح الأدراج؛ خلف الأغطية المرفوعة والتي غطّت الرؤوس المنحنية للبحث عن الكتب، سمعت همسات وضحكات مكبوتة.

قالت إحداهن: «سيغمى عليّ من الضحك.»

«كيف احمرّ وجهه وهو يتكلم!»

«إنه فعلاً أبيض»

«اصمتن، أنه يسمعنا»

والآن نزلت الأغطية وظهرت الرؤوس؛ علمت ثلاثاً من الهامسات، ولم أتردد في النظر إليهن وقد خرجن من كسوفهن المؤقت. من المذهل كم منحتني جلهن الوقحة راحة وشجاعة؛ الفكرة التي كنت مرعوبا منها كانت فكرة أن شابات أمامي، بأثوابهن الشبيهة بالراهبة وشعرهن المضفر، كنَّ نوعاً ما نصف ملائكة. أراحت تلك الهمسات والضحكات المكبوتة من هذه الفكرة المرهقة.

كنَّ الثلاث اللاتي أنظر لهنَّ أمامي على بعد نصف ياردة مني، وكنَّ من بين أكثرهن شبها بالنساء. عرفت أسماءهن لاحقا وسأذكرها الآن؛ لقد كنَّ يولالي وهورتنس وكارولين. كانت يولالي طويلة وحسنة الشكل، كانت جميلة، وكانت ملامحها تلك التي لدى عذراء الريف؛ رأيت شخصية العذراء كثيرا في الصور الهولندية مشابهة لها تماما؛ لم يكن هناك زوايا في

وجهها أو جسدها، كان كله منحنيات وتقوسات - لم تتمكن أي فكرة، إحساس، أو مشاعر من أن تزعج بشرتها النضرة بخطٍ أو تورّد؛ انتفخ صدرها عندما تنفست، تحركت عيناها قليلاً، بعلامات الحياة هذه وحدها أستطيع التمييز بينها وبين مجسم كبير مصنوع من الشمع. كانت هورتنس متوسطة الحجم وقوية، هيئتها ليست رشيقة، وكان وجهها صادماً أكثر حيوية ونضارة من وجه يولالي، كان لون شعرها بنياً غامق، وبشرتها ملوّنة بوفرة؛ كان في عينيها المرح والشقاوة: قد تملك حساً جيداً واستقامة، لكن لا شيء من ملامحها لجأ لهذه الميزات.

كانت كارولين ضئيلة، بالرغم من أنها ناضجة؛ شعر أسود كريش الغراب، عيون داكنة، ملامح عادية جداً، ببشرة حنطية، صافية الوجه وشاحبة حول الرقبة، شكل فيها تجمعاً من النقاط قد يعتبره الكثيرون علامة على كمال الجمال. لست أعرف كيف تمكنت أن تبدو شهوانية بجلدها الشاحب واستقامة ملامحها الكلاسيكية. أعتقد أن شفتيها وعينيها تكفلا بالأمر، ولم تدع النتيجة مجالا للشك في عقل الناظر إليها، كانت شهوانية الآن ، وفي غضون عشر سنوات قد تكون غليظة، كان مكتوباً على وجهها وعدٌ بحماقة آتية.

لو نظرت لتلك الفتيات بقليل من التردد، لنظرن لي بتردد أقل. رفعت يولالي عينها لعيني، وبدا أنها تتوقع، بسلبية لكن على نحو مضمون، جزية مرتجلة، لفتنتها الساحرة. نظرت هورتنس إليّ بوقاحة وقهقهت بنفس الوقت، بينما قالت، بشيء من الحرية الصفيقة «يجب أن تملي علينا شيئاً سهلاً، أستاذي»

هزت كارولين عقصات شعرها الكثيف ولكن الخشن أمام عينيها؛ مفارقة بين شفتيها الكستنائيتين، كاشفة عن أسنانها المرصوصة بعناية.

ودعتني في نفس الوقت إلى ابتسامة بطريقتها. جميلة كباولين بونابارت، بدت لحظتها أنقى من لوكريسيا بورجيا. كانت كارولين من عائلة نبيلة. سمعت عن شخصية الأم بعد ذلك، وتوقفت لبرهة متعجباً من النضوج المبَكّر لابنتها. رأيت أن هؤلاء الثلاث اعتبرن أنفسهن ملكات المدرسة، وفهمت أنهنَّ بإشراقهنّ رمين بقية الفتيات في الظل. كشفن لي عن شخصياتهن في أقل من خمس دقائق، وفي أقل من خمس دقائق ارتديت درعاً فولاذياً من اللامبالاة ووضعت قناعا من الصرامة هادئة الأعصاب.

قلت لهن بصوت جاف ومبتذل كما لو أنني أكلم جولز فاندركورف: «تناولنَ أقلامكن وابدأن بالكتابة»

بدأ الإملاء الآن. قاطعتني جميلاتي الثلاث بأسئلة تافهة وملاحظات لا داعي لها، لم أجب على بعض منها، وجاوبت بعضا منها بهدوء واختصار. «كيف نقول نقطة وفاصلة باللغة الإنجليزية، يا سيدي؟»

«فاصلة منقوطة يا آنسة.»

«فاصلة منقوطة؟ آه، كم هو مضحك!» (قهقهة)

«لدي ريشة سيئة، لا أستطيع الكتابة.»

«أستاذي لا أستطيع الكتابة، حضرتك تسرع كثيراً»

«لم أفهم شيئاً»

ارتفع صوت تمتماتهن، وفتحت المعلمة فمها للمرة الأولى وقالت: «الهدوء يا آنسات.»

لم يتبع ذلك أي صمت ، على العكس، بدأت النساء الثلاث في المقدمة بالحديث بصوت أعلى.

«الإنجليزية صعبة جداً!»

«أكره الإملاء.»

«كم ممل أن تكتب شيئاً لا تفهمه!»

بعض من اللاتي في الخلف ضحكن، بدأت تعم الصف درجة من الارتباك؛ كان من الضروري اتخاذ إجراءات فورية.

قلت ليولالي: «أعطني كراستك» وأخذت منها الكتاب قبل أن تجد فرصة لإعطائي إياه.

«وأنتن آنساتي، أعطني كرّاساتكن» تابعت الكلام بدماثة، مخاطبا فتاة ضئيلة ذات مظهر بسيط جلست في الصف الأول من القسم الآخر، والتي ميزتها بكونها الأغبى والأكثر إنباهاً في الصف؛ نهضت، تقدمت نحوي وسلمت كتابها بأدب جمّ. نظرتُ إلى الإملاءين؛ كان الخاص بيولالي مبهماً وملطخاً، مليئاً بالأخطاء السخيفة، أما الخاص بسيلفي (كان هذا اسم الفتاة البشعة) كان واضحاً، لم يحتو على أي خطأ تافه، فقط بعض الأخطاء الإملائية. قرأت بهدوء وبصوت عال كلا التمرينين، مشيراً إلى الأخطاء، ومن ثم نظرت إلى يولالي.

قلت: «هذا مُخجِل» ومزقت عن عمد إملاءها إلى أربعة أقسام، وقدمته إليها على شكل شظايا. أعدت لسلفي كتابها بابتسامة قائلاً: «هذا جيد» أنا سعيد بك»

بدت سيلفي فرحة، انتفخت يولالي كالديك الرومي من الغضب. ولكن التمرد كان قد قُمع: استُبدل الدلال المغرور والتصفية العقيمة للمقعد الأول بتجهم صامت، ملائم جداً لي، ومضى بقية الدرس بلا مقاطعة.

أعلن جرس معلّق في الساحة عن توقف ساعات العمل المدرسية، سمعت جرسنا في نفس الوقت، وجرس مدرسة أخرى بعده مباشرة. انحلّ النظام فوراً؛ نهضت الطالبات، سارعتُ لالتقاط قبعتي، انحنيت للمعلمة، وخرجت من الغرفة قبل أن يتدفق موج الطالبات من الصفوف الداخلية، حيث عرفت بوجود مئة محبوسات، والتي كانت جلبتهنّ مسموعة.

بالكاد عبرت القاعة ودخلت الرواق، عندما أتت الآنسة رويتر لي مجدداً.

قالت لي: «تعال إلى هنا قليلاً» وفتحت باب الغرفة الجانبية التي خرجت منها عند وصولي، كانت قاعة طعام، كما بدا لي من البوفيه والخزانة الزجاجية، المليئة بالأكواب والأواني الخزفية، التي شكلت جزءاً من أثاثها. لقد أغلقت الباب على نفسها وعليّ، كان الرواق ممتلئ بالطلاب، يفكّون معاطفهم وقلنسواتهم وحقائبهم من الخنازير الخشبية التي كانوا معلّقين عليها؛ سُمع صوت معلمة من مسافة محاولة الحفاظ على الانضباط بلا جدوى، أقول: لم يكن فيها انضباط، ومع ذلك تعتبر من أفضل المدارس في بروكسل.

بدأت الآنسة رويتر الحديث بصوت هادئ كما لو أنها غير واعية بالفوضى التي كنّا مفصولين عنها بسور واحد: «حسن، لقد أعطيت درسك الأول، هل كنت راضياً عن طلابك، أو هناك أي شيء في تصرفهن يدفعك إلى الشكوى؟ لا تخفِ شيئا عني، ضع كامل ثقتك بي.»

بفرحة، شعرت أن في نفسي قوة كافية لأدير طلابي بدون مساعدة، تبدد السديم الذهبي والافتتان الذي كان يبهر صفائي. لا أستطيع القول إني كنت مغموماً أو مكتئباً بسبب التباين الذي قدّمه لي واقع مدرسة البنات الداخلية عن مثالي المبهم لنفس المجتمع، كنت مصعوقاً، بناء على ذلك، لم أشعر برغبة لأشكو للآنسة رويتر، واستقبلت دعوتها للثقة بابتسامة.

«ألف شكر يا آنسة، مضى كل شيء بسلاسة.»

بدت شاكّة بالأمر.

قالت: «الآنسات الثلاث في المقعد الأمامي؟»

«كل شيء على ما يرام.» وتوقفت الآنسة رويتر عن سؤالي، ولكن أظهرت عينها، وهي ليست كبيرة، ولا رائعة، ولا ذائبة، ولا ملتهبة، لكن ماكرة، نافذة وعملية، إنها كانت عادلة معي؛ أخرجت ومضة لحظيّة، التي قالت بوضوح: «كن قريبا كما شئت، لست معتمدة على براءتك؛ أنا أعلم ما يمكن أن تخفيه.» تغير سلوك الآنسة المديرة بانتقال هادئ بالكاد يمكن إدراكه؛ زال عن وجهها جوّ العمل، وبدأت تتحدث معي عن الطقس والمدينة، وتسأل باهتمام جارة عن أخبار السيد والسيدة بيليت. أجبت عن كل أسئلتها البسيطة، أطنبت في الحديث، تابعت كل التفافات حديثها، جلست لوقت طويل، تحدثت كثيراً، تناولت موضوعات متعددة، لدرجة أنه ليس من الصعب إدراك أنه كان لديها سبب في إيقافي. لم تقدم كلماتها فكرة عن هدفها، لكنّ محياها ساعد، بينما نطقت شفتاها بالملاحظات الدمثة، كانت عيناها تعود لتنظر لوجهي بشكل مستمر. لم تنظر إليّ بشكل مباشر وإنما بطرف عينيها، بهدوء، وخلسة، مع ذلك لا أظنني فوّتُّ نظرة واحدة. راقبتها بنفس الحدّة التي راقبتني بها، انتبهت إلى أنها كانت تبحث عن شخصيتي الحقيقية؛ كانت تبحث عن نقاط ضعف؛ نقاط، ونقاط غريبة الأطوار؛ كانت تطبق هذا الاختبار الآن آملة أن تعثر على صدعٍ أو فتحة ما حيث يمكنها أن تضع فيها قدمها وتقف على رقبتي، لا تسئ فهمي أيها القارئ، لم يكن التأثير الغرامي ما كانت تسعى إليه في ذلك الوقت كانت تطمح في قوة السياسية؛ تم تعييني كمعلم في مؤسستها، وأرادت أن تعرف في أي ناحية تتفوق علي – بأيّ رأي أو إحساس قد تستطيع أن تقودني.

استمتعت باللعبة كثيراً، ولم أعجّل بانتهائها، قد أعطيها أملاً في بعض الأوقات عندما أبدأ جملة بشكل ضعيف، حينها تلمع عينها الماكرة - ظنَّت أنها نالت مني؛ بعد أن قدتها لهذه المرحلة، استمتع لتحولي وإنهائي الجملة بمعنى سليم وخالية من الخطأ، حينها يسقط وجهها في خيبة أمل. أخيراً دخلت خادمة لتعلن عن الغداء؛ كونه تم إنهاء الصراع بهذا الشكل، افترقنا دون أن يتفوق أحدنا على الآخر، لم تعطني الآنسة رويتر أي فرصة لأهاجمها برأي، وقد تمكنت من صدّ مكائد دهائها.كانت معركة عادية متعادلة، مددت يدي مجددا عندما غادرت الغرفة، ناولتني يدها، كانت يدٌ صغيرة وبيضاء، ولكن ما أبردها! واجهت عينيها مباشرة، مجبراً إياها على النظر مباشرة في عيني؛ لم يقع هذا الاختبار الأخير في صالحي، تركها كما هي - معتدلة، وهادئة؛ وتركني خائب الظن.

فكرت وأنا عائد إلى مدرسة السيد بيليت «أنا أزداد حكمة.» «انظر إلى تلك آنسة، هل تشبه نساء الروائيين والرومانسيين؟ أن تقرأ عن شخصيات الإناث المصوّرة في الشعر والرواية، يعتقد الإنسان أنها مصنوعة من العاطفة، إمّا للخير وإمّا للشر هنا نموذج، وهو أكثر نموذج ملموس ومهذب، مكونه الأساسي المنطق التجريديّ. لم يكن تاليراند (سياسي ودبلوماسي وقائد عسكري فرنسي) أكثر شغفاً من زُرَيْد رويترا» هكذا فكرت حينها؛ عرفت لاحقا أن الأحاسيس البليدة ملائمة للميول الشديدة.

* * *

11

بالتأكيد تحدثت طويلا مع السياسيّة الصغيرة، لأنه عند عودتي إلى مسكني وجدت أن الغداء كان نصف منتهياً. أن تتأخر عن الغداء أمر مخالف لواحدة من أهم قوانين المؤسسة، ولولا أحد المرشدين الذين دخل بعد أن تم رفع الحساء وتقديم الطبق الأول، لكان حيَّاه السيد بيليت بتوبيخ أمام الملأ، ولكان غرّمه ثمن الحساء والسمك، ذلك الرجل المهذب هزَّ رأسه، وبينها جلست مكاني، بسطت منديلي، وتلوت صلاتي المبتَدَعة، صرف خادما بتهذيب إلى المطبخ، ليحضر لي طبقاً من الجزر المهروس (لأنه كان يوما رقيقاً) وقبل إرسال الطبق الأول، احتفظ لي بحصة من السمك المقدّد الذي كانت تحتويه. تدافع الطلاب للعب عند انتهاء فترة الغداء، تتبّع كنت وفاندام (المرشدين) الطلاب. مسكينان! لو لم يبدوا بطيئين، عَديمَيّ النفس، شديدي اللامبالاة لكل شيء في السماء أو على الأرض، لكنت أشفقت عليهم كثيراً بسبب واجبهم الذي يحتم عليهم اللحاق بالأولاد القاسين كلَّ مكان وفي كل وقت؛ مع كل هذا، شعرت بأني ميّال إلى جعل نفسي منافقاً عندما استدرت لأصعد لغرفتي، متأكدا من عثوري هناك، إن لم تكن المتعة الحرية؛ ولكن هذا المساء (كما حدث مسبقاً) كان عليّ أن أكون بارزاً أكثر.

قال السيد بسليت من خلفي عندما وضعت قدمي على الدرجة الأولى من السلّم: «يا فاعل السوء! إلى أين أنت ذاهب؟ لقد وصلت إلى قاعة الطعام، أنا أؤنبك على ذلك.»

قلت بينما لحقته إلى غرفته الخاصة: «أستميحك عذراً يا سيدي لأني وصلت متأخراً، لم يكن خطئي»

أجاب السيد بيليت بينما أشار لي بالدخول إلى الردهة بالحطب الذي كان يحمله؛ لأن المدفأة تمت إزالتها هذا الفصل. «هذا ما أريد أن أعرفه.» رن الجرس وطلب «قهوة لاثنين» وجلسنا أنا وهو، براحة إنجليزية، على طرفي المدفأة، بيننا طاولة دائرية صغيرة، بدلّة قهوة، وسكرية، وكوبين خزفيين كبيرين. بينما شغل السيد بسليت نفسه في انتقاء سيجارة من العلبة، ذهب فكري ناحية المرشدين المنبوذين، واللذين أستطيع سماع صوتهما يصرخ بقوة للحفاظ على النظام في الملعب.

قلت بالفرنسية: «هذه مسؤولية كبيرة، حتى أكبر من المراقبة»

قال السيد بيليت: «أيعجبك؟»

أشرت إلى أن السيد بيليت وفاندام قد أعياهما العمل.

«مجموعة وحوش- مجموعة وحوش» تمتم المدير بسخرية إبان ذلك، قدّمت له كوب القهوة.

«افعل ما تشاء، يا بني» قال لي بتملّق بينما وضعت قطعتي سكر كبيرتين في كوبه. «والآن قل لي لماذا بقيت لفترة طويلة في مدرسة السيدة رويتر؟ أعلم أن الدروس تنتهي في مؤسستهم، كما في مؤسستي على الرابعة، وعندما عدت كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة»

«رغبت الآنسة في التحدث إليّ، يا سيدي.»

«بالتأكيد! في أي موضوع، إذا سمحت لي بالسؤال؟»

«لم تتحدث الآنسة عن أي شيء، يا سيدي.»

«موضوع عقيم! وهل تحدثت في الفصل أمام الطالبات؟»

«لا، سيدي، طلبت مني الدخول إلى ردهتها كما فعلت الآن يا سيدي.»

«وبالطبع كانت هناك السيدة رويتر، المالكة العجوز.»

«لا يا سيدي؛ كان لي شرف البقاء وحيداً مع الآنسة.»

أبدى السيد بيليت ملاحظته «هذا جميل» ابتسم نظر إلى النار.

تمتمت على نحو ذي مغزى «إن هو الذي يفكر بالشرّ»

«أعرف ما الذي تفكر فيه»

«في هذه الحالة، يستطيع السيد أن يساعدني في معرفة السبب الذي دفع بالآنسة رويتر إلى جعلي أجلس قبالتها لساعة جهنّمية، مستمعاً إلى أطول خطبة عن أتفه الأمور.»

«كانت تسبر غور شخصيتك.»

«هذا ما فكرت به يا سيد.»

«هل عرفت نقطة ضعفك؟»

«ما هي نقطة ضعفي؟»

«ما هي! إنها العاطفة. أي امرأة تغرس رمحها لعمق كافٍ، ستصل إلى نبع عميق من العاطفة في صدرك يا كريمسوورث.»

شعرت بالدم يتحرك في قلبي ويصعد دافئا إلى وجنتي.

«قد تتمكن بعض النساء، يا سيد.»

«هل السيدة رويتر منهن؟ هيا، تحدث بصراحة، يا بني؛ لا تزال شابة، قد تكون أكبر منك بقليل، لكنها قادرة على إعطاء حب الزوجة والأم، وهذا كثير عليك.»

«لا، يا سيد، أريد من زوجتي أن تكون زوجتي وحسب، وليست نصف أمي.»

«إذن هي كبيرة عليك بعض الشيء؟»

«لا يا سيد، هي لا تكبرني بيوم واحد إن لاءمتني في الأمور الأخرى.»

«بماذا لا تناسبك، يا ويليام؟ إنها إنسانة محبوبة. أليس كذلك؟»

«جداً؛ شعرها وبشرتها هما ما يعجباني تماماً، وتقلّب هيئتها، بالرغم من أنها بلجيكية، مليئة بالجمال.»

«مرحى! وكيف ترى وجهها وملامحها؟»

«قاسيين قليلاً، بالذات ثغرها»

«آه أجل! ثغرها» قال السيد بيليت، وكتم ضحكته داخلياً. «هناك صفة لثغرها، الاكتناز، ولكن لديها ابتسامة جذابة، ألا تعتقد ذلك؟»

«ماكرة إلى حد ما.»

«صحيح، ولكن تعبير المكر ذلك عائد إلى حواجبها؛ هل انتبهت إلى حاجبيها؟»

أجبت أنني لم ألاحظ.

قال لي: «لم ترها وهي تنظر للأسفل إذن؟»

«كلا»

«مع ذلك فهذا رائع. راقبها وهي تحيك، أو تفعل أي شيء من عمل النساء اليدوي، وتجلس بسلام، بهدوء منشغلة بالإبرة والحرير، ويدور حولها حديث، خلاله يتم الكشف عن سمات الشخصية، أو مناقشة المصالح المهمة، لا تشارك في الحديث، عقلها الأنثوي المتواضع منكب تماما على الحياكة لا تتحرك أي من ملامحها؛ ولا حتى ابتسامة موافقة، أو تقطيبة استنكار، تناضل يديها بكَدٍ مهمتها؛ لو تستطيع فقط أن تنهي هذه المحفظة، أو إنجاز هذه القلنسوة، سيكون هذا كافيا لها. لو اقترب رجال من مجلسها، تكتسي ملامحها بالهدوء والسكينة، وتكسي مظهرها العام، راقب حينها حاجبيها، أراهنك أنك ستجد قطاً في جهة وثعلباً في الجهة الأخرى (تعبير قصده أنه هناك فيها نصف سيء ونصف جيد)»

قلت له: «سألاحظ بدقة حينما تحين الفرصة.»

«وحينها» تابع السيّد بيليت «يرمش الجفن، وترتفع الأهداب لثانية، وتأخذ عين زرقاء، تنظر من أسفل الستار، فحصاً سريعا وماكراً، ثم تنسحب مجدداً.»

ابتسمت كما فعل بيليت، وسألته بعد بضع دقائق صمتٍ: «هل تعتقد أنها قد تتزوج يوماً ما؟»

«تتزوج! هل تتزوج الطيور؟ بالطبع عندما تجد الشخص المناسب سيكون الزواج رغبتها ولا أحد غيرها أدرى بالانطباع التي هي قادرة على إعطائه؛ لا أحد يَفتِن أحسن منها بطريقة هادئة. أنا مخطئ إذا لم تطبع خطواتها على قلبك، يا كريمسوورث.»

«عن خطواتها؟ لا، فقلبي ليس لوحاً ليُداس عليه.»

«ولكن لن تؤذيه لمسة مخلب مخملي لطيفة.»

«هي لا تقدم لي مخلباً مخملياً، إنها متحفظة وملتزمة معي.»

«هذا شيء تبدأ به؛ دع الاحترام يكون الأساس، والميول الطابق الأول، والحب يكون البنية الفوقية، إن الآنسة رويتر مهندسة بارعة.»

«والاهتمام، يا سيد بيليت، الاهتمام. ألن تضع الآنسة هذه النقطة في الاعتبار؟»

«أجل أجل، بلا شك؛ سيكون هذا الإسمنت بين كل طوبة. والآن لقد ناقشنا موضوع المديرة، ماذا عن الطالبات؟ هناك، أليس التدريس جميلاً مع هؤلاء الشابات؟»

«دراسة الشخصيات؟ أجل؛ فضولية على الأقل، على الأقل، كما أعتقد، ولكن لا أحد يستطيع أن يتنبأ بالكثير من اللقاء الأول.»

«أنت تنزع إلى التعقّل؛ ولكن قل لي، ألم تكن خجولا قليلا أمام تلك المخلوقات الصغيرة المزهرة؟»

«في البداية نعم؛ لملمتُ شتات قوتي وعبرت كل ذلك بدم بارد.»

«لا أصدقك.»

«مع ذلك هذا صحيح. حسبتهن ملائكة في البداية، ولكنهن لم يتركنني في هذا الوهم لفترة طويلة؛ تولت ثلاث من أكبر وأجمل الفتيات مهمة إيقاظي من الوهم، وقمن بذلك ببراعة لدرجة أني في خمس دقائق فقط عرفت حقيقتهن، متغنجات بكل ما في الكلمة من معنى.

أعلن السيد بيليت «أعرفهن، دائماً يجلسن في الصف الأول في الكنيسة ودائما في الطليعة، واحدة بيضاء وجميلة، وواحدة أميرة ومحتالة، وواحدة حلوة وسمراء.»

«بالضبط»

«مخلوقات فاتنات كلّهن - فنانات؛ ما للفرقة التي سيشكّلنها مجتمعات! يولالي (أعرف أسماءهن) بشعرها المظفر وحاجبها العاجي. هورتنس بخصلاتها الكستنائية المعقودة برفاهية، المضفرة، وملفوفة كما لو أنها لم تعرف كيف تسوي كثافته، بشفتيها القرمزيتين، وشفتيها الحمراوين، وعينها الضاحكة الشريرة. وكارولين بليمونت! آه، هناك جمال! جمال في الكمال. يا لغيمة تجاعيد الشعر السوداء على وجه حورية! يا لها من شفاه ساحرة! يا للعيون السوداء الرائعة! يمكن لبارونك أن يعبدها، وأنت أيها الجزري ذو الدم البارد! أنت لعبت دور المتزمّت عديم الإحساس في حضرة أفروديت جميلة كهذه؟»

لو صدقت أن حماسه حقيقي لكنت ضحكت، ولكن كان هناك شيء في نبرة صوته يحتوي على الطرب. شعرت بأنه كان يتكلف الحماسة ليجعلني أرخي من حذري، ليحثّني على الإخراج والرد، لذلك بالكاد ابتسمت. تابع: « اعترف يا ويليام، ألا يبدو مظهر زُرَيْد رويتر رثاً عادية بالمقارنة مع سحر بعض طالباتها؟»

أربكني السؤال، ولكني شعرت الآن وبوضوح أن مديري كان يحاول (لأسباب لا يعلمها إلا هو لم أتمكن من توقعهم في ذلك الوقت) يثير في عقلي أفكاراً أماني بعيدة عما هو صحيح وشريف. أثبتت خطيئة الإثارة ترياقها، وعندما أضاف «سيكون لدى كل واحدة من تلك الفتيات

الجميلات ثروة، وببراعة قليلة، مثل الجنتلمان، شاب ذكي مثلك قد يتمكن من أن يكون سيد يدٍ وقلب ومحفظة أي من هذا الثلاثي.» رددت بنظرة و «يا سيد؟» استفهامية أرعبته.

ضحك ضحكة مصطنعة، أثبتت أنه كان يمزح إن كنت قد ظننته جاداً. حينها رنّ الجرس؛ انتهت ساعة الفسحة، كان مساء قد عوّد السيد بيليت نفسه فيه على قراءة مقاطع من المسرح و الأداب الجميلة لطلابه. لم ينتظر جوابي، وناهضاً غادر الغرفة، مدندناً في طريقه سلسلة من أشعار برانجر.

* * *

12

بعدما تابع عملي في مدرسة الآنسة رويتر بشكل يوميّ، وجدت حالات جديدة لأقارن المثالي بالحقيقي. ما الذي عرفته عن الأنثى قبل وصولي إلى بروكسل؟ القليل. وما كانت فكرتي عنها؟ مبهمة في بعض الأحيان، سطحية، وشفافة ومتلألئة؛ والآن بعدما تواصلت معها وجدتها مادة ملموسة، صلبة جداً في بعض الأحيان، وغالباً ثقيلة، كان فيها معدن، رصاص وحديد معاً.

دع المثاليين الحالمين بالملاك الأرضي والأزهار البشرية، فقط انظر هنا بينما أفتح ملفي وأريهم مشهداً أو اثنين مرسومين عن الطبيعة. أخذت هذه المشاهد إلى غرفة الصف الثاني في مدرسة الآنسة رويتر، حيث اجتمعت مئة عينة من طراز الفتيات الشابات المجتمعات معاً قدمت تنوعاً خصباً من الموضوعات كنَّ تشكيلة متنوعة مختلفات في الجنسية والطبقة الاجتماعية؛ عندما جلست على المنصّة ونظرت إلى المقاعد، وقعت عيني على بلجيكيات وفرنسيات وإنجليزيات ونمساويات وبروسيات. كانت الغالبية من البرجوازية، ولكن كان هناك العديد من النبيلات، كان هناك بنات جينيرالات وعدّة عقداء في الجيش، و قباطنة وموظفي حكومة؛ جلست

أولئك الفتيات جنبا إلى جنب مع فتيات مُقَدَّرٌ لهن أن يكنّ فتيات محل (عاملات) مع بعض الفلمنكيين، سكان البلد الأصليين. كنّ متشابهات في اللباس، ولكن هناك فرق ضئيل في سلوكهنّ، كان هناك استثناءات للقاعدة العامّة، ولكن الغالبية أعطت مِزاجاً للمؤسسة، مزاجاً قاسياً وعنيفاً، مُقنّعاً بتجاهل صريح عن التسامح تجاه بعضهن أو معلميهنّ؛ مطاردة حماسية خلف مصالحهن وراحتهن، مع لامبالاة لمصالح الآخرين و راحتهن، كل منهن مستعدة للكذب بوقاحة إن استدعى الأمر ذلك . كلهنّ فَهِمن فائدة قول الحق عندما يّصُب ذلك في مصلحتهن، ويستطعن بمهارة كاملة وبلحظة واحدة أن يُدرن أظهرهن عندما يرين أن الأمر مفيد. وقع بينهن القليل من النزاعات، ولكن الوشاية والغدر كانا شائعين، كانت الصداقات المقربة ممنوعة من قبل قوانين المدرسة، ولا يبدو أن أي فتاة حصلت على اهتمام أكبر مما كان ضرورياً للاحتفاظ برفقة عندما تكون الوحدة مضجرة. كان من المفترض أنهن تربين في منأى عن العيب. الاحتياطات التي من المفترض أن تبقيهن متجاهلات، وأن يكن بريئات لا تحصى. كيف لأي واحدة من الفتيات اللاتي بلغن الرابعة عشرة و نادراً ما ينظرن في عين رجل بأدب واحتشام جوٌّ من الغنج والدلال الوقح، أو النظرات الشهوانية الماجنة السخيفة، بالتأكيد ستجيب عن أي نظرة ذكورية. لا أعرف أساسيات ديانة الرومان الكاثوليك، ولست متعصبا في موضوع اللاهوت، لكني أشك في أن جذور تلك البذاءة المبكرة، الواضحة والسائدة في الدول الكاثوليكية، ستكون في الانضباط، ما لم تكن في تعاليم الكنيسة الرومانية. و أسجل ما رأيته: تنتمي هؤلاء الفتيات إلى ما يسمى بالطبقات الرفيعة في المجتمع، تمت تربيتهن بِحرص، ومع ذلك فكثير منهن منحرفات ذهنياً. هناك الكثير عند النظرة العامة، الآن لننتقل إلى واحدة أو اثنتين من العيّنات.

الصورة الأولى هي أوريليا كوسلو، آنسة ألمانية، أو هجينة بين الألماني والروسي. عمرها ثمانية عشر عاماً، وتم إرسالها إلى بروكسل لتتمّ تعليمها، حجمها متوسط، جسد ممشوق، طويلة القدّ، قصيرة الرجلين، صدرٌ نامي ولكنه ليس مكتنزاً، خصر مضغوط بشكل غير متجانس بمشد مثبت بقوّة، ثوب مرتب بعناية، قدمان كبيرتان معذبتان في حذائين صغيرين، رأس صغير، شعر ناعم، مضفّر، مزيّت، ومصمّغاً، جبهة منخفضة، عينان صغيرتان وحقودتان ، ملامح تتاريّة، أنف منبسط، وجنتان لامعتان؛ مع ذلك الطقم لم يكن قبيحاً؛ بشرة جيدة كفاية. كثيرة على شخص واحد. بالنسبة للعقل، الجاهل بحُزن، على علم شيء، غير قادر على القراءة أو كتابة بشكل صحيح في اللغة الألمانية، لغتها الأم، مغلفة في الفرنسية، ومحاولاتها في تعلم الإنجليزية مجرد مهزلة، ومع ذلك فهي لا تزال في المدرسة منذ اثنتي عشرة سنة؛ ولكن بينما تحصل على تمارينها محلولة من قبل زميلتها، وتقرأ دروسها عن كتاب مخبأ في حجرها، ليس من الرائع أن تقدمها شبيه بتقدّم الحلزون. لا أعلم ما هي عادات أوريليا اليومية، لأنه لم تتح لي فرصة مراقبتها في كل الأوقات؛ ولكن مما أرى من حالة مقعدها وكتبها وأوراقها، أستطيع القول إنها قذرة وحتى وسخة، زيها الخارجي، كما قلت، معتنى به، ولكن بالمرور خلف مقعدها، لاحظت أن رقبتها رمادية من قلة الاستحمام، وشعرها اللامع بسبب الشحم، ليس من الذي يغري بالمسح عليه باليد، ناهيك عن تخليل الأصابع. سلوك أوريليا في الصف خصوصاً عندما أكون موجوداً شيء غير عادي، يعتبر كعلامة على براءة البنات. في اللحظة التي أدخل فيها، توكز زميلتها بجانبها وتضحك ضحكة نصف مكبوتة. تثبت عينيها عليّ عندما أتخذ مقعدي على المنصّة، تبدو عازمة على الجذب، وإذا كان بإمكانها، أن تحتكر انتباهي، تطلق عليّ جميع أنواع النظرات لهذه الغاية،

المضنية، المستفزّة، الشهوانية، والضاحكة. بما أنها وجدتني منيعاً ضد هذا النوع من السلاح -لأننا نستهزئ بما هو مقدمٌ لنا بسخاء- التجأت إلى حيلة إحداث الجلبة والضجيج؛ تتنهّد في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى تتأوه، وأخرى تنطق بأصوات غير واضحة، للغة ليس لها اسم. لو عبرت قربها عند ذهاب إلى الصف، تمدّ قدمها لتلامس قدمي؛ إذا حدث ولم أنتبه إلى المناورة، ولمس حذائي حذائها، تتظاهر بالوقوع في نوبات من الضحك المكتوم، لو لاحظت الكمين واجتنبته، تعبر عن عارها بتمتمات حاقدة، حيث أسمعها تسيء إليّ بفرنسية سيئة، منطوقة بلهجة ألمانية لا تحتمل.

تجلس امرأة اسمها أديل درونسارت قريبا من الآنسة كوسلو: هذه بلجيكية، بمنزلة أدنى، ثقيلة الهيئة، بخصر واسع، رقبة قصيرة، بشرة بيضاء محمرّة، ملامح منحوتة بعناية، عينان بنيتان، شعر بني فاتح، أسنان جيدة، عمر لا يتجاوز الخامسة عشرة، ولكنها ناضجة كامرأة إنجليزية في العشرين. هذه اللوحة تعطي فكرة آنسة سمينة وجميلة، أليس كذلك؟ حسن، عندما نظرت إلى صف الرؤوس الذي أمامي توقفت عيناي على رأس أديل، عينها كانت في انتظار عيني، ومراراً نجحت في اعتقالها. كانت كائناً ذا مظهر غير طبيعي، شابة، ناضجة، وناضرة الجمال، مع ذلك فهي شبيهة بالغورغون (ميدوسا). كان على جبينها الشك والمزاج السيئ، في عينيها ميول خبيثة، حول فمها الحسد ومكر الثعلب في عينيها. بشكل عام جلست ثابتة في مكانها؛ بدا على شكلها الكبير أنه لا يمكنها الانحناء، ولا حتى رأسها الكبير الواسع من عند القاعدة، وضيق عند القمة بدا أنه يلتف بسهولة على رقبتها القصيرة. كان لديها تعبيران، السائد وهو عبوس غير راضٍ، يتنوع أحيانا ببسمة خبيثة وغادرة. كانت زميلاتها يتجنبنها، لأنه مع أنهن كنَّ سيئات، إلا إنهن لم يَكنَّ بسوئها. كانت أوريليا وأديل في القسم الأول من الصف

الثاني، كان الصف الثاني تحت قيادة طالبة تدعى جوانا تريستا. كانت الفتاة من أصل بلجيكي إسباني، كانت أمها الفلمنكية ميتة، كان والدها الكتلاني تاجرا مقيماً في الجزر، حيث ولدت جوانا، ثم أرسلت إلى أوروبا من أجل التعليم. أتساءل بالنظر إلى رأس هذه الفتاة ومحياها إذا كان هنالك من يمكن أن يستقبلها تحت سقفه. لديها نفس شكل جمجمة البابا ألكساندر السادس؛ كانت أعضاء الخير والوقار والاجتهاد صغيرة لديها؛ أما أعضاء تقدير الذات والثبات والتدمير والمنافسة كبيرة بشكل غير معقول، كان رأسها المنحدر على شكل مبنى، مزدحم الجبهة، ومحدب من الخلف، كان لديها ملامح جيدة بالرغم من كبرها؛ كان طبعها صفراوياً وليفياً، وبشرتها شاحبة وقاتمة، شعر وعيون سوداء، هيئة زَرِيَّة وصلبة ولكن متناسقة، في الخامسة عشرة من العمر.

لم تكن جوانا نحيفة جداً، ولكن كان لديها سيماء هزيلة، كان انتباهها رهيبا وجائعاً، وفّر حاجبها الضيق مساحة كافية لنقش مقروء لكلمتين، التمرّد والكره؛ في بعض الأحيان أحد قسماتها وأعتقد أنه العين للجبن أيضاً شيفرته المميزة. فكرت الآنسة تريستا أن تفسد حصصي الأولى بشيء من الشغب، أصدرت ضجيجا من فمها كالحصان، قذفت لعابها، تلفظت بتعابير قاسية، أجلست مجموعة من الفلمنكيين السوقيين الأدنى منزلة أمامها وخلفها، تتضمن مثالين أو ثلاثة من أمثلة التشويه وغباء الفكر الذي يبدو أنه يؤنث في الدول السفلى دليلا على أن الطقس يسرع في انحلال العقل والجسد البشري، كنَّ تحت تأثيرها، وتمكنت عبرهن من الحفاظ على جلبة خنزيرية، والتي كنت مكرهاً على قمعها بأمرها مع اثنتين من أدواتها للنهوض من مقاعدهن، وبعد أن أبقيتهن واقفات لخمس دقائق، وطردهن خارج الصف، الشركاء في مكان كبير مجاور يدعى القاعة

الكبرى، الريس في غرفة أقفلت بابها احتفظت بالمفاتيح. نفّذت هذا الحكم بحضور الآنسة رويتر، التي بدت مذعورة من القيام بإجراء حاسم كهذا أقسى إجراء تم اتخاذه في مؤسّستها. أجبت نظرتها الخائفة بنظرة هادئة وابتسامة، بالتأكيد هدأتها وطمأنتها. بقيت جوانا في أوروبا فترة كافية لتمكنها من الرد، بشر وجحود، على أي شخص يسبب لها تغيراً، وعندها ذهبت لتنضم إلى والدها في الجزر، مبتهجة لفكرة أنها قد تحصل على عبيد هناك ، الذين –كما قالت– تستطيع أن تركلهم وتضربهم كما تشاء.

هذه الصور الثلاث من الحياة. لدي أخريات، بوضوحهنّ وأقل لطفاً، ولكني سأوفر على قارئي عرضهن عليه.

بلا شك سيتوقع مني أن أقدم شيئا ساحراً من باب المقارنة، رأس عذراء لطيفة، محاطاً بهالة، تجسيد جميل للبراءة، ضامّة حمامة السلام إلى صدرها، لا، لم أر شيئا من ذلك، لهذا لن أرسمها. كانت الطالبة التي امتلكت أشد الأمزجة سعادة كانت فتاة صغيرة من الريف، لويس باث؛ كانت مطيعة وميّالة للخير، ولكنها لم تكن متعلمة جيدا أو متكلّفة؛ من ناحية أخرى، كان وباء التظاهر فيها أيضاً؛ لم يكن الشرف والمبادئ معروفين لديها، نادراً ما سمعت بهما. أقل الطالبات اعتباراً هي الطالبة المسكينة سيلفي التي ذكرتها من قبل. كان سلوك سيلفي لطيفاً، وعقلها ذكياً؛ كانت صريحة لأبعد حد يسمح لها دينها أن تكونه، ولكن منظومة جسدها فيه علّة، أعاقت صحتها الضعيفة نموها وهزت روحها، وعندها، بعيدة كما كانت عن الدير، كانت روحها منجرّة إلى الانحياز، وفي انصياع سلوكها المُروّض والمدرَّب، يقرأ المرء أنها حضرت نفسها لحياتها المستقبلية، بتنازلها عن استقلالية أفكارها وأفعالها ليَديّ معترِف استبدادي. لم تسمح لنفسها بتكوين رأي خاص، ولا أن تُفضّل رفيق معين أو وظيفة محددة،

كانت منساقة بأحد آخر في كل شيء. بجوٍ شاحب وسلبي وأوتوماتيكي، أمضت يومها كاملا تفعل ما تُؤمر، لم تفعل أبدا ما تريد، أو حتى ما كانت تعتبره صحيحاً. تمّ تعليم المتديّنة الصغيرة المسكينة أن تبقي منطقها وضميرها مطيعين لرغبة مرشدها الروحي. كانت الطالبة المثالية لمؤسسة الآنسة رويتر، صورة شاحبة، حيث الحياة تتباطأ بضعف، ولكن حيث تم استدعاء الروح بالسحر!

كان هناك طلاب إنجليز قليلون في المدرسة، ويمكن تقسيمهم في صفين. أولا الإنجليز القاريون، بشكل أساسي بناتُ مغامرات مكسورات، الذين طردهم العار أو الدين من بلدهم. لم تعرف البنات راحة بيت مستقر، مثال محتشم، أو تعليم بروتستانتي صادق، ينضممن إلى مدرسة كاثوليكية الآن و لاحقاً في آخر، بما أن آباءهن ارتحلوا من بلد لآخر ، من فرنسا لألمانيا، ومن ألمانيا لبلجيكا ، التقطوا بعض التوجيهات الزهيدة، بعض العادات السيئة، فاقدين كل فكرة حتى عن العناصر الأولى للدين والأخلاق، واكتسبن لامبالاة حمقاء لكل رأي قد يسمو بالبشرية؛ كن مميزات بنظرة كآبة اعتيادية، نتيجة تقدير للذات مدمّر وتخويف مستمر من قبل زميلاتهن الكاثوليكيات، اللواتي كرهنهن كإنجليزيات، واحتقرنهن كمهرطقات.

بنات الصف الثاني كن بريطانيات. لم أقابل منهن نصف دزينة خلال عملي في المؤسسة، كانت مميزاتهن بارزة ، لكن ملابسهن مهملة، شعر منكوش، (مقارنة بالأجنبيات المرتّبات والأنيقات)، أجساد مرنة، أياد بيضاء و رفيعة، ملامح غير متناسقة، ولكن أيضا مثقفات أكثر من البلجيكيات، وجوه كبيرة ومتواضعة، جوّ عام من الأدب الوطني والاحتشام؛ بذلك الظرف وحده أستطيع بنظرة واحدة تمييز ابنة ألبيون (اسم قديم لبريطانيا

العظمى) البروتستانتية من أختها بالرضاعة من روما، حماة اليسوع: كان التكبّر صفة هؤلاء الفتيات أيضاً؛ كن مرة محسودات من قبل زميلاتهن القاريات، صددن الإهانات بكياسة متزمتة، وقابلن الكره بازدراء صامت؛ تحاشين الإبقاء على الرفقة، بدون معزولات عن البقية. كان هناك ثلاث معلمات مشرفات على هذا الخليط من الطالبات، كلهن فرنسيات، أسماؤهن، الآنسة زيفيرين، بيلاغي، وسوزيت؛ كانت شخصية بيلاغي وسوزيت عاديتين؛ كان مظهرهن عادياً، كان سلوكهن عادياً، كان مزاجهن عادياً، كانت أفكارهن، مشاعرهن، وتوجهاتهن كلها عادية، لو كنت سأكتب فصلا عن هذا الموضوع لن أستطيع أن أصفه كفاية. كانت زيفيرين مميزة في المظهر والسلوك أكثر من بيلاغي وسوزيت، ولكن في الشخصية كانت باريسية ومغناجاً، غادرة، مرتزقة، وقلبها جاف.

كانت تأتي كل يوم سيدة رابعة لتعلم الحياكة، أو الخياطة، إعداد الشرائط، أو أي فن رقيق كهذا، ولكن لم أحصل على أكثر من نظرة عابرة إليها، بينما جلست هي في الغرفة، بإطاراتها ومجموعة من الطالبات حولها، وهكذا لم أحصل على فرصة لأدرس شخصيتها، أو حتى مراقبتها كفاية، الأخيرة لاحظت، أنه كان لها جوّ المعلمة الإنجليزية، و إلّا لم يكن الأمر صادماً، من ناحية الشخصية كانت لديها شخصية ضعيفة، كما بدا من ثورة الطالبات على سُلْطتها. لم تسكن في المنزل، كان اسمها حسبما أذكر مدام هنري.

خلال تجمع كل هذا الأمور التافهة والمتخلفة، كان هناك الكثير الخبيث والمقيت (قد يصف العديد من الناس الفتاتان أو الثلاث الإنجليزيات الصارمات، الصامتات، المحتشمات، سيئات الملبس بهذا النعت الأخير)، لمعت المديرة الذكية، الفطنة، والدمثة كنجمة فوق مستنقع مليء بفوانيس اليقطين؛ واعيا عفويتها، استمدت سروراً داخليا من وعيها الذي عززها

تحت ضغط كل هذه العناية والمسؤولية المرتبطة بمنصبها، أبقت على مزاجها هادئاً، وحاجبها سَويّاً، وسلوكها هادئاً. أحبت، ومن لا يُحب؟ أن تشعر عند دخولها أن حضورها وحده كان كافياً ليفرض هذا النظام والهدوء الذي فشلت جميع تهديدات وأوامر من هم تحتها في فرضه، رغبت في أن تقارن ، تقف موقف المقارنة أو بالأحرى التفاوت بينها وبين المحيطين بها، كسبت بيد الأفضلية المسلّم بها لكي تحصل على الأفضلية فكرياً وشخصياً، (بقية المعلمات كنَّ بسيطات.) تعاملت مع طالباتها دائماً بغفران وبراعة، متخذةً دوما دور المكافِئة والمادحة، تاركة لموظفيها مهام اللوم والعقاب غير العادلة، مما جعلهن ينظرن إليها باحترام، إن لم يكن بعاطفة، لم يحبها معلموها، ولكنهن كنَّ تبعنها لأنهن كن أدنى منها في كل شيء؛ كان المعلمون الذين يداومون في المدرسة تحت تأثيرها بشكل أو بآخر، تمكنت من السيطرة على أحدهم عن طريق إدارة مزاجه السيئ ببراعة؛ وعلى آخر بقليل انتباه على نزواته البسيطة، وسيطرت على ثالث بالإطراء، وأبقت الرابع -وهو شخص خجول- في خوف من سيمائها القاسية، وقد راقبتني وحاولت معي أشد الاختبارات ذكاءً -طافت حولي مرتبكة ولكن مواظبة- أعتقد أنها ظنتني كجُرف سلس لا يقدم أي بروز أو جذور نباتات ولا حتى حزمة من العشب لتساعد المتسلّق. الآن ها هي تطري بلباقة، الآن تعِظ، الآن جربت إلى أي مدى أنا قابل لدوافع المرتزقة، والآن ها هي على شفا العاطفة عالمة أن بعض الرجال يمكن كسبهم بالضَّعف حالاً، تحدثت بمنطق ممتاز، واعية أن الآخرين حمقى ويقدّرون الحكم. وجدت من السهل أن أتجنب كل هذه الجهود، كأني من الجميع، عندما ظنّت أنها انتصرت عليّ، أن أستدير وأن أبتسم أمام عينيها، بنصف سخرية، ومن ثم أشاهد أهانتها المغطاة والصامتة. ولم تزل مواظبة، وفي الأخير، أنا مجبر على

الاعتراف، إصبعها مثبتةً كل ذرة من علبة المجوهرات لمس ربيعه السري، وللحظة فتح الغطاء، أرخت يدها على المجوهرات بداخله؛ اقرأ وسوف تعرف ما إذا سرقته وكسرته، أو إذا ما أقفل الغطاء مرة أخرى بحركة مفاجئة على أصابعها. حصل أن أتيت في يوم من الأيام لأعطي حصة عندما كنت متوعكاً، كان لدي زكام وسعال، تركتني ساعتين من الحديث المتواصل أجشّ الصوت ومتعب، عندما غادرت غرفة الصف ومشيت عبر الرواق، قابلت الآنسة رويتر؛ لاحظت بقليل من القلق أني بدوت متعبا وشاحباً. أجبتها «نعم،» فقد كنت منهكاً؛ أجابت حينها باهتمام أكثر، «لن تغادر و تذهب حتى تحصل على بعض الإنعاش» أقنعتني بالقدوم إلى ردهتها وكانت لطيفة معي طيلة مكوثي عندها. كانت ألطف معي في اليوم التالي، أتت بنفسها إلى الصف لتتحقق من أن النوافذ كانت مغلقة، وأنه لم يكن هنالك جفاف، خصّتني بجدية بألا أرهق نفسي، عندما ذهبت، أعطتني يدها بدون أن أسألها، ولم أستطع ألا ألاحظ بضغط محترم ولطيف أني كنت شاعراً برعايتها وشاكراً لها على ذلك. أضرم تعبيري المتواضع لها ابتسامة على ثغرها؛ حسبتها فاتنة. خلال بقية المساء، كان عقلي مليئا بعدم الصبر، منتظراً قدوم مساء اليوم التالي، فَعَلّه يُمكّنني أن أراها ثانية.

لم يخب أملي، لأنها كانت جالسة في الصف طيلة دروسي المتلاحقة، وغالباً ما كانت تنظر لي بعاطفة. رافقتني خارج الغرفة الصفية في الساعة الرابعة، وهي تسأل باهتمام عن صحتي، ثم وبختني بلطف لأني تحدثت بصوت عال جداً وأتعبت نفسي كثيراً، توقفت عند الباب الزجاجي الذي يقود لحديقتها، لأستمع إلى محاضرتها حتى النهاية؛ كان الباب مفتوحا، كان يوماً جيدا جدا، بينما استمعت إلى التوبيخ المهدّئ، نظرت نحو الشمس والزهور، وشعرت بالسعادة تغمرني. بدأ الطلاب بالتدفق من الصفوف إلى الممر.

سألتني: «هل ستذهب إلى الحديقة لدقيقة أو اثنتين حتى يختفين؟»

نزلت الدرجات دون أن أجيبها، ولكني نظرت خلفي لأقول: «هل ستأتين معي؟»

بعد دقيقة كنا أنا والمديرة نتمشى جنبا لجنب في الوادي المتاخم بأشجار الفاكهة، التي كانت براعمها البيضاء مزدهرة كأوراقها الخضراء الناعمة. كانت السماء زرقاء والجو عليلاً، كان مساء أيار مليئا بالإشراق والعبير. متحرراً من الصف الخانق، محاطا بالورود والنباتات مع امرأة ظريفة ولطيفة، ومبتسمة بجانبي ، كيف كان شعوري مثيراً للحسد كثيراً. بدا كما لو أن رؤى خيالي الرومانسية عن هذه الحديقة - بينما كانت مخفية عني بالألواح الغيورة- قد تحققت بشكل كامل، وعندما حجبت التفافة وادٍ مشهد المنزل، وأقصت شجيرات طويلة بيت السيد بيليت، وحجبتنا عن المنازل المجاورة لحظة بعد أخرى، مرتفعة كالمدرج حول هذه البقعة الخضراء، مددت يدي للآنسة رويتر، وقدتها لأحد كراسي الحديقة، مختبئ تحت الليلك. جلست؛ اتخذت مكاني بجوارها. تحدثت معي بالطمأنينة التي تبث الطمأنينة، وبينما استمعت لها، استشف عقلي إلهاما بأنني كنت على وشك الوقوع في الحب. رنّ جرس الغداء، في منزلها ومنزل السيد بيليت؛ كنا مجبرين على الانفصال؛ أخرتها قليلاً بينما كانت تبتعد.

قلت: «أريد شيئاً.»

سألت زُرَيْد بسذاجة: «ماذا؟»

«أريد وردة فقط»

«اقطفها إذن، أو اثنتين أو حتى عشراً إن أردت»

«لا -تكفي واحدة- ولكن يجب أن تقطفيها أنت، وتعطينيها.»

هتفت: «يا لها من نزوة مفاجئة!» ولكنها وقفت على رؤوس أصابعها، واقتطفت غصن ليلك جميلاً وقدمته لي بكياسة. تناولته وابتعدت، راضيا في الوقت الحاضر، ومستبشراً بالمستقبل.

بلا شك، كان يوم أيار ذلك يوماً جميلا، وانتهى بليلة قمرية بدفء الصيف وسكونه. أذكره جيداً؛ لبقائي ذلك المساء، أصحّح الواجبات، شاعراً بالتعب وقليل من الإرهاق من انغلاق غرفتي الصغيرة، فتحت النافذة المغلقة بالألواح التي ذكرتها سابقاً، والتي أقنعت السيدة بيليت أن تزيلها بما أنني أصبحت معلماً في مدرسة البنات الداخلية ، وأنه منذ ذلك الوقت، لم يعد من «غير الملائم» أن أراقب طالباتي خلال لعبهن. جلست على الكرسي قرب النافذة، اتكأت بذراعي على عتبة الباب، ومِلت إلى الخارج: فوقي كانت سماء الليل خالية من الغيوم - غلب ضوء القمر الجميل و تلألأت النجوم- وتحتها كانت الحديقة، تنوعت بتلألآت فضية وظلام دامس، وكل ذلك منتعشاً بالندى -أشجار فاكهة- لم تتحرك ورقة شجر، كان الليل خاليا من النسيم. كانت نافذتي تطل على طريق في حديقة الآنسة رويتر تدعى بـ «دفاع عن الدرب»، سمي بذلك لأنه كان محظوراً على البنات لأنه كان قريباً من مدرسة الأولاد. هنا كان الليلك والأبنوس كثيفين بشكل خاص؛ كان هذا أكثر مكان مستورا، حجبت شجيراتها كرسي الحديقة حيث جلستُ ذلك الأصيل مع المديرة. لست بحاجة لأن أخبركم أن أفكاري كانت غالباً معها ، وبينما اتكأتُ على النافذة، وسرّحت نظري، حول ممشى وحدود الحديقة، وحيناً على جهة المنزل الأمامية المليئة بالنوافذ، الذي بدا أبيض خلف تجمعات أوراق الشجر. تساءلت في أي جزء من البناية تقع شقتها؟ وبدا ضوء وحيد يلمع خلال الستائر إنه يقودني إليها.

فكرت «أنها تسهر لوقت متأخر؛ لأنه الآن لا بد أن يكون منتصف الليل. إنها امرأة فاتنة.» استمررتُ في مناجاة صامتة، «تتشكل صورتها لوحة سعيدة في ذاكرتي؛ أعلم أنها ليست ما يعتبره الآخرون بالجميلة -لا مشكلة- هناك انسجام في هيئتها، ويعجبني شعرها البني، عيونها الزرقاء ونداوة وجنتيها وبياض رقبتها، كلها تلائم ذوقي. ومن ثم أنا أحترم موهبتها، كانت فكرة الزواج من اللعبة أو فتاة غبية دائما مقيتة بالنسبة لي، أعرف أن اللعبة أو الغبية ستكون جيدة خلال شهر العسل، ولكن عندما تبرد المشاعر، يا له من أمر مرعب أن تجد كتلة من الشمع والخشب ممددة على صدري! نصف غبية بين ذراعي، وأن أذكر أني جعلت من ذلك الشيء مساوياً لي لا أن أعرف أنني سأقضي ما بقي من عمري مع مخلوق غير قادر على فهم ما أقوله، ولا على تقدير أفكاري، أو التعاطف مع مشاعري! فكرت «لا، إنَّ زُرَيْد رويتر لديها اللباقة والشخصية والبصيرة والتعقل، لديها القلب؟ يا لها من ابتسامة بسيطة صغيرة لعبت على شفتيها عندما منحتني الليلك! حسبتها ماكرة، منافقة، مهتمة ببعض الأحيان، هذا صحيح، ولكن يمكن أن يكون الكثير من المكر والنفاق في سلوكها فقط جهوداً صنعها مزاجها اللطيف لتجتاز بهدوء الصعوبات المعقدة؟ وبالنسبة للاهتمام، فهي تتمنى أن تشق طريقها في العالم، بلا شك، ومن يستطيع أن يلومها؟ حتى لو كانت ضعيفة في المبادئ السليمة، ألا يكون ذلك سوء حظها بدلاً من أن يكون خطؤها؟ تمت تربيتها كاثوليكية: ولدت امرأة إنجليزية، وتربت بروتستانتية، ألا يمكن أن تكون أضافت أمانة نزيهة إلى كل امتيازاتها الأخرى؟ على فرض أنها ستتزوج من إنجليزي بروتستانتي، بما أنها حساسة وعقلانية، ألن تعترف بسمو الحق على النفعيّة، والصدق على السياسة؟ يستحق الأمر أن تقوم بالتجربة، غداً سأجدد ملاحظاتي. هي تعلم أنني أراقبها: ما أهدأها تحت المراقبة! يبدو أن المراقبة تسرها بدلا من

أن تضايقها.» هنا، انسلّت نغمة موسيقية في مناجاتي لنفسي، وأوقفتها، كان بوقاً معزوفا بمهارة، في حي الحديقة، كما حسبته، أو في البلاس رويال. كانت النغمات جميلة، كان تأثيرها قاهرا في ذلك الوقت، في منتصف الصمت تحت الحكم الساكن لضوء القمر، توقفت عن التدبر، وأنه يجب عليّ الاستماع باهتمام أكثر. تراجعت النغمة، ازداد الصوت في الخفوت حتى اختفى، استعدت أذني لتسكن إلى سُكون منتصف الليل مرة أخرى. لا. أي دمدمة تلك التي كانت منخفضة وقريبة من النهاية، أحبطت توقعات الصمت التام؟ كان هناك شخص يتكلم، أجل، من الواضح، تحدث صوت خافت لكن مسموع في الحديقة أسفل مني. أجاب آخر، كان الصوت الأول لرجل، والصوت الثاني لامرأة، ورأيت رجلا وامرأة آتيين ببطء من الوادي. كانت هيئاتهما في البداية كالظل، بالكاد تمكنت من تميز شكليهما ولكن قابلهما شعاع القمر في آخر الممشى، حيث كانا تحتي، وكشف بوضوح، بلا لبس، الآنسة زُرَيْد رويتر، متأبطة الذراع، أو يداً بيدٍ، (نسيت أيهما) مع مديري، صديقي ومستشاري، السيد فرانسوا بيليت. وكان يقول السيد بيليت «متى يكون يوم الزفاف، حبيبتي؟»

وأجابت الآنسة رويتر «لكن فرانسوا أنت تعلم أنه لا يمكنني أن أتزوج في هذه العطلة؟»

«حزيران، تموز، آب، ربع سنة بكامله!» صاح المدير: «كيف أستطيع أن أنتظر كل هذا الوقت؟ - أنا الحاضر حتى الآن لأن أموت تحت قدميك من لهفتي ونفاذ صبري!»

«آه! لو متّ، ستحل المسألة بلا عقود ولا كاتب عدل، عليّ فقط أن أوصي على لباس حداد، والذي سيتم أعداده أسرع من ثوب الزفاف.»

«يا لك من قاسية، يا زُرَيْد! تضحكين على محنة الشخص الذي يحبك بإخلاص مثلي: رياضتك تعذيبي، لا ترددين في مد روحي على مخلعة الغيرة، لأنه، تنكرين أم لا، أنا متأكد من أنك ألقيت نظرات مشجعة على فتى المدرسة ذلك، كريمسوورث، أفترض أنه وقع في الحب، ولم يكن يجرؤ على ذلك ما لم تمنحيه الفرصة لذلك.»

«ما الذي تقوله، يا فرانسوا؟ هل تقول إن كريمسوورث واقع في حبي؟»

«من رأسه لأخمص قدميه»

«هل أخبرك بذلك؟»

«لا، ولكني أرى ذلك في عينيه: يحمر وجهه حينما يذكر اسمك.»

أعلنت ضحكة دلال فرحة عن رضا الآنسة رويتر عن هذا الخبر (والذي كان كذبة بالمناسبة - لم أذهب لهذه الدرجة تابع السيد بيليت في السؤال عن ماذا تنوي أن تفعل معي، معلنا بوضوح عن أنه من التافه أن تفكر في اتخاذ غرٍّ مثلي زوجا لها، بما أنها على الأقل أكبر مني بعشر سنين (هل كانت إذن في الثانية والثلاثين؟ لم يكن علي التفكير بذلك). سمعتها تنكر أي نية في الموضوع ، ومع ذلك ضغط عليها المدير لتعطيه إجابة واضحة.

«قالت: «فرانسوا، أنت غيور،» وضحكت؛ ومن ثم، بينما أدركت أن هذا الدلال لا يليق بالشخصية المتواضعة التي أرادت أن تصنعها، أكملت بصوت رزين: «بصدق، فرانسوا، أنا لا أنكر أن ذلك الشاب الإنجليزي قد حاول أن يتملقني، ولكن بعيدا عن إعطائه أي تشجيع، دائما ما عاملته بتحفظ مجموع بالكياسة، فأنا مخطوبة لك، لا يمكن أن أعطي أي

رجل أملاً زائفاً، صدقني يا صديقي العزيز.» و كان لا يزال السيد بيليت يتلفظ بتمتمات عن عدم الثقة، لذلك حكمت فقط من ردها.

«يا لها من حماقة! كيف لي أن أفضل غريبا مجهولاً عليك؟ ومن ثم -لكيلا أجامل غرورك- لا يمكن أن يتحمل كريمسوورث مقارنته معك جسديا أو نفسياً، ليس رجلا وسيما البتة، بعض الناس يعتبرونه جنتلمان وأنه يبدو ذكياً، ولكن بالنسبة لي»

ضاعت بقية الجملة في المسافة بينما ابتعد الزوج اللذان نهضا من مقعدهما - انتظرت عودتهما، ولكن أعلمني صوت فتح و إقفال باب أنهما دخلا المنزل، استمعت لفترة أطول، كل شيء كان هادئا تماماً؛ استمعت لأكثر من ساعة - أخيرا سمعت السيد بيليت يأتي ويصعد لغرفته، ناظراً مرة أخري تجاه مقدمة المنزل الطويلة، لاحظت أن ضوء العزلة خاصته قد اختفى، وكذلك لبعض الوقت كان إيماني بالحب والصداقة خلدت إلى النوم، ولكن شيئا محموماً وملتهباً دخل عروقي ومنعني من النوم جيدا تلك الليلة.

* * *

13

استيقظت في اليوم التالي مع الفجر، وبعد ارتدائي ملابسي و واقفا لنصف ساعة مسندا مرفقي على الجارور، مفكرا بالوسائل التي يجب على اتباعها لاستعادة معنوياتي، المنهكة من قلة النوم والإرهاق، إلى حالتها الطبيعية ، لأنه ليست لدي نية أن أخلق ثورة مع السيد بيليت، أو الاقتراب منه بحذر، أو أن أرسل إليه تحذيراً، أو أي شيء من هذا القبيل، اخترت حيلة الخروج في برد الصباح إلى مؤسسة حمام عام في الحي، لأدعو نفسي إلى غطسه منعشة. أعطى العلاج التأثير المرغوب. عُدت الساعة السابعة تماماً جاهزاً ونشيطاً، وكنت قادراً على إلقاء التحية على السيد بيليت، عندما دخل ليتناول الفطور، بوجه هادئ، حتى المصافحة الودية أو تسمية «بني» المداهنة الملفوظة بتلك النبرة المداعبة التي اعتاد السيد، مؤخرا بالذات على منادتي بها، لم تثر أي إشارة خارجية عن الشعور الذي، بالرغم من أنه مقموع، لا يزال يتوهج على قلبي. هذا لا يعني أني كنت أذكي الانتقام، لا ،ولكن إحساس الذم والخيانة عاش في كالحطب المخمد الذي على وشك الاشتعال. يعلم الله أني لست انتقامياً بطبيعتي، لا يمكن أن أؤذي رجلا لأنه لم يعد باستطاعتي أن أثق به أو أحبه، ولكن مشاعري وعقلي ليس من النوع المتذبذب، ليسوا من ذلك النوع الشبيه بالرمال حيث تمحى

الانطباعات، إذا أخذت بسرعة، على عجالة. عندما أقتنع أن رغبة صديقي تتعارض مع رغبتي، عندما أتأكد أنه مبقع بشكل ثابت شوائب مكروهة لمبادئي، أذيب هذه العلاقة. فعلت هذا مع إدوارد. بالنسبة إلى بيليت، كان الاكتشاف جديداً، هل عليّ التصرف معه بنفس الطريقة؟ كان هذا السؤال الذي يشغل عقلي بينما أنا أحرك كوب قهوتي بقطعة خبز (لم يكن لدينا ملاعق)، كون السيد بيليت جالسا أمامي الآن، يبدو وجهه الشاحب أكثر هزالا وعلى دراية من ذي قبل، عينه الزرقاء مثبتة الآن الأولاد والمرشدين، والآن بسماحة علي.

«يجب أن تقودني الظروف» قلت، مقابلاً نظرةَ السيد بيليت المزيفةَ وبسمتَه المتملِّقَة، شكرت الله أني فتحت نافذتي البارحة وقرأت عبر ضوء البدر المعنى الحقيقي لذلك الوجه الماكر. شعرت بتفوقي عليه نصفياً؛ لأني أصبحت عالما بحقيقة طبيعته، فليبتسم وليداهن كما يشاء، رأيت روحه المستترة خلف هذه البسمة، وسمعت عبر كل واحدة من جمله السلسة صوتاً يفسّر مضامينها الغادرة.

ولكن زُرَيْد رويتر؟ بالطبع جرحني ارتدادها سريعاً؟ ذلك البخل، لابد من أنها بحثت عميقا عن أي سلوان فلسفي متوفر لعلاج إدراكه، أبداً. عندما انتهت حمى الليل، بحثت عن بلسم لذلك الجرح أيضاً، وعثرت على بعض منه قريبا من البيت بدلا في جلعاد. كان المنطق طبيبي، بدأ بإثبات أن الجائزة التي فقدتها كانت قليلة القيمة: أعترف بذلك، من ناحية جسدية، قد تكون زُرَيْد مناسبة لي، ولكنه أكد على أن أرواحنا لم تكن منسجمة، وإن هذا التنافر قد نشأ من وحدة عقلها مع عقلي. حينها أصر على قمع كل تبرّم، وأمرني بأن أفرح لأني نجوت من كمين. أفادني علاجه. شعرت بتأثيره المقوي عندما قابلت المديرة في اليوم التالي، لم تهتز فعاليته

الشديدة على الأعصاب، ولم تترنّح، مكنتني من مواجهتها بثبات، للمرور بها بسهولة. مدت يدها لي -لم أختر أن أشاهدها. حيتني بابتسامة ساحرة- سقطت على قلبي كالضوء على الصخر. مشيت إلى المنصة، تبعتني، طالبت عينها المثبتة على وجهي معنى سلوكي المتغير واللامبالي تجاهها. فكرت «سأمنحها إجابة» ومواجها نظرتها مباشرة، معتقلا نظرتها، أطلقت إلى عينيها من عيني نظرة لم يكن فيها أي احترام، أو حب، أو لطف أو كياسة؛ حيث أشد التحليلات صرامة لا يمكنه تتبع شيء سوى الاستهزاء، والقسوة، والتهكم. جعلتها تتحملها وتشعر بها، لم يتغير محياها الثابت، ولكن لونها زاد، واقتربت مني كما لو أنها مسحورة. وقفت على المنصة و وقفت قريبة بجانبي، لم يكن لديها شيء لتقوله. لم أكن لأخلصها من إحراجها، وقلّبت صفحات كتاب بإهمال.

«قالت أخيرا بصوت خفيض: «أتمنى أن تكون قد تحسنت اليوم.»

«وأنا آمل، يا آنسة أنك لم تأخذي بردا الليلة الماضية نتيجة تمشيك في الحديقة متأخراً.»

كونها حاضرة البديهة، فهمتني مباشرة، شحب وجهها قليلاً -قليلاً- ولكن لم تتحرك أي من عضلات وجهها، ونزلت عن المنصة بهدوء متمالكة نفسها، متخذة مقعدها بهدوء على مسافة قليلة، وشغلت نفسها بحياكة محفظة. و أنا تابعتُ إعطاء درسي، كان «التأليف» مثلاً، أمليت لهم بعض الأسئلة العامة التي يجب على الطلبة أن يؤلفوا إجاباتهم من ذاكرتهم، وكان الرجوع إلى الكتب ممنوعاً. بينما الآنسات هورتنس، بولالي، وكارولين وغيرهن كُنّ يتفكرن في حل أسئلة القواعد المبهمة التي عرضتها، كانت لي حرية توظيف نصف ساعة فراغ لمراقبة المديرة نفسها.

كانت المحفظة الخضراء في حالة من التقدم بين يديها، كانت عيناها منحنية عليه، كان سلوكها - بينما هي تحيك على بعد ياردتين مني لا يزال محمياً، كان الاحتراس ورباطة الجأش معبرَّيْن عنه في كل شخصيتها، وبنفس الوضوح - اتحاد نادر! ناظراً إليها، كنت مجبراً، كما كنت من قبل، لأمدح إدراكها، تمالكها لنفسها، ضريبة التقدير الإلزامية. شعرت أني سحبت احترامي لها؛ رأت الحقارة والبرود في عيني، وبالنسبة لها، التي اشتهت استحسان كل من حولها، التي تعطشت إلى رأي العالم الجيد فيها، لا بد أن اكتشافاً كهذا كان جرحاً خطيراً. شهدت إثره على امتقاع لون وجنتها اللحظي-وجنة غير معتادة على التنوع، ومع ذلك، ما أسرع، مع جهدها في تمالك النفس، استردادها لاتزانها! بالكرامة التي جلست بها الآن، تقريباً بجانبي، معززة بإحساسها السليم القوي؛ لا يوجد ارتعاشه على شفتها العليا الفطنة، لا عار جبان على جبهتها المتزمتة!

«هناك معدن» قلت وأنا أنظر: لو كان هناك نار أيضاً، حرارة ملتهبة لتجعل المعدن يتوهج، حينها قد أستطيع أن أحبها.»

اكتشفت تواً أنها عرفت أني كنت أراقبها، لأنها لم تتحرك، لم ترفع جفنها الماكر، نظرت لأسفل قدمها الصغيرة، الظاهرة من طيّة ردائها الصوفي البنفسجي، ثم عادت عينها إلى يدها، البيضاء كالعاج، بخاتم عقيق أحمر على سبابتها، وأهداب مخرّمة حول رسغها، أدارت رأسها بحركة بالكاد يمكن ملاحظتها، جاعلة تجعيدات شعرها ترفرف على نحو جميل. قرأت في هذه العلامات الصغيرة أن أمنية قلبها، تصميم دماغها، هو أن تسترد اللعبة التي خافت منها . حادثة صغيرة منحتها فرصة مناداتي مجدداً.

بينما كان كل شيء صامتا في الحصة -صامتاً، عدا حفيف الكتب وسفر الأقلام على صفحاتها- ورقة من الباب الكبير القابل للطي، فُتح،

سامحة بالدخول لطالبة، التي بعد أن قدمت انحناءة سريعة، جلست ومظهر الخوف باديا عليها، من المحتمل أنه نتيجة قدومها متأخرة، في مقعد شاغر في أقرب مقعد من الباب. كونها جلست، شرعت، بجو من الأحراج والعجلة في فتح حقيبتها، لتخرج كتبها، وبينما كنت أنتظرها لترفع وجهها لأتمكن من أن أتبين من هي -بما أن نظري كان قصيراً، لم أميزها عندما دخلت- اقتربت الآنسة رويتر من المنصة تاركة مقعدها.

«يا سيد كريمسوورث» همست لي: لأنها عندما كانت الصفوف صامتة، دائما ما كانت المديرة تمشي بخطى ناعمة، وتتحدث بأكثر الأصوات خفوتاً، فارضة النظام والهدوء بالمثال كما بالإرشاد: «يا سيد كريمسوورث، تلك الشابة التي دخلت للتو، تتمنى أن تأخذ معك دروسا في الإنجليزية، ليست طالبة من المدرسة، هي بالتأكيد، بمعنى أو بآخر، معلمة، لأنها تعلم حياكة الشرائط، وتعلم أيضا تشكيلات متنوعة من التطريز التزييني. وهي تقترح أن تتقدم بنفسها لدرجة أعلى من العلم، وطلبت الإذن لتنضم لدروسك، لتحسن من معرفتها للغة الإنجليزية، اللغة التي أحرزت فيها تقدماً على ما أعتقد، بالطبع من دواعي سروري أن أساعدها في مجهودها الذي يستحق المديح، ستسمح لها إذن أن تستفيد من توجيهاتك - أليس كذلك يا سيد؟» ارتفعت عينا الآنسة رويتر إلى عينيّ بنظرة ساذجة، لطيفة ومتوسلة في آن واحد.

رددت عليها: «بالطبع،» بشكل مقتضب، ومفاجئ. قالت الآنسة رويتر بعذوبة، «شيء آخر، لم تتلقَ الآنسة هنري تعليما منتظماً، ربما مواهبها الطبيعية ليست في أعلى مستوى، لكنني أستطيع أن أؤكد لك امتياز نيّتها، وحتى ظُرف عريكتها. أنا متأكدة من أن السيد سيكون مراعياً لها في البداية، ولن يكشف تخلّفها عن البقية، أو نقصها أمام البنات الصغيرات،

اللواتي، بمعنى آخر، هنّ طالباتها. هل سيسدي السيد كريمسوورث خدمة باهتمامه بهذا التلميح؟»

أومأت برأسي. أكملت بحماس مكبوت، «اعذرني، يا سيد، لو أضيف إن الذي قلته للتو مهم للفتاة المسكينة؛ إنها تعاني من صعوبة كبيرة في دَمْغ هذه الأشياء الصغيرة بدرجة من الإذعان لسُلطتها، وإذا زادت الصعوبة باكتشافات جديدة لعجزها، ستجد أن من الصعب جدا أن تحتفظ بمنصبها في مؤسستي - وهو ظرف سأندم عليه من أجلها، كما أنها لا تتحمل خسارة فوائد عملها هنا.»

امتلكت الآنسة رويتر لباقة رائعة، ولكن اللباقة المقصورة، غير مدعومة بإخلاص، سيفشل تأثيرها في بعض الأحيان؛ لذلك، في هذه الحالة، كلما وعظت عن ضرورة التساهل مع طالبة المديرة، كلما زاد نفاد صبري وأنا أسمعها. فهمت بوضوح أنه بينما كان هدفها المفصح عنه هو مساعدة الآنسة هنري البليدة ولكن حسنة النية، هدفها الحقيقي هو مخطط لتذهلني بفكرة من طيبة قلبها ومراعاتها، وكوني أومأت سريعا بالموافقة على ملاحظاتها، تحاشيت تكرارهن بطلبي المفاجئ لمواضيع الإنشاء، بلهجة حادة، ونزولي من المنصة لجمعها. عندما مررتُ بالمعلمة - الطالبة، قلت لها، «لقد أتيتي متأخرة اليوم؛ حاولي أن تكوني أكثر دقة المرة القادمة».

كنت خلفها، ولم أستطع أن أقرأ على وجهها تأثير حديثي غير المهذب. ربما ما كان يجب عليّ أن اتعب نفسي بفعل ذلك، لو أني كنت أمامها؛ ولكني لاحظت أنها بدأت بوضع كتبها في حقيبتها مجدداً، وتواً، بعد أن عُدتُّ إلى المنصة، بينما كنت أرتب فوضى مواضيع الإنشاء، سمعت الباب يُفتح ويُقفل مجدداً، وعندما رفعت عيني رأيت مقعدها فارغاً.

فكرت في نفسي، «ستعتبر محاولتها الأولى في أخذ حصة في اللغة الإنجليزية فشلاً» وتساءلت ما إذا غادرت في حالة استياء، أو أنّ غباءها حثها على أخذ كلامي حرفياً، أو، أخيراً، ما إذا جرحت نبرتي الحادة مشاعرها. استبعدت آخر فكرة حالما استحضرتها، بما أني لم أرَ أي حساسية في أي وجه مذ وصلت إلى بلجيكا، بدأت أعتبرها صفة غير قابلة للتصديق. لم أستطع معرفة ما إذا عبرت ملامحها عنها؛ لأن خروجها على عجلة لم يتح لي الفرصة في التأكد من الوضع. لقد التقطت مشهداً عابراً لها في مناسبتين أو ثلاث سابقات (كما كان مذكورا مسبقا)؛ ولكنني لم أتوقف عن تفحص وجهها أو ذاتها، وحصلت على فكرة مبهمة عن مظهرها العام. تماما عندما انتهيت من لف أوراق الإنشاء، دق جرس الساعة الرابعة؛ بحرصي المعتاد على اتباع هذه الإشارة، التقطت قبعتي وغادرت المبنى.

* * *

14

لو كنت دقيقا في موعد خروجي من مقر الآنسة رويتر، فكنت على الأقل دقيقاً فيه هناك؛ أتيت اليوم التالي في الساعة الثانية إلا خمس دقائق، وبوصولي إلى باب الغرفة الصفية، قبل أن أفتحها، سمعت صوت ثرثرة سريعاً، حذرني من أن صلاة الظهر لم تنتهِ بعد. انتظرت نهايتها، سيكون من غير التقي أن يتطفل حضوري المهرطق خلال عملية الصلاة. كيف أصدر تكرار الصلاة صوت بقبقة وقوقأة! لم أسمع من قبل لغة تنطق بسرعة محرك بخاري. «أبانا الذي في السماوات» انطلقت كالرصاصة، ثم تبعه خطاب مع ماريا: «أيتها العذراء، أيتها الملائكة، أيها المنزل الذهبي، أيها العاج!» ومن ثم تضرع إلى قسيس اليوم، ومن ثم جلسن كلهن، وانتهى طقس الوقور؛ ودخلت، فاتحا الباب على مصراعيه وخطوت مسرعاً، كما كانت عادتي؛ لأني وجدت أن دخولي برباطة جأش وصعودي إلى المنصة بشدة ، يكون السر العظيم لضمان الصمت الفوري. كان الباب المفتوح بين الصفين للصلاة مقفلاً الآن، اتخذت معلمة حقيبتها بيدها، مقعدها في الدرج الملائم لها، جالت الطالبات بأقلامهن وكتبن أمامهن، حسناواتي الثلاث في الطليعة، الآن هن متواضعات بسلوك رباطة جأش ثابت، جلسن بهدوء وأيديهن مطوية على ركبهن؛ توقفن عن الضحك والهمس لبعضهن،

وتوقفن عن الأحاديث الجانبية في حضوري؛ أصبحن يتحدثن معي بعيونهن، اللاتي بإمكانهن أن يقلن عبرهن أشياء متهورة وعابثة. لو وظفت العاطفة والخير والتواضع والموهبة الحقة هذه الأجرام السماوية المنيرة، لا أظن أنني سأمتنع عن منح نوع من التشجيع، ربما رداً متحمساً حيناً وآخر؛ وبِكُنَّ كما كنت، وجدت متعة في الرد على نظرة الغرور بنظرةٍ رواقية. كان العديد من طالباتي شابات، جميلات، متألقات، أستطيع القول بصدق إنهن لم يرين فيَّ أي سلوك سوى المتزمت ، سلوك يستطيع فقط المتزمت الصارم أن يريه إياهن. إذا كن هناك فأي شك في صحّة هذا القول، كاستنتاج إنكار للذات وفق الضمير أو تحكم في النفس أكثر من الذي يشعرون أنهم ميالين لمدحي عليه، فليضعوا في الحسبان الظروف الآتية، والتي بالرغم من أنها تنقص من مزاياي، تثبت صحة كلامي. *مكتبة الرمحي احمد*

اعلم، أيها القارئ الشكاك! أن لدى المعلم علاقة مختلفة مع فتاة جميلة وطائشة، وجاهلة، إضافة إلى ذلك يرافقها زميل إلى حفلة، أو شخص شهم إلى حفلة راقصة. إن المعلم لا يقابل طالبته ليراها مرتدية الساتان أو الموسلين، بشعر مموج ومتعطرة، ورقبة بالكاد مغطاة بشريطة رقيقة، وذراعين بيضاوين مزينتين بأساور، أقدام جاهزة للرقص. ليست مهمته أن يحركها في رقصة الفالس، أن يشبعها بالإطراء، أن يعلي من جمالها بفيض من الزهو المرضي. ولا حتى يواجهها في جادة محاطة بالأشجار، في ساحة خضراء ومشمسة، حيث لاذت باللباس خلال تحولها إلى ثوب متحرك، وشاحها مرمي على كتفيها بأناقة، قلنسوتها بالكاد تغطي تموجات شعرها، الزهرة الحمراء تحت حافتها مضيفة لوناً جديدا للزهرة الناعمة على وجنتها، وجهها وعيناها، منارتان بابتسامات، عابرة كأشعة شمس يوم مهرجان، ولكنها بدرجة سطوعها، ليست مهمته أن يسير بجانبها، أن يستمع لحديثها

المفعم بالحيوية، أن يحمل لها مظلتها، التي تكون بالكاد أكبر من ورقة الشجر، أن يقود كلبها السبنيلي أو كلب الصيد الإيطالي خاصتها. لا: هو يجدها في الغرفة الصفية، مرتدية بطريقة لائقة، وكتبها أمامها. بسبب تعليمها أو لطبيعتها، فالكتب بالنسبة إليها مجرد إزعاج، وتقوم بفتحها بنفور، مع ذلك يجب على معلمها أن يزرع فيها في عقلها محتويات هذا الكتاب، هذا العقل يرفض السماح للمعلومات الجليلة، يرتد، ويصبح هائجاً، وتظهر الأمزجة الحاقدة والمتجهمة، عبوس مشوّه يفسد تناسق الوجه، في بعض الأوقات تنفي إشارات جلفة كياسة من السلوك، بينما تدنس التعابير المدمدمة، الفواحة بسوقية يتعذر استئصالها، تدنس عذوبة الصوت. تعارض بلادة لا تقهر كل مجهود للتعليم، حيثما كان المزاج رائقاً بالرغم من أن الفطنة كسولة. حيثما هناك مكر لكن دون طاقة، إخفاء، بهتان، توضع مئة خطة ومكيدة لتجنب ضرورة التطبيق؛ بالمختصر، بالنسبة للمحاضر ، الشباب الأنثوي ، السحر الأنثوي كالبساط المزدان بالرسوم، مع الجهة الخاطئة مدارة ناحيته باستمرار؛ وحتى عندما يرى السطح الناعم الخارجي يعرف جيدا أي عقدة، أي درزة، أو نهايات ممزقة خلفها جيدا حتى إنه بالكاد يرى إغراء ليُقدِّرَ بوَلَع المظاهرَ الأنيقة والألوان المتألقة المكشوفة للعامة.

إن ظروفنا تضبط أذواقنا. يفضل الفنان دولة مليئة بالهضاب لأنها تكون تصويرية، بينما يفضل المهندس دولة مسطحة، لأنها مريحة، رجل المتعة يفضل ما يسميه «امرأة حسنة» – فهي تناسبه، الشاب الأنيق يقدر الآنسة الأنيقة – فهي من نوعه؛ المدرس المنهك، الكادح، وربما حاد الطبع، أعمى عن الجمال، غير شاعر بالأناقة، يبتهج في الغالب بقدرات فكرية معينة: الطلاقة، وحب العلم، والقدرة الطبيعية، والطاعة، والصدق، والامتنان، هي الصفات التي تجذب انتباهه وتستحق اعتباره. إنه يبحث

عنها، ولكنه نادرا ما يقابلها، وإذا بالصدفة عثر عليها، قد يستبقيها في ذاكرته للأبد، وإذا حرمه الفراق منهن يشعر كما لو أن يدًا قذرة انتزعت منه نعجته الوحيدة. أن تكون القضية كذلك، وهي كذلك فعلاً، سيتفق معي القراء على أنه لا يوجد شيء جدير بالتقدير أو بديع في استقامة واعتدال تصرفي في مدرسة الآنسة رويتر الداخلية للبنات.

تمثل عملي هذا المساء في قراءة قائمة الأماكن لهذا الشهر، محددة بصحة موضوعات الإنشاء المسلمة في اليوم السابق. كانت القائمة مرؤوسة، كالعادة، باسم سيلفي، تلك الفتاة الهادئة التي وصفتها من قبل بكونها أبشع وأفضل طالبة في المؤسسة في آن واحد، وقعت المرتبة الثانية في نصيب ليوني ليدرو، مخلوقة مصغرة، ذات ملامح جلية، وجلدها كالبرشمان، سريعة البديهة، ضميرها سهل الانقياد، ومشاعرها متصلبة؛ شيء كالمحامي، كنت أقول عنها، لو أنها كانت ولداً، لكانت مثالاً لمحامٍ ذكي وبلا ضمير. ومن ثم يولالي، الجمال الفخور، جونو (أخت وزوجة جوبتر في الأساطير الرومانية) المدرسة، ست سنوات من النحت في قواعد اللغة الإنجليزية البسيطة، خضعت، بالرغم من جمود ذكائها، لاكتساب معرفة آلية بمعظم قواعدها. لم تظهر أي بسمة أو علامة رضا على وجه سيلفي الشبيه بوجه الراهبة عندما سمعت اسمها ينطق أولاً. دائما ما شعرت بالحزن لمشاهدة هدوء تلك الفتاة في جميع المناسبات، وكانت عادتي النظر إليها، أن أخاطبها، نادراً؛ قد يوصي انقيادها ومواظبتها على حسن ظني بها؛ ويحثني تواضعها وذكاؤها على الشعور بكل لطف و كل حنان تجاهها، على الرغم من وضوح ملامحها الشبحي، تفاوت هيئتها، فقدان الحيوية في محياها الذي يجعلها كالجثة، لو لم أكن على علم بأن كل كلمة لطيفة، كل فعل طيب، سيتم الاعتراف به إلى كاهن الاعتراف الخاصة بها،

وأنه سيسيء فهمهم ويسممهم. في مرة وضعت يدي على رأسها كعلامة استحسان؛ ظننت أن سيلفي ستبتسم، هاجت عينها الغامضة، ولكنها حالاً انكمشت مني؛ كنت رجلاً و مهرطقاً، هي الفتاة المسكينة! مصيرها، أن تكون راهبة وكاثوليكية: لذلك فصل عقلي عن عقلها حائط رباعي من الانفصال. بسمة متكلفة وقحة، ونظرة انتصار قاسية، كانتا وسيلة ليون لتشهد على ابتهاجها؛ بدت يولالي متجّهمة وحسودة - لقد أملت أن تكون الأولى. تبادلت هورتنس وكارولين كشرة متهورة عند سماع اسميهما يقرآن تقريباً في آخر القائمة؛ لم تكن تُعتبر وصمة الدونية الفكرية من قبلهن عيباً، كون آمالهن في المستقبل مبنية فقط على مفاتنهن الذاتية.

بعد الانتهاء من هذه المسألة، تابع ذلك الدرس الاعتيادي. خلال استراحة قصيرة، مشغولاً بدراسة الطالبات لكتبهن، رأت عيني، وهي تحوم بلا مبالاة بين المقاعد، للمرة الأولى، أن أبعد كرسي في أبعد صف- مقعد شاغر كالعادة - كان ممتلئا مجددا بالطالبة الجديدة، الآنسة هنري التي أوصتني المديرة بها. كنت مرتدياً نظارتي، لذلك مظهرها كان واضحا في النظرة الأولى؛ لم يكن علي أن أحزره. بدت صغيرة، ومع ذلك، لو طلب مني أن أحدد عمرها بالضبط، لكنت نوعا ما محتاراً، خفّة قوامها قد تلائم فتاة في السابعة عشرة تعبير وجهٍ معين وقلِق بدا أنه يشير إلى سنوات أكثر نضجاً. كانت مرتدية، كبقيتهن، رداءً أسودَ بياقة بيضاء؛ كانت ملامحها مختلفة عن كل الموجودات هناك، ليست مستديرة، أكثر وضوحاً، ولكنها نادراً عادية. كان شكل رأسها مختلفا كثيراً، كان الجزء العلوي منه أكثر تطوراً، بينما الجزء السفلي أقل، شعرت بالثقة، من النظرة الأولى إنها ليست بلجيكية، كانت بشرتها، ومحياها، قسماتها، جسدها، كلها مميزة عنهن، وبالتأكيد من عِرق آخر - من عرق ليس موهوبا بامتلاء اللحم والدم كفاية، أقل

مرحاً، مادّي، غافل. عندما وقعت عيناي عليها للوهلة الأولى، جلست ناظرة إلى الأسفل، ذقنها مرتاحة على يدها، ولم تغير من وضعيتها حتى بدأت الدرس. لم تكن أي من الفتيات البلجيكيات لتحافظ على وضعية، وتكون وضعية تأملية، لنفس الفترة الزمنية. كوني ألمحت إلى أن مظهرها كان مميزاً، كونها مختلفة عن زميلاتها الفلمنكيات، لدي القليل لأقوله بشأنها؛ لا أستطيع التلفظ بأي مديح على جمالها؛ لأنها لم تكن جميلة - ولا أن أعرض مواساة لبساطتها، لأنها لم تكن بسيطة؛ جبهة مهمومة، وشكل متطابق للفم، صدمني بإحساس يشبه المفاجأة، ولكن من المحتمل أن تكون هذه الصفات قد مرَّت دون ملاحظة من مراقب ذي نزوات أقل غرابة.

والآن أيها القارئ، بالرغم من أنني قضيت صفحة كاملة في وصف الآنسة هنري، أعلم جيداً أني لم أترك في عين عقلك صورة واضحة عنها، لم أرسم لك بشرتها، ولا عينيها، ولا شعرها، ولا حتى رسمت تفاصيل جسدها. لا تستطيع أن تعرف إذا كان أنفها معقوفاً أو أفطس، ما إذا كان ذقنها طويلاً أو قصيراً، ما إذا كان وجهها مستديرا أو بيضوياً؛ ولم يكن باستطاعتي في اليوم الأول، وليست في نيتي أن أوصل إليك مرة واحدة معرفة حصلت عليها شيئاً فشيئاً.

أعطيتهن تمرينا قصيراً كتبْته. رأيت أن الطالبة الجديدة كانت مشدوهة في البداية من حداثة اللغة والشكل، نظرت لي مرة أو مرتين بنوع من القلق المؤلم، كأنها لم تفهم ما قلته؛ ولم تكن جاهزة عندما كنَّ جاهزات، لم تتمكن من كتابة الجمل بنفس سرعتهن، لم أكن لأساعدها، استمررت بعدم شفقة. نظرت إليّ، قالت عينها بوضوح «لا أستطيع أن ألحق بك» تجاهلت الاستغاثة، ومستندا إلى كرسيّ بإهمال، ناظراً من فترة لأخرى خارج النافذة بعدم اكتراث، أمليت بوتيرة أسرع. عندما نظرت إليها، رأيت وجهها غائما

بالإحراج، ولكنها لم تزل تطلب باجتهاد؛ توقفت لبضع ثوان؛ شغلت هذه الفترة في قراءة ما كتبت بسرعة، وكان الخجل والهزيمة باديين على محياها؛ وجدت أنها لم تجد فيها كتبته منطقاً. اكتمل الإملاء في غضون عشر دقائق، وبعد منحهن وقتا قصيرا لتصليحه، أخذت كتبهن؛ ناولتني الآنسة هنري كتابها بيد كارهة، ولكن عندما أسلمته لي، نظمت وجهها القلق، كما لو أنها في الوقت الحاضر قررت أن تصرف الندم، وقد قررتْ أن يفكّر فيها كغبية لا مثيل لها. بالنظر إلى تمرينها، وجدت أن بعض الأسطر قد تم محوها، ولكن الذي كان مكتوبا احتوى على أخطاء قليلة جداً؛ كتبت مباشرة «جيد» في آخر الصفحة، وأعدتها إليها، ابتسمت، في البداية بشك، ثم و كأنها متأكدة، ولكنها لم ترفع عينيها؛ بدا أنه كان بإمكانها النظر إليّ، عندما تكون متحيرة ومرتبكة، ولكن ليس وهي فرحة و راضية؛ فكرت أن ذلك نادراً ما يكون عادلاً.

* * *

15

مضى بعض الوقت قبل أن أعطي درسا في الصف الأول، استغرقت عطلة ويتسونتيد ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع كان دور القسم الثاني ليستقبل تعليماتي. عند مروري بالساحة، رأيت، كالعادة، فرقة الخياطات محيطة بالآنسة هنري؛ كان هناك ما يقارب العشر منهن، ولكن ضجيجهن كان يساوي ضجيج خمسين؛ بَدَين قليلا جدا تحت طاعتها؛ هاجمتها ثلاث أو أربع بطلبات ملحّة؛ بدت مرهقة، طالبتهن بالصمت، لكن بلا فائدة. رأتني، رأيت في عينيها الألم لرؤية شخص غريب عدمَ طاعة طلابها، بدا أنها تتوسل الانضباط - كانت صلواتها بلا فائدة، ثم لاحظت أنها زمت شفتيها وعقدت حاجبيها، وقال محياها، قرأته بشكل صحيح: «قمت بأفضل ما لدي؛ ومع ذلك فأنا أستحق اللوم؛ ومن سيلومني إذن» مضيت؛ عندما أغلقت باب الغرفة الصفية، سمعتها تقول، فجأة وبحدة، مخاطبة واحدة من أكبرهن وأكثرهن مشاغبة، إيميلي مولنبرغ، لا تسأليني أي سؤال، ولا تطلبي مني المساعدة، لمدة أسبوع كامل؛ لن أتكلم معك أو أساعدك طول تلك الفترة.»

نُطِقَت الكلمات بتأكيد -لا، بعنف- وتبع ذلك صمت بنفس الشدة، لا أعلم إذا ما كان الهدوء دائماً؛ أغلق بابين الآن بيني وبين الساحة.

كان اليوم التالي مناسبا للحصة الأولى، وجدت المديرة جالسة عند وصولي، كالعادة، في كرسي بين منصتين، وكانت الآنسة هنري واقفة أمامها، بسلوك (كما بدا لي) بانتباه مكره بعض الشيء. كانت المديرة تحيك وتتحدث في نفس الوقت. في وسط همهمة غرفة مدرسية كبيرة، كان من السهل التحدث في أذن شخص واحد، ليسمع ذلك الشخص وحده، ولذلك تحدثت الآنسة رويتر مع معلمتها. كان وجه تلك الأخرى متوردا قليلاً، ليست مضطربة، كان فيه إغاظة، لا أعلم من ماذا، لأن المديرة بدت هادئة جداً، لا يمكن أن تهزئها بهمسات لطيفة، وملامح رصينة؛ لا، فقد أثبت أن حديثها كان ودوداً جداً، لأني سمعت الكلمات الختامية «إنه صديق جيد، الآن أنا لا أريد أن أتذكر أكثر من ذلك.»

ابتعدت الآنسة هنري من دون رد، كان عدم الرضا واضحا على وجهها، ولوت شفتها ابتسامة مرتابة، خفيفة وقصيرة، ومزدري على ما أظن، عندما اتخذت مكانها في الصف؛ كانت ابتسامة سرية لا إرادية، استمرت لثانية واحدة، تبع ذلك جوٌّ من الكآبة، مطرودا من قبل انتباه واهتمام، عندما أمرتُ جميع الطالبات بإخراج كتب القراءة. كرهت درس القراءة بشكل عام، كان سماع لفظهن الجلف للغتي الأم عذاباً لأذني، ولا يبدو أن أي مثال أو تدريب مني قد يتسبب بتحسن في لهجتهن. اليوم، كل في طريقتها الخاصة ، لثغت، تلعثمت، غمغمت، و رطمت كالعادة، عذبتني حوالي الخمسة عشر فتاة واحدة تلو الأخرى، وتوقع عصبي السمعي بغضب نشاز السادسة عشرة، عندما صوت ممتلئ بالرغم من أنه منخفض، قرأ بإنجليزية سليمة.

«في طريقه إلى بيرث، قابل الملك امرأة من التلّة، مدعية أنها نبية، وقفت إلى جانب المركب الذي كان على وشك السفر على متنه إلى الشمال

وصرخت بصوت عالٍ: «أيها الملك، إذا عبرت هذه المياه فلن تعود حياً مرة أخرى!» تاريخ سكوتلاندا.

رفعت نظري باندهاش؛ كان الصوت صوت ألبيون؛ كانت اللهجة نقية و رنانة؛ كانت فقط في حاجة إلى الثبات والثقة لتكون نسخة مطابقة لأي سيدة بالغة التهذيب من أسكس أو ميدليكس، مع ذلك، لم يكن المتكلم أو القارئ أحداً سوى الآنسة هنري، التي لم أر في وجهها الرزين المكدر أي علامة وعي على أنها نفذت أي عمل بطولي. لم يظهر التفاجؤ على أيّ أحد. حاكت الآنسة رويتر بمواظبة، كنت واعيا أنه في نهاية الفقرة، رفعت جفنها وشرفتني بنظرة جانبية؛ لم تعلم درجة امتياز أسلوب المعلمة في القراءة، ولكنها عرفت أن قراءتها ليست مشابهة للباقيات، وأرادت أن تكتشف ما هو رأيي، غطيت سيمائي بعدم الاكتراث، وأمرت الطالبة التالية بالقراءة.

ندما انتهى الدرس، استفدت من التشويش الذي سببه خروج الطالبات، للاقتراب من الآنسة هنري؛ كانت واقفة بجانب النافذة وابتعدت عندما تقدمت منها؛ حسبت أني أردت النظر إلى الخارج، ولم تتخيل أنه قد يكون لدي شيء لأقوله لها. تناولت كتاب التمارين خاصتها من يدها؛ خاطبتها بينما كنت أتصفحه.

«هل أخذت دروسا في الإنجليزية من قبل؟»

«لا يا سيدي.»

«لا! أنت تقرئين جيداً؛ هل كنت في إنجلترا؟»

«آه لا!» قالت ببعض الحيوية.

«هل كنت مع عائلات انجليزية؟»

لا يزال الجواب «لا» هنا، رأت عيني المثبتة على ورقة الكتاب، «فرانسيس إفان هنري»

سألت «اسمك؟»

«أجل، يا سيدي.»

قُطعت أسئلتي، سمعت صوت خشخشة خلفي، وكانت المديرة خلفي، مؤكدة أنها تتفحص المقعد.

قالت مخاطبة المعلمة: «يا آنسة، هلا تلطفتِ وانتظرتِ في الرواق، بينما تضع الفتيات أغراضهن وتحافظي على بعض النظام؟

أطاعتها الآنسة هنري.

«يا له من طقس جميل!» قالت ببهجة، ناظرة بنفس الوقت من النافذة. وافقت وكنت أنسحب. «ما بال طالبتك الجديدة، يا سيد؟ تابعت، لاحقة خطاي. «هل من المتوقع أن تحرز تقدما في الإنجليزية؟»

«بالكاد أستطيع أن أحكم. لديها لهجة جيدة، لم أشكل رأياً عن معرفتها باللغة الإنجليزية بعد.»

«ومقدرتها الطبيعية، يا سيد؟ لدي مخاوفي بخصوص ذلك: هل تستطيع أن تريحني بتأكيد على أن قدرتها جيدة؟»

«لا أرى مدعاة للشك حول قدرتها الجيدة، يا آنسة، ولكن بحق أنا بالكاد أعرفها، ولم يتح لي الوقت الكافي لدراسة مستوى قدرتها. عمت مساءً.»

لم تزل تلاحقني «ستراقب يا سيد وتخبرني بما تفكر به؛ أستطيع أن أعتمد على رأيك أكثر من رأيي؛ لا تستطيع النساء أن تحكم في هذه الأمور

كما يفعل الرجال، اعذر إلحاحي، يا سيد، ولكنه من الطبيعي أن أكون مهتمة بأمر تلك الفتاة المسكينة (التعيسة)، بالكاد لديها أقارب، مجهودها هو كل ما تتطلع إليه، ثروتها هي براعتها؛ وضعها الحالي كان وضعي يوماً ما، تقريبا؛ إذن من الطبيعي أن أكون متعاطفة معها، وعندما أرى في بعض الأحيان الصعوبة التي تواجهها في إدارة طلابها، أتهاوى من الغم. لا شك لدي أنها تقوم بأفضل ما لديها، قصدها ممتاز، ولكنها يا سيد، تريد الثبات واللباقة. تحدثت إليها في الموضوع، ولكني لست سلسة، و ربما لم أعبر عن قصدي بوضوح، لا يبدو عليها أبداً أنها تفهمني. و الآن هل من الممكن، عندما تتاح لك الفرصة، أن تعطيها نصيحة بخصوص هذا الموضوع، لدى الرجال تأثير أكبر مما لدى النساء - هم يحاورون بمنطقية أكثر منا، وأنت، يا سيد، بالذات، لديك قوة عظيمة لجعل الناس مطيعين لك، كلمة نصح منك ستكون خيراً لها، حتى لو كانت عنيدة وجامحة (والذي آمل ألا تكون)، لا يمكن أن ترفض الاستماع إليك؛ من ناحيتي، يمكنني القول بصدق أني لم أحضر أيا من حصصك بدون أن أستنبط فائدة من مشاهدة إدارتك لطالباتك. إن المعلمات الأخريات مصدر إزعاج دائم بالنسبة إليّ؛ لا يمكنهن إبهار الآنسات بإحساس الاحترام، ولا أن يكبحن الطيش الذي يكون من طبيعة الشابات: أشعر بالثقة العمياء بك، يا سيد؛ حاول أن تعلم هذه الفتاة المسكينة طريقة السيطرة عليهن. لكن، يا سيد، أرغب في أن أضيف شيئاً آخر؛ لا تخاطر بالقليل من حبها؛ كن حذرا من جرحها هناك. أنا اعترف مكرهة على أنه في هذا الأمر هي بلوم - البعض قد يقول بسخف- حساسة. أخشى أن أكون قد لمست تلك النقطة الحساسة غير متعمدة، ولا تستطيع أن تتغلب عليها.

كانت يدي على مقبض الباب الخارجي، خلال القسم الأكبر من هذا الخطاب؛ الآن أدرتها.

«إلى اللقاء يا آنسة.» قلت، وهربت. رأيت أن كلمات الآنسة كانت مستنزفَة. نظرت إليّ، كانت ترغب لو أخرتني أكثر من ذلك. تحسن سلوكها معي منذ بدأت بمعاملتها بقسوة وعدم اكتراث: تقريبا تتملقني في أي مناسبة؛ تستشير محياي بشكل مستمر، وأحاطتني باهتمام رسمي. إن الخنوع يخلق الاستبداد. ذلك الاحترام الوضيع، بدلاً من أن يلين قلبي، دَلّل فقط ما كان قاسياً ومتطلبا في مزاجه. نفس الوضع عندما تحوم حولي كالطير المشدوه، بدا أنه يحولني إلى دعامة قاسية من الصخر؛ أثار إطراؤها ازدرائي، أكدت مداهنتها تحفظي. تساءلت في بعض الأوقات عن مقصدها في محاولتها كسبي، في حين كان بيليت المفيد أكثر مني في شباكها وعندما علمت، أيضاً، أني عرفت سرها، لأني لم أتردد في إخبارها أكثر ، لكن الحقيقة كانت كما كانت طبيعتها أن تشك في الحقيقة وأن تقلل من قيمة التواضع، الطيبة، اللامبالاة ، أن تعتبر هذه الصفات نقاط ضعف في الشخصية لذلك كان ميولها أن تعتبر التكبر والقسوة والأنانية، كدلائل على لا قوة يمكنها أن تدوس على رقبة التواضع، وتركع عند قدمي الازدراء، قد تقابل اللطف باحتقار سرّي، وقد تتودد للامبالاة بالمجاملة المستمرة. كانت النزعة إلى الخير، والتكريس، والحماس ما تكره؛ كانت تفضل الإخفاء والمصلحة الشخصية - كانوا الحكمة الحقيقية بالنسبة إليها؛ تغفر الانحطاط الأخلاقي والجسدي، الدونية الفكرية والمادية، كانوا الأوراق و قادرين أن يكونوا في مصلحتها كتجهيز لمنحها. خضعت للطغيان والعنف والظلم - كانوا معلميها الطبيعيين؛ لم يكن لديها ميل إلى أن تكرههم، ولا دافع لمقاومتهم؛ الغضب الذي يوقظونه في بعض القلوب ليس معروفا في قلبها. نتج عن كل هذا أن الأناني والخاطئ نادوها بالحكيمة، وأن السوقيين

والمهانين لقبوها بالمتصدقة، أطلق عليها المتغطرسون لقب الودودة، الخيرون والواعون قبلوها في البداية كما قيموا ادعاءها أنها واحدة منهم؛ ولكن اهترأ غطاء التظاهر منذ زمن، ظهرت المادة الحقيقة تحت، ووضعوها جانبا كخداع.

* * *

16

رأيت الآنسة هنري خلال أسبوعين كفاية لأشكل رأيا عن شخصيتها. رأيتها مأخوذة فيَّ إلى درجة ملحوظة في نقطتين، أي بمعنى. المثابرة وحس الواجب؛ رأيت أنها قادرة على الدراسة، وعلى المناضلة ضد الصعوبات. عرضت عليها في البداية نفس المساعدة التي أعرضها على البقية؛ بدأت بحل كل نقطة معقدة لديها، ولكنني اكتشفت عما قريب أن طالبتي الجديدة تعتبر هكذا مساعدة إهانة ؛ ارتدت عنها بنوع من نفاد الصبر المتكبر. عند هذا، أعطيتها دروسا مطولة ، وتركتها لتحلّ وحدها أي تعقيد قد يعترضها. شرعت بالمهمة بحماس، وبعد أن حققت واحدة بسرعة، طالبت بالمزيد. الكثير على مواظبتها؛ بالنسبة إلى حس الواجب لديها، أظهر نفسه هكذا، أحبت أن تتعلم، لكنها كرهت التدريس؛ تقدمها كطالبة اعتمدت على نفسها، ورأيت أنها تستطيع أن تعتمد على نفسها كلياً؛ اعتمد نجاحها، ربما بشكل أساسي كمعلمة على رغبة الآخرين؛ كلّفها الأمر مجهوداً مؤلماً للغاية لتدخل صراعا مع هذه الرغبات، أن تحاول أن تثنيها لطاعتها؛ كانت أفعالها معاقة من قبل ترددات كثيرة، عندما تكون شؤونها معنية بالموضوع، كانت إرادتها قوية وغير خجولة، وتستطيع أن تخضع ميولها لها في أي وقت، إذا كان ذلك الميول معارضا لقناعاتها عن

الصواب؛ ومع ذلك عندما تنادى للصراع مع نزعاتها، العادات، أخطاء الآخرين، و الأطفال بشكل خاص، الأصم عن الصواب والمنطق، للجزء الأهم، ولا يمكن إقناعهم، رفضت إرادتها في بعض الأوقات أن تتصرف؛ ثم أتى الإحساس بالواجب، وأجبرت الإرادة المكرهة على العمل. كانت النتيجة المتكررة إنفاقاً مسرفاً للطاقة؛ كدحت فرانسيس مع طالباتها ومن أجلهن كالعاملة الكادحة. ولكن منذ فترة طويلة كانت محاولاتها مجازاة بأي شيء كالطاعة من طرفهن، لأنهن رأين أنه لديهن السلطة عليها، نظراً لأنه بمقاومة محاولاتها المؤلمة لتقنع، تحثَّ، و أن تتحكم -بإجبارها على اتخاذ قرارات قسرية- يمكنهن أن يسببن لها المعاناة. البشر -البشر الأطفال بشكل خاص- نادراً ما يحرمون أنفسهم من متعة استعمال قوة يدركون أنها ملكهم، حتى لو كانت هذه القوة تتمثل في جعل الآخرين بائسين؛ الطالب الذي تكون مشاعره متلبدة أكثر من معلمه،في حين أعصابه أصلب وقوته الجسدية أكبر، لديه اليد العليا أمام معلمه، وسيستخدمها تدريجياً بلا شفقة، لأن الشباب الأصحاء الطائشين، لا يعرفون كيف يشفقون ولا كيف يسامحون. عانت فرانسيس على ما أظن من ذلك؛ بدا أن هنالك ثقلاً مستمراً أخمد روحها؛ قلت إنها لم تعش في المنزل، وإذا ما كانت في مسكنها الخاص، أينما يمكن أن يكون، كان لديها ذلك الجو القلق الحزين، المصمم الذي طالما ظلل ملامحها تحت سقف الآنسة رويتر، لا يمكنني أن أعرف.

يوما ما أعطيت، كواجب، الطُرفة التافهة لألفريد بائع الكعك في كوخ الراعي، لتُروى بإسهاب. صنعت منها الطالبات قضية فردية؛ كان الإيجاز هو الذي درسوه؛ كانت أغلبية القصص غامضة؛ روايات سيلفي وليوني ليدروا تصنعا لأي شيء كالإحساس والرابطة. استخدمت يولالي، بالطبع وسيلة ذكية لتأكيد الدقة وتجنب مشكلة بنفس الوقت؛ تمكنت من

الوصول إلى مصدر مختصر عن تاريخ إنجلترا، ونسخت الطرفة منها. كتبت على هامش كتابتها «غبي ومخادع» ومن ثم مزقتها نصفين.

آخر كومة الواجبات، عثرت على واحدة متكونة من مجموعة أوراق مكتوبة بخط مرتب ومعقودة معاً؛ عرفت الخط، ولم أحتج إلى التوقيع كدليل «فرانسيس إفانز هنري» ليؤكد لي هوية الكاتبة.

كان الليلُ وقتي المعتادَ لتصليح الواجبات، وغرفتي الخاصة موقعي المعتاد لأداء هذه المهمة - مهمة متعبة جداً حتى هذه الآن؛ وبدا لي غريبا أن ينمو بداخلي شعور أولي بالاهتمام، عندما جهزت الشمعة وتوجهت للاضطلاع على نص الأستاذ المسكين.

فكرت «والآن، سأرى لمحة مما هي عليه في الحقيقة؛ سأحصل على فكرة عن طبيعة ومدى قوتها، ليس أنه من المتوقع أن تعبر عن نفسها بلغة أجنبية، ولكن مع ذلك، إن كان لديها فكر، سأجد هنا انعكاسه.»

بدأت القصة بوصف كوخ فلّاح من ساكسون، يقع ضمن حدود غابة شتوية عظيمة، أشجارها خالية من الورق، كانت في أحد مساءات كانون الأول؛ كانت ندفة من الثلج تتساقط، وتنبأ الراعي بعاصفة شديدة؛ استدعى زوجته لتساعده في جمع قطيعهم، الذي كان يحوم بعيدا عند ضفاف نهر الثون الرعوية، يخطر لها بأنهما سيعودان متأخرين. ترددت المرأة في ترك عملها في خبز الكعك لوجبة المساء، ولكن اعترافاً بأهمية الاهتمام بالقطيع في المقام الأول، ترتدي معطفها المصنوع من جلد الغنم، ومخاطبةً غريباً مضطجعاً على سرير من القصب قرب الموقد، تخبره أن ينتبه إلى الخبز حتى تعود.

وتتابع «اعتن بنفسك أيها الشاب، وأغلق الباب جيدا بعد خروجنا، وإياك أن تفتح لأي أحد خلال غيابنا، لا تتحرك، أيا كان الصوت الذي

تسمعه، ولا تنظر للخارج. سيحل المساء عما قريب؛ هذه الغابة شرسة ومعزولة. في العادة تسمع بعض الأصوات الغريبة بعد الغروب، تتردد الذئاب على هذه الغابة، ويغزو المحاربون الدنمركيون البلد؛ هناك حديث عن أشياء أسوأ، قد تصادف بكاء طفل، وعند فتحك الباب لتقوم بنجدته، قد يندفع ثور أسود أو كلب عفريت عبر العتبة؛ أو، أفظع من ذلك، إذا رفرف شيء، كحمامة طارت إلى الداخل واستقرت على المدفأة، سيكون زائر كهذا علامةَ سوء حظ للمنزل؛ لذلك، اهتم بنصيحتي، ولا ترفع المزلاج لأي سبب.»

يناديها زوجها ويرحلان معاً. يستمع الغريب، بعدما تُرك وحده، لفترة لصوت الرياح الثلجية، صوت النهر البعيد، وثم يتحدث.

«إنها عشية عيد الميلاد، علّمت العنوان؛ أجلس هنا على سرير من القصب الخشن، ثاويا تحت سقف كوخ راعي؛ أنا، الذي كان ميراثي مملكة كاملة، أدين بمأواي إلى عبد فقير؛ تم اغتصاب عرشي، تاجي على رأس مجتاح؛ ليس لدي أصدقاء؛ تتجول قوّاتي في تلال ويلز؛ يفسد السارقون المتهورون دولتي سقط أتباعي، صدورهم محطمة بكعب حذاء دنمركي متوحش. القدر! لقد قمت بأسوأ ما تستطيع، والآن أنت تقف أمامي ويدك على سيفك الكَليم. نعم، أرى عينك تواجه عيني و تسألني لماذا لا أزال على قيد الحياة، لماذا لا يزال لديّ أمل. الشيطان الوثني، لست أضع حساباً لقوّتك، ولذلك لا أخضع لها. إلهي، الذي ابنه، كما في هذه الليلة، اتخذ شكل الشكل الإنساني ، وأعطى الإنسان المعاناة والنّزْف، يتحكم بيدك، وبدون وَصِيَّتِه لا تستطيع أن تسدد أي ضربة. إلهي منزه عن الخطيئة، سرمدي، وحكيم -ثقتي به؛ وبالرغم من أنه عُرّي وحطّم من قبلك- بالرغم من أنه عارٍ، بائس، بلا ملجأ - أنا لا أيأس، لا يمكن أن أيأس:

حتى لو أن رمح غوثروم الآن رطب بدمي، يجب ألا أيأس. أشاهد، أكدح، آمل، أصلي؛ سيساعد يهوه في الوقت المناسب.»

لست بحاجة لأن أكمل الاقتباس؛ كان كل الواجب بنفس الأسلوب. كان هناك أخطاء إملائية، كان هناك مصطلحات أجنبية، كان هناك أخطاء في بناء الجملة، كان هناك أفعال شاذة تم تحويلها إلى أفعال منتظمة؛ كان أغلبها يتكون، كما يظهر من المثال السابق، من جمل قصيرة، وكان الأسلوب بحاجة كبيرة إلى الصقل و الهيبة؛ ومع ذلك، بهيئته هذه، فانا لم أرَ مثيلا له خلال خبرتي في التدريس. استوعب عقل هذه الفتاة صورة الكوخ، والراعيين، والملك الفاقد تاجه، تخيلت الغابة الممطرة، استرجعت أساطير الأشباح السكسونية القديمة، لقد قدرت شجاعة ألفريد تحت وطأة الكارثة، تذكّرتْ تعاليمه المسيحية، و أَرَتهُ، بالثقة الراسخة لتلك الأيام الساذجة، الاعتماد على يهوده الإنجيلي للمساعدة ضد القدر الميثولوجي. قامت بكل هذا بدون تلميح مني؛ لقد أعطيت الموضوع، ولكني لم أنطق بكلمة عن كيفية تناوله.

«سأعثر أو أصنع لنفسي فرصة للتحدث معها» قلت لنفسي وأنا أعيد لفّ الواجب؛ «سأعرف ما الذي فيها إنجليزي غير اسمها فرانسيس إفانز؛ من الواضح أنها ليست مبتدئة في اللغة، مع ذلك قالت لي أنها لم تكن من قبل في إنجلترا، ولا أخذت دروساً في الإنجليزية، ولا عاشت مع عائلة إنجليزية.»

خلال درسي التالي، قدمت تقريراً عن الواجبات الأخرى، موزّعاً المديح والذم في طرود مفرقة، حسب عادتي، لأنه لا يوجد فائدة من الذمّ بقسوة، ونادراً ما يمنح المديح السامي. لم أقل شيئاً عن تمرين الآنسة هنري،

ومع النظارة على الأنف، حاولت أن أفك شيفرة مشاعرها تجاه هذا التجاهل في محياها. أردت أن أعرف ما إذا كان عندها وعي بمواهبها. فكرت «لو تعتقد أنها قد أدت عملا جيدا بتأليفها لذلك الواجب، ستبدو الآن مهانة» كان وجهها متزناً كالعادة، كئيبا على ما اعتقد، كان وجهها مثبتاً على الكتاب المفتوح أمامها. ظننت أن في سلوكها شيئاً من التوقع عندما أنهيت نقدي لآخر واجب، وعندما- واضعا إياها وفاركاً يديّ - أمرتهن أن يخرجن كتاب القواعد، مرّ تغيّر طفيف على ملامحها كما لو تنازلت عن إمكانية طفيفة لإثارة ممتعة؛ كانت في انتظار شيء لديها اهتمام فيه لمناقشته؛ لا يبدو أن النقاش سيأتي، لذلك غرق التوقع، منكمشاً وحزيناً، ولكن أصلح الاهتمام، الذي ملأ الفراغ، لحظة الانهيار العابرة لملامحها؛ لم أزل أشعر، أكثر من أن أبح، خلال الدرس، أن الأمل قد سُحب منها، وأنها إن لم تظهر الحزن، فذلك لأنها لا تريد ذلك.

عندما دق الجرس في الساعة الرابعة، وعمّت الجلبة الغرفة، بدلاً من أن آخذ قبعتي وأغادر المنصة، جلستُ بلا حراك لثانية. نظرت لفرانسيس التي كانت تضع كتبها في الحقيبة، رفعت رأسها بعد أن أحكمت إغلاق الحقيبة؛ مواجهة عيني، قدمت انحناءة احترام، لتودعني، واستدارت لتغادر.

«قلت لها رافعا إصبعي بنفس الوقت: «تعالي إلى هنا». ترددت؛ لم تتمكن من سماع الكلمات وسط الجلبة التي اجتاحت الصفين؛ كررت الإشارة؛ اقتربتْ؛ توقفت مجددا على بعد نصف ياردة من المنصة، وبدت خجلة، ومتشككة مما إذا أخطأت فهمي.

«تقدمي،» تحدثت إليها بحسم. هذه الطريقة الوحيدة للتعامل مع شخصية خجولة وسهلة الإحراج، ومع بعض المساعدة اليدوية جعلتها تقف

في المكان الذي أردته، وهو، بين مكتبي والنافذة، حيث كانت مشاهَدة من قبل الطالبات القسم الثاني، وحيث لا يمكن لأحد أن يتسلل خلفها ليستمع.

«اجلسي» قلت لها، واضعاً لها كرسياً، وجعلتها تجلس. كنت أعلم أن الذي كنت أفعله قد يعتبر غريبا جداً، وفوق ذلك، لم أهتم. كانت فرانسيس تعلم ذلك أيضاً، وأخشى، من مظهر اهتياجها وارتعاشها، أنها كانت مهتمة كثيراً. سحبت من جيبي واجبها.

«هذا لك، على ما أعتقد؟» قلت، مخاطبا إياها بالإنجليزية، لأني الآن متأكد من أنها تتحدث الإنجليزية.

أجابت بوضوح، «نعم» وعندما فتحتها وبسطتها على المكتب أمامها ويداي عليها، وقلم في يدي، رأيتها وقد تأثرت، وكما بدت مهتاجة ؛ انقشع اكتئابها كما غيمة تخترق الشمس خلفها.

«لدى هذا الواجب الكثير من الأخطاء، سيتطلب الأمر بعض السنين من التمرين لتتمكني من كتابة بالإنجليزية بشكل صحيح تماماً. أصغي: سوف أشير إلى بعض الأخطاء الأساسية.» وقرأتها بعناية، مشيراً إلى كل خطأ، وموضحا لماذا هي أخطاء، و كيف كان يجب أن تكتب هذه الجُمَل. خلال هذه العملية هدأت أعصابها. وتابعتُ:

«بالنسبة إلى مادة واجبك، يا آنسة هنري، فقد أذهلني؛ قرأتها بمتعة، لأني رأيت فيه دلائل على الذوق والجمالية. إن الذوق والجمال ليسا أفضل نِعَم العقل البشري، ولكنك تمتلكينهما - ليس محتملا بدرجة عالية، ولكن بدرجة أعلى مما قد يزعم البقية. تستطيعين أن تتشجعي، احصدي المَلَكَات التي منحك إياها الرب، ولا تخافي في أي أزمة من المعاناة، تحت ضغط أي ظلم، أن تستمدي السلوى من وعيك بقوتهما وندرتهما.»

«القوة والندرة!» كررت في نفس؛ «أجل، ربما هاتان الكلمتان صحيحتان،» لأني عندما رفعت نظري، رأيت أن الشمس قد مزقت الغيمة، رأيت أن محياها تغير، سطعت بسمة في عينيها - بسمة تقريبا منتصرة، بدا عليها أنها تقول: « أنا فرحة لأنك كنت مجبراً على اكتشاف الكثير من طبيعتي؛ لا تحتاج لأن تلطف لغتك. هل تظن أني غريبة عن نفسي؟ إن الذي تخبرني به بمصطلحات لائقة، عرفتها كلها من طفل.»

لقد قالت ذلك بصراحة نظرة خاطفة، ولكن خمد وهج بشرتها، وإشعاع مظهرها؛ وإن كانت واعية بمواهبها، فإن لديها وعياً لعيوبها المزعجة، وتذكّر العيوب الممحية للحظة، التي عادت للحياة الآن بقوة مفاجئة، قمعت دفعة واحدة الصفتين الواضحتين بها اللتين يُعَبّر من خلالهما عن قوتها. كان الشعور بالاشمئزاز سريعاً، لم يتح لي الوقت للتأكد من انتصارها عبر دليل؛ قبل أن أستطيع أن أقطب حاجبي في عبوس أصبحت جادة وحزينة.

«شكراً، يا سيدي،» قالت وهي تنهض. كان هناك امتنان في كل من صوتها والنظرة التي أرفقتها إياها. لقد حان وقت نهاية حديثنا؛ لأني عندما نظرت حولي، رأيت أن كل الطالبات (جميع الطالبات الخارجيات قد غادرن) كن مجتمعات على بعد ياردة أو اثنتين من مكتبي، ووقفن يتفرجن بأعين و أفواه مفتوحة؛ شكلت المعلمات الثلاث نقطة تهامس في أحد الزوايا، وقريبا من مرفقي، كانت المديرة، جالسة في كرسي منخفض، تقص شرابات المحفظة التي أنهتها بهدوء.

* * *

17

بعد كل هذا استفدت ولكن ليس بشكل ممتاز من فرصة التحدث مع الآنسة هنري التي حاولت أن أحصل عليها؛ كان هدفي أن أسألها كيف حصلت على اسمين إنجليزيين معمدين، فرانسيس وإيفانز، بالإضافة إلى اسم عائلتها الفرنسي، وأيضا من أين حصلت على لهجتها الجيدة. لقد نسيت كلا النقطتين، أو بالأحرى، كان حديثنا مختصرا جدا لدرجة أنه لم تتح لي فرصة طرحهما؛ فوق ذلك، لم أختبر حتى مدى براعتها في تحدث اللغة الإنجليزية؛ كل ما استطعت استخلاصه منها في اللغة كانت الكلمات «نعم» و«شكرا سيدي.» فكرت مليا «لا مشكلة، ما ترك دون أن يكتمل اليوم، سيكتمل في يوم آخر.» ولم أفشل في الحفاظ على الوعد الذي قطعته لنفسي. كان من الصعب حتى الحصول على حديث مع أي طالبة ضمن العديد منهن؛ ولكن حسب المثل القديم، «حيث هنالك إرادة، هناك طريق»؛ ومجددا تمكنت من العثور على فرصة للتحدث مع الآنسة هنري، بغض النظر عن نظرات الحسد أو همسات الانتقاص التي تنشأ كلما اقتربت منها.

«كتابك للحظة.» كانت هذه الوسيلة التي بدأت فيها هذه الأحاديث المقتضبة؛ كان الوقت دائما عند نهاية الدرس؛ ومؤشراً إليها لتقف، جلست

في مكانها، سامحا لها بالوقوف بشكل محترم بجانبي؛ لأني رأيت أنه من الصحيح والحكيم أن أطبق بصرامة كل الأعراف المطبقة بين المعلم والطالب؛ إلى حد ما لأني فهمت أن سلوكي ازداد صرامة و وقاراً شيئا فشيئا، أصبح سلوكها سهلا ومتزناً، تناقض غريب بلا شك، للتأثير العادي في مسائل كهذه ولكن هذا ما حصل.

«قلم،» قلت لها، ماداً يدي دون أن انظر إليها. (أنا الآن على وشك أن أقدم تقريرا مختصراً عن أول تلك الحوارات) ناولتني واحداً، وبينما أشرتُ تحت بعض الأخطاء في تمرين القواعد الذي كتبته، لاحظت «أنت لست بلجيكية أصلية؟

«لا»

«ولا من فرنسا؟»

«لا»

«أين، أذن، مسقط رأسك؟»

«ولدت في جينيف.»

«أنت لا تعتبرين فرانسيس وإفانز أسماء سويسرية، على ما أعتقد؟»

«لا، يا سيدي؛ إنها أسماء إنجليزية.»

«فقط كذلك؛ وهل هي عادة أهل جينيف أن يسموا أولادهم بألقاب إنجليزية؟

«لا يا سيدي، والد-»

«تحدثي الإنجليزية.»

«والد»

«بالإنجليزية»

«لكن» (ببطء وبإحراج) «لم يكونا كل الاثنين والداي من جينيف.»

«استخدمي كلاهما بدلا من كل الاثنين، يا آنسة.»

«لم يكن كلاهما فرنسي، أمي كانت انجليزية.»

«آه! ومن أصل إنجليزي؟»

«أجل - كان كل أسلافها إنجليز.»

«و والدك؟»

«كان سويسرياً.»

«ماذا أيضاً؟ ماذا كانت مهنته؟»

«كاهن -فلاح- كان لديه كنيسة.»

بما أن أمك إنجليزية، لم لا تتحدثين الإنجليزية بسهولة أكبر؟»

«لقد توفيت أمي منذ عشر سنوات.» قالت بالفرنسية.

«وأنت تحترمين ذكراها بنسيانك لغتها. فلتضعي الفرنسية خارج عقلك خلال حديثك معي - فلتلتزمي بالإنجليزية.»

«هذا صعب يا سيدي، لم يكن الأمر أكثر من عادة» قالت بالفرنسية.

«لديك العادة من قبل، على ما أعتقد؟ والآن، أجيبيني بلغتك الأم.»

«حاضر، يا سيدي، تحدثت الإنجليزية أكثر من الفرنسية عندما كنت صغيرة.»

«لم لا تتحدثينها الآن؟»

«لأنه ليس لدي صديقات إنجليزيات.»

«أفترض أنك تعيشين مع والدك؟»

«أبي متوفى.»

«ألديك أخوة أو أخوات؟»

«لا يوجد.»

«هل تعيشين وحدك؟»

«لا، لدي عمة-عمتي جوليان.»

«أخت أبيك؟»

« justement, monsier»

«هل هذا إنجليزي؟»

«لا -لكنني نسيت-»

«لو كنتِ يا آنسة طفلة صغيرة لكنت بكل تأكيد عاقبتك؛ بسنك - لا بد أن تكوني في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين، على ما أظن؟»

«في غضون شهر سأصبح في التاسعة عشرة.»

«حسن، إن التاسعة عشرة عمر ناضج، وكونك بلغتيه، يجب أن تكوني مهتمة بتطورك، وأنه لا حاجة لمعلم ليذكرك مرتين لمنفعة التحدث بالإنجليزية كلما سنحت الفرصة لممارستها.»

«لم أتلق جوابا لهذا الكلام الحكيم، وعندما رفعت نظري، كانت طالبتي تبتسم لنفسها ابتسامة مفعمة بالمعاني على الرغم من أنها ليست

فرحة جداً؛ بدت أنها تقول: «إنه يتكلم عما لا يعرف.» قالت هذا بكل وضوح، حتى إنني قررت أن أطلب معلومات أكثر عن النقطة التي أُثبت جهلي بها.

«هل أنت مهتمة و واعية بتطورك؟»

«إلى حد ما.»

«كيف تثبتين ذلك، يا آنسة؟»

سؤال غريب، ومطروح بعنف؛ أثار ابتسامة ثانية.

«لا يا سيدي، أنا لست غافلة - أليس كذلك؟ فأنا أتعلم دروسي جيداً-»

«أوه! أي طفل يمكنه القيام بذلك! ماذا تفعلين أيضاً؟»

«ماذا أستطيع أن افعل أكثر من ذلك؟»

«أوه، ليس الكثير، بالطبع؛ ولكنك معلمة، أليس كذلك، كما أنك طالبة؟»

«أجل»

«أنت تعلمين الخياطة؟»

«أجل.»

«مهنة غبية وبليدة؛ هل تحبينها؟»

«لا، فهي مملة.»

«لم تقومين بها؟ لم لا تُعَلمين التاريخ أو الجغرافيا أو القواعد أو حتى الحساب؟»

«هل أنت متأكد يا سيدي من أنني مُلمة بهذه الدراسات؟»

«لا أعلم؛ يجب أن تكوني في مثل هذا السن.»

«ولكني لم أكن في مدرسة من قبل، يا سيدي-»

«حقاً! ماذا كان أصدقاؤك إذن-ماذا كانت عمتك؟ إن اللوم يقع عليها.»

«لا يا سيدي، كلا إن -عمتي جيدة- إن اللوم لا يقع عليها - إنها تقوم بواجبها؛ فهي تغذيني وتؤويني.» (أنا أورد جمل الآنسة هنري حرفياً هكذا ترجمت من الفرنسية) «هي ليست غنية؛ لديها دخل سنوي يقارب الألف ومئتي فرنك. ومن المستحيل أن تتمكن من إرسالي للمدرسة.»

«إلى حد ما،» فرت في نفسي عند سماعي هذا، ولكني تابعت، بنفس اللهجة الجازمة التي تبنيتها.

«إنه لمن المحزن أن تتم تربيتك بجهل في كل فروع التعليم الأساسية؛ لو كنت تعلمين شيئا عن التاريخ أو القواعد، لكنت هجرت عمل تعليم الخياطة، وصعدت في العالم.»

«هذا ما أرغب في القيام به.»

«كيف؟ بمعرفة الإنجليزية وحدها؟ لن يكون هذا كافياً؛ لن تستقبل أي عائلة محترمة مربية يتكون كل علمها من معرفتها بلغة أجنبية واحدة.»

«أعرف أمورا أخرى يا سيدي.»

«أجل اجل، تستطيعين العمل مع صوف برلين، وتطريز المناديل والياقات - هذا سيفيدك قليلاً.»

فتحت الآنسة هنري شفتيها لتجيب، ولكنها راجعت نفسها، ظانةً أن الحديث لاحق، وآثرت السكوت.

تابعت بنفاد صبر «تحدثي، أكره مظهر الخضوع عندما لا توجد الحقيقة هنا؛ وكان لديك تناقض على طرف لسانك.»

«يا سيدي، حصلت على دروس كثيرة في القواعد، التاريخ، الجغرافيا، والحساب. أخذت مادة في كل علم.»

«مرحى! ولكن كيف قمت بذلك، بما أن عمتك لم تتمكن من إرسالك إلى المدرسة؟»

«بالخياطة؛ عبر الشيء الذي تكرر يا سيدي.»

«حقاً! والآن، يا آنسة، سيكون تمرينا جيدا لكِ أن تشرحي لي بالإنجليزية كيفية وصولك إلى هذه النتيجة بهذه الوسيلة.»

«يا سيدي، رجوت عمتي أن تدعني أتعلم الحياكة فور وصولي إلى بروكسل، لأني علمت أنها كانت مهنة، صنعة سهلة التعلم، وأستطيع عبرها أن أكسب بعض المال. تعلمتها في بضعة أيام، وحصلت على عمل بسرعة، لأن كل سيدات بروكسل لديهن شرائط قديمة -وغالية- يجب أن يتم إصلاحها بعد كل غسلة. كسبت بعض المال، وهذا المال الذي حصلته من الدروس التي ذكرتها؛ صرفت بعضا منها في شراء الكتب، بخاصة الكتب الإنجليزية؛ وقريباً سأجد مكاناً لأعمل كمربية، أو معلمة مدرسة، عندما أستطيع أن أقرأ و أكتب الإنجليزية جيداً؛ ولكن ذلك سيكون صعباً، لأن أولئك الذين يعلمون أنى كنت خياطة سيحتقرونني، كما يحتقرنني الطالبات هنا. وبعد ذلك، لدي مشروعي.» أضافت بصوت منخفض.

«ما هو؟»

«سأذهب للعيش في إنجلترا؛ سأعلم الفرنسية هناك.»

لُفظت الكلمات بتشديد. قالت إنجلترا كما يقول فرد من إسرائيل موسى كنعان.

«هل ترغبين برؤية إنجلترا؟»

«أجل، ولدي العزيمة أيضاً.»

وهنا قاطعنا صوت، صوت المديرة:

«أعتقد أنها سوف تمطر، عليك العودة إلى المنزل بسرعة.»

بصمت، وبلا كلمة شكر لهذا التنبيه الرسمي، جمعت الآنسة هنري كتبها؛ انحنت لي احتراما، وحاولت الانحناء لرئيستها، بالرغم من أن المحاولة فاشلة، لأن رأسها بدا كما لو أنه لا يريد الانحناء، وهكذا غادرت.

حيث هناك بذرة مواظبة وعناد في التعبير،من المعروف أن العقبات التافهة تحفز بدلاً من أن تحبط. قد توفر الآنسة رويتر على نفسها مشقة إعطاء إنذارها عن الوقت (بالمناسبة، أثبت خطأ توقعها حيث أنها لم تمطر ذلك المساء). في نهاية الدرس التالي كنت مجددا عند مقعد الآنسة هنري. لذلك بادرتها بالكلام: «ما هي فكرتك عن إنجلترا، يا آنسة؟ لمَ ترغبين بالذهاب إليها؟»

معتادة في هذا الوقت على المباغتة المحسوبة لسلوكي، لم تعد تفاجئها، وأجابت بالتردد المحتوم بالصعوبة التي تجدها في ارتجال ترجمة أفكارها من الفرنسية للإنجليزية.

«إن إنجلترا فريدة من نوعها، كما قرأت وسمعت عنها؛ فكرتي عنها مبهمة، أريد الذهاب إلى هناك لأجعل فكرتي عنها واضحة، ومحددة.»

«ممم! كم تظنين أنك سترين من إنجلترا إذا ذهبت هناك كمعلمة؟ لا بد أن لديك فكرة غريبة عن حصولك على فكرة واضحة ومحددة عن بلد! كل ما يمكنك رؤيته من بريطانيا العظمى قد يكون داخل المدرسة فقط، أو على الأغلب منزل أو اثنين.»

«ستكون مدرسة إنجليزية؛ وستكون منازل إنجليزية.»

«بكل تأكيد؛ ولكن ماذا إذن؟ ما قيمة مراقبة مبنية على مقياس ضيق؟»

يا سيدي، ألا يستطيع الإنسان تعلم شيء عن طريق المقارنة؟ echantillon -غالبا ما تعطي عينة فكرة عن الكل؛ بجانب ذلك، ضيق وواسع كلمتان مقارنتان، أليس كذلك؟ قد تبدو حياتي كلها ضيقة بعينيك - كل حياة ذلك الحيوان الصغير التحت أرضي -ذلك الخُلْد- ماذا تقول؟»

«خلْد.»

«أجل - خلد، الذي يعيش تحت الأرض قد يبدو ضيقا حتى بالنسبة إليّ.»

«حسن، يا آنسة، ماذا بعد؟ تابعي.»

«لكن يا سيدي أنت تفهم.»

«لست أفهم شيئاً؛ اشرحي لي.»

«يا سيدي، إن الأمر كذلك. قمت بالقليل في سويسرا، تعلمت قليلاً، ورأيت القليل؛ كانت حياتي هناك ضمن دائرة مغلقة، سرت بنفس

الجولة كل يوم؛ لم أتمكن من الخروج منها؛ لو أنني ارتحت وبقيت هناك حتى مماتي، لما استطعت أن أكبّرها مطلقاً، لأني فقيرة ولست ماهرة، ليس لدي مكاسب عظيمة؛ عندما أصبحت متعبة هذه الحلقةُ، رجوت عمتي أن نذهب إلى بروكسل؛ وجودي هنا لا يكبر، لأني لست غنية ولا اسما؛ أمشي ضمن حدود ضيقة، ولكن المشهد تغير؛ قد يتغير أيضاً لو ذهبت إلى إنجلترا. عرفت شيئا عن برجوازية جينيف، و الآن أعرف شيئا عن برجوازية بروكسل؛ لو ذهبت إلى لندن، قد أعرف شيئا عن برجوازية لندن. هل تستطيع أن تشكل معناً مما أقوله، يا سيدي، أم أن كل شيء غامض؟»

«فهمت، فهمت - والآن دعينا نشير إلى موضوع آخر؛ أنت تقترحين أن تكرسي حياتك للتدريس، وأنت أكثر معلمة فاشلة؛ لا تستطيعين ضبط طلابك.»

كانت نتيجة هذه الملاحظة القاسية تدفق من الارتباك المؤلم؛ أمالت برأسها إلى المقعد، لكنها سرعان ما رفعته وقالت:

«يا سيدي، لست معلمة ماهرة، وهذا صحيح، ولكن التدريب حسن؛ بجانب ذلك، أستطيع العمل تحت ضغط الصعوبات؛ هنا، أنا أعلم فقط الحياكة، لا يوجد استعلاء - إنه فن تابعي؛ ومن ثم ليس لدي زملاء في المنزل، أنا معزولة؛ أنا مهرطقه، وهذا ما يحرمني من القدرة على التأثير.»

«وفي إنجلترا ستكونين أجنبية؛ هذا أيضا سيحرمك القدرة على التأثير، وسيعزلك عن كل الذي حولك؛ سيكون لديك في إنجلترا علاقات قليلة وأهمية قليلة كالتي لديك هنا.»

«ولكن لا بد من أن أتعلم شيئاً؛ بالنسبة للبقية، هناك صعوبات للواتي مثلي في كل مكان، وإن كان يجب عليّ أن أناضل، ربما: أن أقهر،

أفضل أن أذعن للتكبر الإنجليزي بدلا من الفظاظة الفلمنكية؛ بجانب ذلك، يا سيد-»

توقفت - من الواضح أنه ليس بسبب صعوبة العثور على كلمات لتعبر عن نفسها، ولكن لأن الحذر يقول «لقد قلتِ ما فيه الكفاية.»

حثثتها: «أكملي جملتك»

«بجانب ذلك، يا سيدي، أتوق لأن أعيش مجددا بين البروتستانت؛ إنهم أكثر صدقا من الكاثوليك؛ المدرسة الكاثوليكية هي عبارة عن مبنى بجدران مسامية، أرض مليئة بالحفر، سقف فاسد؛ لدى كل غرفة في هذا المنزل، يا سيدي، محاجر عيون وثقوب للأذن، والبيت ما هو إلا ما يكون قاطنوه غدارين للغاية. الجميع يظنون أنه من القانوني سرد الأكاذيب؛ كلهم يحسبونه من الأدب أن يعترفوا بالصداقة حيث يشعرون بالكره.»

«الجميع؟» قلت لها، «تعنين الطالبات - الطالبات قليلات الخبرة والطائشات، اللواتي لم يتعلمن التفريق بين الصواب والخطأ؟»

«على العكس يا سيدي، الطالبات هن أكثرهن صدقاً؛ لم يتح لهن الوقت ليكن بارعات في الخداع و الازدواجية؛ إنهن يكذبن، ولكنهن يقمن بذلك بطريقة غير مصطنعة، وأنت تعلم أنهن يكذبن؛ ولكنّ الناس الناضجين مزيفون للغاية؛ إنهن يخدعن الغرباء، ويخدعن أنفسهن-»

هنا دخلت خادمة.

«آنسة هنري - الآنسة رويتر تطلب منك أن توصلي الصغيرة، لأنها تنتظر مع روزالي البوابة لأن خادمتها لم تأتِ بعد.»

«وهل هذا يعني أنني الخادمة؟» طالبت الآنسة هنري؛ ومن ثم مبتسمة بتلك الابتسامة المرّة، الساخرة التي رأيتها على شفتيها من قبل، نهضت على عجل وغادرت.

* * *

18

من الواضح أن الشابة الأنجلو-سويسرية قد استخلصت الفائدة والسعادة من دراستها للغتها الأم. لم أقيد نفسي خلال تدريسها بروتين المدرسة العادي؛ جعلت تعليم اللغة قناة لتعليم الأدب. وصفت لها دورة في القراءة؛ كان لديها مختارات قليلة من الأدب الإنجليزي الكلاسيكي، قليل منها تمَّ تركها لها عن طريق أمها، واشترت هي البقية بمالها القليل. أعرتها بعض الكتب الحديثة؛ قرأتها كلها بشراهة، وكانت تعطيني ملخصاً عن كل كتاب تنتهي منه. وفرحت بالتأليف. بدت هذه المهمة كالنفَس بالنسبة لها، وقريباً، انتزعت مني إنتاجاتها اعترافاً أن خصائلها التي وصفتها بالذوق والفخر سمَتْ على الحكم والخيال. أعلنت الكثير، هذا ما كنت أقوم به بجمل جافة وملونة، بحثت عن البسمة المشعة والمبتهجة التي أثارتها كلمة مديح مني من قبل؛ ولكن فرانسيس توردت. لو ابتسمت، لفعلت ذلك بنعومة وخجل؛ وبدلا من أن تنظر إليّ بنظرة انتصار، استقرت عيناها على يدي، التي امتدت على كتفها، كانت تكتب توجيهات بقلم رصاص على هامش الكتاب.

«حسن، هل أنتِ سعيدة لأنني راض عن تقدمك؟»

«أجل» قالت ببطء، ولطف، وعاد التورد الذي خفَّ مرة أخرى.

«ولكني لا أقول ما هو كاف، على ما أعتقد؟» تابعت. «إن مديحي بارد جداً؟»

لم تجبني، وظننت أنها بدت رزينة بعض الشيء. تنبأت بأفكارها، و وددت لو أني أرد عليها، لو أنه كان من الملائم فعل ذلك. لم تكن لأنها طموحة بإعجابي -ليست لديها رغبة شديدة بإذهالي؛ قليل من العاطفة- القليل القليل - يسعدها أكثر من كل المديح الموجود في العالم. شاعراً بهذا، وقفت فترة جيدة خلفها، أكتب على هامش كتابها. بالكاد أستطيع أن أترك وقفتي أو أن أتنازل عن مهمتي؛ شيء ما استبقاني منحنياً، رأسي قريب جداً من رأسها، ويدي قريبة من يدها، أيضاً؛ ولكن هامش كتاب ليس فضاءً واسعاً بلا حدود -لذا بلا شك، فكرت المديرة؛ وانتهزت الفرصة لتمرَّ وتتأكد بأي وسيلة هل أطلت من الفترة الضرورية لأملأ الهامش به. كنت مجبرا على الرحيل. محاولة كريهة- أن نترك أكثر ما نفضله!

لم تصبح فرانسيس ضعيفة أو شاحبة بعد وظيفتها التي تؤديها وهي جالسة؛ ربما وازن الحافز الذي أوصلته لعقلها الخمود الذي فرضته على جسدها. من الواضح أنها تغيرت بسرعة وبوضوح؛ ولكن إلى الأفضل. عندما رأيتها للمرة الأولى، كان وجهها قاتماً، وبشرتها عديمة اللون؛ بدت كما لو أنه ليس لديها أي مصدر متعة، ولا أي مخزون سعادة في أي مكان في العالم؛ والآن انقشعت الغيمة عن ملامحها، تاركة مجالا لفجر الأمل والخير، ونَمت هذه المشاعر كالصباح الصافي، نافخة الحياة في كل ما كان كاسداً، ملونة ما كان شاحباً. عيناها، التي لم أعرف لونها في البداية، كانتا معتمتين بدموع مكتومة، ومظلمة باكتئاب متواصل، الآن، منارة بأشعة الشمس التي

أفرحت قلبها، كشفت عن حدقة بندقية اللون - حدقات كبيرة وممتلئة، مغطاة برموش طويلة؛ وبؤبؤ مستعر بالنار. نظرة الهزال السقيم مع القلق والمعنويات المنخفضة، التي غالباً ما تُبلغ عن وجه نحيف وكثير التفكير، طويل بدلا من مستدير، اختفت من وجهها. نصاعة الجلد لدرجة الازدهار، وبدانة تقريبا ، زيادة وزن، ليَّنتْ خطوط ملامحها. شارك جسدها في التغير المفيد؛ أصبح أكثر استدارة، وعندما أصبح تجانس هيئتها كاملاً وقامتها متوسطة الارتفاع، لا يندم الإنسان (أو على الأقل أنا لم أندم) غياب الامتلاء، خيوط امتلائها، بالرغم من أنها هزيلة إلا أنها مرنة - أرضت تدويرة الخصر، الرسغ، اليد، القدم، والكاحل الجميلة بشكل كامل فكرتي عن التناسق، وسمحت بخفة وحرية الحركة و التي لاءمت فكرتي عن الكياسة.

بتحسنها كذلك، ووعيها على الحياة، بدأت الآنسة هنري باتخاذ منزلة جديدة في المدرسة؛ انتزعت قوتها العقلية، التي تظهر تدريجيا لكن بثبات، الاعتراف حتى من الحاسدات؛ وعندما رأت الصبايا اليافعات أنها تستطيع أن تبتسم بتألق، وتتحدث بفرح، أن تتحرك بحيوية وحذر، اعترفن بها ضمن أخويتهن، وتعاملن معها كأنها منهن وفقاً لذلك.

«لأقول الحقيقة، راقبت هذا التغير كما يراقب البستاني نمو نباتاته العزيزة على قلبه، وساهمت به أيضاً، كما يساهم البستاني في نمو نباتاته المفضلة. لم يكن صعبا بالنسبة لي أن أعرف كيف يمكنني أن أربي طالبتي، أن أقدر مشاعرها الجائعة، أن أحث ذلك النشاط والحيوية الداخلية الذي منعته العتمة والجفاف والعواصف من الخروج والنمو. ثبات الانتباه -دماثة كاليقظ الصامت- دائما يقف بجانبها، مغطى بزي القسوة، صانعا طبيعتها الحقيقية بنظرة اهتمام فقط، أو كلمة لطيفة؛ الاحترام الحقيقي المقنّع بالاستبداد الواضح، توجيه، وحثّ أفعالها، ومع ذلك يساعدها، وكل ذلك بعناية

مكرّسة: كانت هذه هي الأساليب التي استخدمتها، لأن هذه الأساليب لاءمت مشاعر فرانسيس، الحساسة كالذبذبات العميقة-بطبيعتها الفخورة والخجولة.

أصبحت فوائد نظامي واضحة حتى في تحسن أسلوبها كمعلمة؛ اتخذت موقعها ضمن طالباتها بجو من الثبات والحيوية التي أكدت لهم أنها يجب أن تطاع - وكانت مُطاعة. شعرن بأنهن فقدن سيادتهن عليها. لو عصت أي فتاة، لن تتقبل منها هذا العصيان؛ امتلكت إحساسا بالراحة لا يمكنهن استنزافه، وعموداً من الدعم لا يمكنهن تدميره: كانت تبكي عندما تهان من قبل؛ الآن أصبحت تبتسم.

قراءة واحد من واجباتها على الطلاب كشفت مواهبها المتعددة؛ أذكر الموضوع - كانت رسالة مهاجر لصديقه في الموطن. افتتحت ببساطة ؛ كشفت بعض اللمسات الطبيعية والكتابية عن قارئ عن مشهد الغابة العذراء ونهر العالم الجديد العظيم -محروم من الشراع والعلم- حيث يجب أن تُكتب الرسالة ثم التلميح على الصعوبات والمخاطر التي تواجه حياة المستوطن؛ وببعض الظلمات المذكورة حول هذا الموضوع، فثبت الآنسة رويتر في ألا تقدم صوت الصوت المسموع للمحاولة الصبورة والمصممة. تم التلميح للكوارث التي أخرجته من موطنه الأصل؛ الشرف النظيف، الاستقلال الجامد المتعنّت، وتقدير الذات الذي لا يمكن تحطيمه. تم الحديث عن الأيام الخوالي؛ تمت الإشارة إلى أسى الفراق، وندم الغياب؛ الشعور بالقوة نشر الفصاحة في كل فترة. في الختام، تم تقديم السلوان؛ أصبح الإخلاص الديني هو المتحدث، وتحدثت جيداً.

كان الواجب مكتوبا بقوة بلغة ممتازة وغير مبالغ فيها، بأسلوب مقوى بالحيوية ومزخرف بالانسجام.

كانت الآنسة رويتر ملمّة بالإنجليزية لتفهمها عندما تُقرأ أو يُتحدث بها في حضورها، بالرغم من أنها لا يمكنها كتابتها أو التحدث بها. خلال قراءة هذا الواجب، جلست مشغولة بهدوء، كانت عيناها وأصابعها مشغولتين بتشكيل نهر أو أهدابا حول منديل من الكمبريك؛ لم تقل شيئاً، وكان وجهها وجبهتها، المغطّيان بقناع من التعبير السلبي، خاليين من التعليقات، كشَفتيها. كما لم يظهر على محياها الدهشة أو الفرحة أو الموافقة ولا حتى الاهتمام، لم يكن هناك أيضا الازدراء، أو الحسد، أو الانزعاج، أو الضعف؛ لو قال هذا السلوك الغامض شيئا، لكان ببساطة : «إن الأمر تافه جداً ليثير أية مشاعر، أو إعطاء أي رأي.»

فور انتهائي، علت همهمة؛ العديد من الطالبات الملتفات حول الآنسة هنري بدأن بإحاطتها بالإطراءات؛ سُمع صوت المعلمة الآن: «يا آنسات، من منكن لديها معطف ومظلة عليها أن تسرع في المغادرة قبل أن تصبح الأمطار غزيرة» (كان المطر خفيفاً) «والبقية سينتظرن حتى تصل خادماتهن لجلبهن.» وتشتتت المدرسة، لأن الساعة أصبحت الرابعة.

«أريدك في كلمة يا سيدي» قالت الآنسة رويتر، وهي تصعد على المنصة، ومشيرة بحركة من يدها أنها أرادتني أن أضع القبعة التي كنت ممسكا بها للحظة.

«أنا في خدمتك يا آنسة.»

«يا سيدي، إنها خطة ممتازة أن تشجع مجهود الشابات عن طريق إبراز تقدم طالبة منتجة؛ ولكن هل تظن أنه في الوقت الحالي، إن الآنسة هنري قد تكون مزامنة للطالبات؟ إنها أكبر من غالبيتهن، ولديها أفضلية وجود طبيعة خاصة لاكتساب معرفة بالإنجليزية؛ من ناحية أخرى، إن

ميدان حياتها نوعا ما دونهن؛ تحت هذه الظروف، تميز الآنسة هنري على الملأ قد يكون وسيلة مقارنة، و إذكاء مشاعر كهذه قد لا يكون ملائما للفرد في تشكيل ذاته. إن الاهتمام الذي وضعتُه في مصلحة الآنسة هنري يولّد لدي الرغبة في حمايتها من مثل هذه المضايقات؛ بجانب ذلك، يا سيد، كما ألمحت لك من قبل، لدى أحساس الحب النظيف غلبة ملحوظة في شخصيتها؛ لدى الشهرة ميول إلى تربية هذا الشعور، ويجب أن يكون مكبوتا فيها فهي هي تحتاج إسقاطها بدلا من الإقدام؛ ومن ثم أعتقد، يا سيد، يبدو لي أن الطموح، الطموح الأدبي بشكل خاص، ليس إحساسا يتم التعلق به في عقل امرأة: ألن تكون الآنسة هنري أسعد و أكثر أماناً إذا علمت أن تؤمن أن موهبتها تكمن في إنجاز واجباتها الاجتماعية، بدلا من أن تحفّز على الطموح إلى التصفيق والشهرة؟ قد لا تتزوج أبداً؛ بمصادرها غير الكافية، وعلاقاتها المبهمة، وصحتها غير المؤكدة (لأني أعتقد أنها عرضة لداء السلّ؛ توفيت أمها بسبب هذا المرض)، من المحتمل جدا أنها لن تتزوج أبداً. لا أرى كيف تستطيع أن ترقى لمنصب، أين يمكن لخطوة كهذه أن تكون ممكنة؛ ولكن حتى في العزوبية سيكون من الأفضل لها أن تحتفظ بشخصية وعادات أنثى محتشمة ومحترمة.»

«بلا جدال، يا آنسة،» كانت هذه إجابتي، «رأيك لا شك فيه»؛ وخائفا من إعادة الخطبة، تراجعت خلف جملة الموافقة هذه.

بعد أسبوعين من الواقعة الصغيرة المذكورة في الأعلى، أجدها مدونة في يومياتي أنه حدثت فجوة في حضور الآنسة هنري إلى الحصة. تساءلت عن سبب غيابها في اليوم الأول والثاني، ولكني لم أرغب في طلب تفسير لذلك؛ ظننت أنه من المؤكد أن يتم إخباري بشيء لإعطائي المعلومات التي لا أرغب بها، بدون أن أجازف وأثير ابتسامات سخيفة وهمسات

وإشاعات بطلبي لها. ولكن عندما مرَّ أسبوع، وبقي المقعد قرب الباب شاغرا، وعندما لم تلمح أي من الطالبات عن الوضع - عندما، على العكس من ذلك، كان الكل صامتين عن الموضوع- أصررت، مهما كان الثمن، أن أكسر حاجز خوف هذا التحفظ السخيف. اخترت سيلفي لتكون مخبرتي، لأنه منها عرفت أنه على الأقل يجب أن أحصل على إجابة منطقية، غير مصحوبة بتملّص أو ضحكة مكبوتة، أو أي حماقة.

«أين الآنسة هنري؟» سألتها وأنا أعيد لها كتاب التمارين الذي كنت أصححه.

«لقد غادرت يا سيدي.»

«غادرت؟ إلى متى؟ ومتى ستعود؟»

«غادرت للأبد ولن تعود أبداً.»

«آه» كانت صيحتي إرادية؛ ثم بعد وقفة:

«هل أنت متأكدة من ذلك يا سيلفي؟»

«أجل، يا سيدي، هكذا قالت لنا المديرة منذ يومين.»

ولم أتمكن من متابعة استعلامي أكثر من ذلك؛ حرمني الزمان و المكان والظروف من أن أضيف كلمة أخرى. لم أتمكن من أن أعلق على ما قيل، ولا أن أطالب بمعلومات أكثر. سؤال عن سبب مغادرة المعلمة، بخصوص ما إن كانت مغادرتها إرادية أم بطريقة أخرى ، كان بالطبع على شفتي، ولكنني أخفيته - كان هناك سامعون في كل مكان. بعد ساعة، عند مروري بسيلفي في الرّواق وهي تضع قلنسوتها، توقفت لوهلة وسألتها، «سيلفي، هل تعرفين عنوان الآنسة هنري؟ لديّ كتب لها،» وأضفت بإهمال «وأرغب أن أرسلها إليها.»

ردّت سيلفي «لا يا سيدي، ولكن ربما باستطاعة البوابة روزالي أن تعطيك إياه.»

كانت غرفة روزالي قريبة؛ دخلتها و أعدت السؤال. رفعت روزالي نظرها عن عملها ببسمة مدركة، بالضبط هي البسمة التي كنت أتحاش إثارتها. كانت إجابتها جاهزة؛ أنها لا تعلم عنوان الآنسة هنري -ولم تعرفه قط. مبتعداً عنها بنفاد صبر- لأني متأكد بأنها كانت تكذب وقد دُفع لها كي تكذب - كنت على وشك أن أطرح أرضاً شخصاً كان يقف خلفي؛ كانت المديرة. جعلتها حركتي المفاجئة تتراجع خطوتين أو ثلاث. أُجبرت على الاعتذار، والذي قمت به بإيجاز بدلا من أن يكون بأدب. لا يوجد رجل يحب أن تتم مضايقته، وبالمزاج المستفز الذي كنت فيه بسبب مظهر السيدة رويتر. في اللحظة التي استدرت بها بدا محياها صارماً، مظلماً، وفضولياً؛ كانت عيونها مثبتة عليّ بنوع من الفضول الجائع. نادراً ما رأيت هذا التعبير منذ فترة طويلة؛ لعبت ابتسامة مداهنة على شفتيها؛ استُقبل اعتذاري العنيف ببراعة.

«أوه، لا بأس يا سيد؛ لقد لمست شعري بمرفقك ليس أكثر؛ ليست أسوأ من ذلك، إنه أشعث قليلاً.» أرجعته للخلف، ومُرسلةً أصابعها خلال تموجات شعرها، أرختها إلى عقصات كثيرة. ومن ثم تابعت بحيوية:

«روزالي، أتيت لأخبرك أن تذهبي حالاً وتغلقي نوافذ الصالون؛ إن الريح تشتد وستغطى الستائر بالغبار.»

غادرت روزالي. فكرت «والآن، لن يجدي هذا نفعاً؛ تظن السيدة رويتر أن سلوكها في استراق السمع محمي بمهارتها باختلاق حجة، في حين أن الستائر التي تتحدث عنها بنفس شفافية الحُجّة.» أتاني حافز لأن أرمي ذلك الحجاب الرقيق جانباً، وأن أواجه مكرها بجرأة بقول الحقيقة. فكرت

«تسير القدم ذات النعل الخشن بثبات على الأرض الزلقة» لذلك بدأت «لقد رحلت الآنسة هنري عن مؤسستك - أفترض فُصلت؟»

«آه، كنت أرغب بالحديث معك يا سيد.» ردت المديرة بأكثر الأجواء طبيعية ولطفاً في العالم؛ «ولكننا لا يمكننا التحدث بهدوء هنا. هل تأتي إلى الحديقة لدقيقة؟» وتقدمتني، خارجة من الباب الزجاجي الذي ذكرته من قبل.

«هناك» قالت لي، عندما وصلنا منتصف الوادي، وعندما حجبت أوراق الشجر، الملتفة حولنا، مشهد البيوت، وهكذا نقلت إحساسا بالعزلة حتى لقطعة الأرض هذه التي تقع في وسط العاصمة.

«هناك، يشعر المرء بالهدوء والحرية عندما يكون هنالك أشجار و زهور حوله ؛ أجرؤ على القول إنك يا أستاذ، مثلي تتعب في بعض الأوقات من كونك دائما وسط الحياة؛ من أن تكون وجوه البشر دائما حولك، وعيونهم دائما عليك، وأصواتهم دائما في أذنيك. أنا متأكدة من أني دائماً ما أتمنى حرية أن أقضي شهراً كاملاً في الريف في بيت مزرعة صغير، طيبة، ونظيفة، حولها حقول من الحطب...ما أجمل عيشة الريف! أليس كذلك يا أستاذ؟»

«هذا يعتمد يا آنسة.»

تابعت المديرة «أن يكون الهواء نقيا وبارداً.» وكانت محقة هناك، لأنها كانت رياحا جنوبية، ناعمة وجميلة. حملت قبعتي بيدي، وهذا النسيم العليل، الذي يداعب شعري، سكّنت صدغي كالبلسم. ليخترق تأثيرها المنعش أعمق من سطح الجلد؛ لأني عندما مررت بجانب الآنسة رويتر، كان قلبي ما يزال ساخنا في صدري، وبينما استغرقت في التفكير، اشتعلت النيران؛ ثم قلت «أفهم أن الآنسة هنري رحلت من هنا، ولن تعود؟»

«آه، صحيح! كنت أريد أن أخبرك بالأمر قبل عدة أيام، ولكن كان وقتي كله مشغولاً، لم أستطع القيام بنصف الأمور التي أرغب بها: ألم تختبر من قبل هذا الشعور، يا أستاذ، أن تجد يومك قصيرا جداً بالمقارنة بواجباتك العديدة؟»

«ليس عادة. أفترض أن رحيل الآنسة هنري لم يكن إرادياً؟ لو كان بإرادتها، لكانت أعلمتني بالأمر، كونها طالبتي.»

«أوه، الم تخبرك؟ هذا غريب؛ من ناحيتي، لم أفكر في الإشارة إلى الموضوع، عندما يكون لدى المرء العديد ليفعله، فإنه يكون عرضة لنسيان أحداث صغيرة ليست ذات أولوية.»

«إذن أنت تعتبرين فصل الآنسة هنري حدثاً ثانوياً بلا أهمية؟»

«فصل؟ آه! لم يتم فصلها؛ أستطيع أن أصدقك لأقول، يا أستاذ، أني منذ استلامي لإدارة هذه المؤسسة، لم يتم فصل أي معلمة أو طالبة منها.»

«مع ذلك رحل بعضهن عنها، يا آنسة؟»

«العديد؛ رأيت أنه من الضرورة التغيير باستمرار. تغير المعلمات غالبا ما يكون مفيداً لمصلحة المدرسة؛ إنها تمنح الحيوية والتنوع للأحداث؛ هذا يسلي الطالبات، ويقدم لأولياء الأمور فكرة الجهد والتقدم.»

«مع ذلك عندما تملين من معلم أو معلمة، تترددين في فصلهم؟»

«ليس هناك داع اللجوء إلى إجراءات شديدة، أنا أؤكد لك. هيا يا أستاذ، يجب أن نجلس، سأعطيك درساً صغيراً» (ليتني أكتب كل ما قالته لي بالفرنسية-تفقد معناها بحزن عندما تترجم إلى الإنجليزية.) وصلنا الآن إلى كرسي الحديقة جلست المديرة، وأشارت لي بالجلوس بجانبها، ولكني

أسندت ركبتي على المقعد، ووقفت مسندا مرفقي ورأسي على فرع شجرة الأبنوس، التي انسجمت أوراقها الذهبية مع أوراق شجرة الليلك الخضراء، وشكلت قوسا من الظل و أشعة الشمس حول المكان. جلست الآنسة رويتر صامتة للحظة، كانت بعض الحركات الجديدة تعمل في عقلها، وأظهرت طبيعتها على حاجب عينها الماكر؛ كانت تتأمل في سياسة جميلة. مقتنعة بخبرة بضعة أشهر أن تصنع الفضائل الذي لم تكن تمتلكها و كان بلا نفع في إيقاعي في الشرك، واعية أنني قرأت طبيعتها الحقيقية، وأني لن أصدق شيئا من الشخصية التي كانت تتصنعها-قررت، أخيراً، أن تجرب مفتاحاً آخر، وترى ما إذا سيسلم قفل قلبي له، قليل من الجرأة، كلمة من الحقيقة، لمحة من الواقع. «أجل، سوف أحاول،» كان هذا قرارها الباطني؛ وثم تألقت عيناها الزرقاوان عليّ لم تضرم أي نار في وميضها المعتدل.

«هل يخاف الأستاذ من الجلوس بجانبي؟» سألت بمرح لعوب.

«ليس لدي أي نية في اغتصاب مكان بيليت» أجبتها، لأني اعتدت على الحديث معها بعنف - عادة بدأت في غضب، ولكنها أكملت، لأني رأيت أنه، بدلا من إهانتها، أذهلتها. أخفضت عينيها، وتدلت جفونها؛ تنهدت باضطراب؛ استدارت بإشارة قلق، كما لو أرادت إعطائي فكرة طائر يرفرف في قفصه، ويرغب بأن يطير من سجنه وسجّانه، ويبحث عن شريك حياته وعشّه.

«حسن - وبالنسبة لدرسك؟» طالبتها.

«آه!» صاحت، مُلَملمةً شتات نفسها، «أنت شاب، صريح ولا تخاف شيئاً، موهوب، سيضيق صدرك بالغباء، ومزدرٌ للسوقية، أنت تحتاج لدرس؛ ها هو إذن: هناك العديد من الأشياء التي يمكن القيام بها أكثر من

القوة؛ ولمن – ربما - عرفت ذلك من قبل، لأن هناك رقة كما يوجد قوة في شخصيتك، إضافة إلى كبريائك؟»

«استمري» قلت وأنا بالكاد أستطيع منع نفسي من الابتسام، كان الإطراء لاذعاً، ومتبّلاً بعناية. التقطت البسمة المحرّمة، بالرغم من ظني وضعت راحتي على فمي لأخفيها؛ ومجددا أفسحت لي المجال لأجلس بجانبها. هززت رأسي، بالرغم من أن الإغراء اقترف أحاسيسي في تلك اللحظة، ومجددا قلت لها أن تتابع.

«حسن إذن، لو كنت يوما ما مديرا لمؤسسة كبيرة، لا تفصل أحداً. لأقول الحقيقة، يا أستاذ (و لكَ أنت سأقول الحقيقة)، أنا أكره الناس الذين دائما ما يصنعون المشاكل والضوضاء، يتبجحون، يطردون الأشخاص يمينا وشمالا، يحثون ويستعجلون الظروف. سأخبرك ماذا أحب أن أفعل، يا أستاذ، هل لي؟» رفعت نظرها مجدداً؛ لقد سوت من نظرها هذه المرة ، أكثر مكراً، أكثر إذعاناً، مقدار حار من الغنج و الدلال، وعي واضح بقدرتها. أومأت؛ عاملتني كالعظيم؛ لذلك أصبحت عظيما بقدر ما كانت مهتمة.

«أحب، يا أستاذ أن تكون حياكتي بيدي، وأن أجلس بهدوء على كرسيّ؛ لكن الظروف تدنسني؛ أرى مسيرتهم؛ طالما أنهم يتبعون الاتجاه الذي أريده، لا أقول شيئاً، ولا أفعل شيئاً؛ لا أصفق، وأصيح «مرحى! يا لي من محظوظة!» لأجذب انتباه وحسد جيراني -أنا فقط سلبية؛ ولكن عندما تسوء الأحوال- عندما تصبح الظروف عسيرة، أشاهد بحذر، لا أزال أحيك، ولا أزال ممسكة لساني؛ ولكن من حين لآخر، يا أستاذ، فقط أضع قدمي في الموضوع -لذلك- وأعطي الظروف العاصية دفعة سرية صغيرة، بلا ضجيج، لترسلها في الاتجاه الذي أريده، وأنا ناجحة بعد كل

هذا، ولم ير أحد وسيلتي. لذا، عندما يصبح المعلمون مثيرين للمتاعب أو غير كفئين -عندما، باختصار، تعاني مصلحة المدرسة من احتفاظهم بمنصبهم- أهتم بحياكتي، تتقدم الأحداث، تمضي الظروف؛ أرى واحدة لو دفعت قليلاً، ستميل، ستترك المنصب الذي تمنيت أن أبقيه شاغراً بلا عناية - ما حصل قد حصل- أزيل حجر العثرة - ولم يرني أحد: لم أصنع عدواً، وتخلصت من عبء.»

منذ لحظة، وقد حسبتها جذابة؛ عندما انتهى هذا الحديث، نظرت لها بنفور. «هذا يشبهك» كانت إجابتي الباردة. «و بهذه الطريقة أبعدت الآنسة هنري؟ أردت وظيفتها، ولذلك جعلته لها لا يطاق؟»

«أبداً، يا أستاذ، كنت قلقة على صحة الآنسة هنري؛ لا، رؤيتك الأخلاقية واضحة وثاقبة، ولكنك فشلت في اكتشاف الحقيقة. أخذت- دائما ما كان لدي اهتمام بالآنسة هنري؛ لم أردها أن تخرج في كل الفصول؛ ظننت أنه يمكن أن يكون أكثر فائدة لها أن تحتفظ بوضع دائم؛ إلى ذلك، اعتبرتها مؤهلة الآن لتقوم بشيء أكثر من مجرد التدريس والحياكة. جادلتها؛ وتركت القرار لها؛ رأت صحة وجهة نظري، وتبنتها.»

«ممتاز! والآن، يا آنسة، ستكونين جيدة وتعطيني عنوانها.»

«عنوانها!» كسا وجه المديرة تغير متحجر وكئيب. «عنوانها! آه، حسن، أتمنى لو أخبرك إياه يا أستاذ، ولكن لا يمكنني، وسأخبرك لماذا؛ كلما سألتها أنا عن عنوانها، دائما ما تجنبت السؤال. فكرت -ربما أكون مخطئة- لكنني ظننت وجود دافع طبيعيا، بالرغم من التردد والنفور لتعريفي على مسكن فقير جداً؛ كانت مواردها قلقة، وأصلها غامضاً؛ إنها بلا شك تعيش في مكان ما في المدينة السفلية»

«لن أفقد أفضل طالباتي بعد، بالرغم من أنها ولدت في عائلة شحادين وعاشت في قبو؛ بالنسبة للبقية، من السخيف جعل أصلها مصدر قلق لي ، عرفت أنها ابنة فلّاح سويسري، لا أكثر ولا أقل؛ وبالنسبة لمواردها القليلة، لا اكترث بمدى فقر محفظتها ما دام قلبها يفيض بالغنى.»

«إن مشاعرك نبيلة، يا أستاذ» قالت المديرة، متظاهرة بكتمها لتثاؤب؛ كانت حيويتها الآن غريزية، انتهت صراحتها المؤقتة؛ علم الوقاحة الأحمر القرصاني الذي سمحت له أن يعوم في الهواء لدقيقة، تم لفه، وعلم الإخفاء تم تعليقه على الحصن. لم أحبها لذلك، لذلك اختصرت الحديث ورحلت.

* * *

19

يجب ألا يسمح الروائيون لأنفسهم بأن يسأموا من دراسة الحياة. إذا قاموا بهذا الواجب بضمير قد يعطونها صوراً أقل ذات ، ألوان متناقضة بين الظل والنور؛ نادرا ما سيرفعون من أبطالهم وبطلاتهم إلى حد النشوة ، ونادراً ما يغرقونهم في أعماق اليأس؛ لأنه نادراً ما ذقنا امتلاء المتعة في هذه الحياة، مع ذلك قلّما ما نتذوق طعم المعاناة المُرّ الحادّ؛ ما لم ننغمس كالوحوش في انغماس حسّي، مظلوم، مرهق، منشّط، ومنهك من جديد، وأخيراً، تدمر قابليتنا على الاستمتاع؛ ومن ثم وبصدق قد نجد أنفسنا بلا دعم، والأمل مسروق منّا. ألمنا عظيم، وكيف له أن ينتهي؟ دمرنا نبع قوتنا؛ يجب على الحياة أن تمتلئ معاناة واهنة جدا لتحمل الأمل -يجب أن يكون الموت ظلاماً- الله، الأرواح، قد لا يستطيع الدين أن يجد مكانا في عقولنا المنهارة، حيث تتسكع ذكرى الرذيلة المنجسة والشنيعة؛ ويحملنا الوقت إلى حافة القبر، ويرفسنا الموت داخلها ، شخص تافه أكله المرض مرارا و تكرارا ، يتلوى بالألم، ضرب قدمه في عشب فناء الكنيسة بكعب اليأس الذي لا يرحم.

ولكن إنسان الحياة العادية والعقل المنطقي لا ييأس أبداً. يخسر ملكيته - هذه صدمة - يترنح للحظة؛ ثم، طاقاته، التي تم إيقاظها بذكائه،

تعمل من أجل إيجاد حَلٍّ؛ إن النشاط سرعان ما يخدر الندم. يؤثر عليه المرض؛ يصبر - يتحمل ما لا يمكنه معالجته. ألم حادٌّ يعذبه؛ لا تعلم أعضاؤه الملوية أين تجد الراحة؛ إنه يستند على مرتكزات الأمل. يسلبه الموت ما يحب؛ يقتلع، ويمزق بقسوة الساق التي التفّت حولها عواطف- وقت كئيب وموحش، أسى مرعب - ولكن يوما ما ينظر الدين إلى بيته المقفر بشعاع الشمس، ويقول إنه في عالم آخر، في حياة أخرى، سيقابل أقاربه مجدداً. يتحدث عن ذلك العالم كمكان لا تشوبه الخطيئة- عن تلك الحياة كحقبة لا تكدّرها المعاناة؛ إنه يقوي بشدة سلوانه بربطه بفكرتين- لا يفهمها الفنانون، ولكنهم يحبوا أن يسكنوا إليها - السرمدية والخلود؛ وعقل النديب ، كونه مملوءاً بصورة، باهتة ولكنها بهية، عن الروابي السماوية، الممتلئة نوراً وسلاماً -عن روحٍ ترتاح هناك بنعيم وهناء- عن اليوم الذي ستحط فيه روحه هناك، حرة ومتحررة -من النقاء متمم بالحب، وطهر من الخوف- يتحلى بالشجاعة- يخرج ليواجه ضرورات الحياة وواجباتها؛ وبالرغم من أن الحزن قد لا يرفع حِملها عن عقله، سيخوله الحي من تحمّله.

حسن - إلام يشير كل هذا؟ وما هي النتيجة الذي يجب استنباطها من ذلك؟ إنه يلمح إلى وضع طالبتي -كنزي- وهي تُنتَزع من بين يديّ، ووضعها بعيداً عن متناول يدي؛ النتيجة التي يجب استنباطها منه هي- كوني إنسان رصين وحصيف، لم أسمح بالضغينة، خيبة الأمل، والأسى، التي أنشأتها هذه الفرصة الشريرة، أن تنمو لحجم هائل؛ ولم أسمح لهم بان يحتكروا كل قلبي؛ على العكس من ذلك، لقد حبستهم في خلوة سرّية. في النهار، أيضاً، عندما كنت أؤدي واجباتي، وضعتهم على النمط الصامت؛ وفقط بعدما أغلق باب غرفتي في الليل أطلقت نوعاً ما قسوتي تجاه أولئك

الرُّضع المتجهمين، وسمحت بمنفذ للغة تذمرهم؛ ومن ثم، انتقاماً، جلسوا على وسادتي، ترددوا على سريري، وأبقوني مستيقظاً ببكائهم الطويل النصلي.

مضى أسبوع. لم أقل شيئا للآنسة رويتر. كان سلوكي هادئاً معها، بالرغم من أنه كان بارداً وقاسياً كالحجر. عندما نظرت إليها، كانت النظرة التي تُلقى على الشخص الذي أعرف أنه استشار الحسد ليكون ناصحه، ووظف الخيانة كأداة ، نظرة الازدراء الهادئ وانعدام الثقة المتجذّر. مساء السبت، بعد أن غادرت المنزل، دخلت إلى قاعة الأكل، حيث كانت تجلس وحدها، واقفاً أمامها، وسألتها بنفس الأسلوب والنبرة الهادئين الذي كان يجب عليّ أن أستعملها لو أني قلت السؤال للمرّة الأولى، «يا آنسة، هل من الممكن أن تعطيني عنوان الآنسة هنري؟»

متفاجئة قليلاً، ولكن بلا قلق، نفت مبتسمة أي علم لها بالعنوان، مضيفة «يا أستاذ، يبدو أنك نسيت كل الذي شرحته عن الوضع قبل أسبوع من الآن؟»

تابعتُ «يا آنسة، ستسدين لي صنيعا إن دللتني على مسكنها.»

بدتْ نوعاً ما محتارة؛ أخيراً، نظرت لي بجوّ من الوغر الزائف، وسألت، «هل يعتقد الأستاذ أني أكذب؟»

متفادياً إعطاءها جواباً مباشراً، قلت لها: «ليس إذن في نيتك أن تسدي لي هذا المعروف؟»

«لكن، يا أستاذ، كيف يمكنني أن أخبرك بشيء لا أعرفه؟»

«حسن؛ أنا أفهمك جيداً، يا آنسة، والآن لدي كلمتان أو ثلاث لأقولها. هذا آخر أسبوع في تموز؛ ستبدأ العطلة في غضون شهر، استغلي

فترة الراحة هذه في البحث عن معلم لغة إنجليزية جديد ، في نهاية آب سأستقيل من منصبي في مؤسستك.»

لم أنتظر تعليقها على هذا الإعلان، انحنيت وانسحبت فوراً.

ذلك المساء، بعد العشاء بقليل، جلبت لي خادمة رزمة صغيرة من الرسائل؛ كانت موجهة بخط عرفته، ولكن لم آمل أن أراه في القريب العاجل؛ كوني في غرفتي و وحيداً، لم يكن هناك شيء يمنعني من فتحها فوراً؛ احتوت على أربع قطع من فئة الخمسة فرنكات، ورسالة بالإنجليزية.

أستاذ

أتيت لبيت الآنسة رويتر البارحة، في الوقت الذي عرفت أنك تكون على وشك الانتهاء من درسك، وسألت ما إذا كنت قادرة على دخول الحصة والتكلم معك. أتت الآنسة رويتر وقالت: إنك قد ذهبت؛ لم تصبح الساعة الرابعة بعد، لذلك ظننت أنها ربما تكون مخطئة، ولكني استنتجت أنه لا فائدة من تضييع يوم آخر على هذه المهمة. من جهة أخرى، رسالة ستفي بالغرض، ستلف العشرين فرنكاً، ثمن الحصص التي تلقيتها منك؛ وإذا لم تعبر بشكل كامل عن الشكر الذي أدين به لك ، إذ لم تودعك على النحو الذي رغبت أن أقوم به إذا لم تخبرك، كم أتوق لأفعل، كم أنا متأسفة لأني لن أراك مجدداً ، لأن الكلمات المنطوقة بالكاد تكون ملائمة للمهمة. لو أنني رأيتك، لكنت تأتأت بشيء ضعيف وغير مُرضٍ ، شيء سيقدم لك مشاعري بطريقة خاطئة بدلاً من شرحها؛ لذلك ربما لذلك تم منعي من مقابلتك. دائماً ما لاحظت، يا أستاذ، أن واجباتي كانت تكمن في الصرامة في تَحَمّل الأسى - تقول إنني قدمت هذا الموضوع كثيراً: أجد فعلاً أنه من الأسهل أن أكتب عن الواجب القاسي بدلا من تأديته، لأني مضطهدة

عندما أرى و أشعر بالهزيمة التي حكم علي بها القدر؛ كنتَ لطيفاً معي - لطيفاً جداً؛ أنا حزينة - أنا مكسورة القلب لأنني سأفترق عنك؛ قريباً لن يبقى لدي صديق على الأرض. لكن إزعاجك بمنحي المزيد سيكون بلا فائدة. ما هي دعواي بتعاطفك؟ لا شيء؛ لن أقول شيئاً أكثر من ذلك.

وداعاً، يا أستاذ.

ف.إ. هنري.

وضعت الرسالة في دفتر الجيب. وضعت قطع الخمسة فرانكات في محفظتي ، وأخذت دورة في غرفتي الضيقة.

قلت: «تحدثت الآنسة رويتر عن فقرها، وهي فقيرة؛ ولكنها تدفع ديونها وأكثر. لم أعطها بعد دروس الفصل، وبعثت لي بحساب الفصل. أتساءل ممّضاً حرمت نفسها لتجمع الفرنكات العشرين ، أتساءل عن نوع المكان الذي كان عليها أن تعيش فيه، وأي نوع من النساء هي عمَّتَها، وما إذا كانت ستحصل على وظيفة لتوفّر عليَّ المكان الذي خسرته. لا شك في انه يجب عليها أن تمشي كثيراً من مدرسة إلى مدرسة، لتسأل هنا، وتقدم طلبها هناك-أن يتم رفضها في هذا المكان، ويخيب أملها في ذلك. ستذهب إلى سريرها في العديد من المساءات متعبة وفاشلة. ولم تسمح لها المديرة بالدخول لتوديعي؟ لا أحظى بفرصة لأقف معها لبضع دقائق عند الشباك في الغرفة، ونتبادل بعض الجمل -أن أعرف أين تسكن- أن تبدأ إفهامي كل شيء؟ لا يوجد عنوان على الرسالة.» تابعت، ساحبا الرسالة مجددا من دفتر الجيب، وفاحصا إياها من الناحيتين: «النساء سيبقين نساءً، هذا مؤكد، دائماً يقمن بالعمل كالنساء؛ يضع الرجال عنوانا و تاريخا بطريقة آلية

على رسائلهم. وقطع الخمسة فرانكات هذه؟». «سحبتها من محفظتي» لو عرضتها عليّ بنفسها بدلا من ربطها بخيط من الحرير الأخضر في حزمة تافهة، لكنت دفعت بها إلى يدها، وأغلقت الأصابع الصغيرة المِغزلية عليها -لذلك- ولأجبرت خجلها، وفخرها، وحياءها كلهم ليخضعوا لقليل من الإرادة، أين هي الآن؟ كيف أستطيع الوصول إليها؟

فتحت باب الغرفة ومشيت إلى المطبخ.

«من جلب الحزمة؟» سألت الخادمة التي جلبتها لي.

«بواب نحيل، يا أستاذ.»

«هل قال شيئاً؟»

«لا شيء»

وتجولت طريقي صعوداً عبر الدرج الخلفي.

«لا يهم،» قلت لنفسي، وأنا أغلق الباب مجدداً. «لا يهم، سأبحث عنها عبر بروكسل.»

وفعلت ذلك. بحثت عنها يوما بعد آخر كلما كان لدي وقت فراغ، لأربعة أسابيع؛ أمضيت صباح الآحاد كلها أبحث عنها؛ بحثت عنها في كل الجادّات، في الزقاق الأخضر، في الحديقة؛ بحثت عنها في كنيسة غاودلا، في كنيسة جاك؛ بحثت عنها في معبدين للبروتستانت؛ حضرت هاتان الأخريان وقت الخدمة الألمانية والفرنسية والإنجليزية، بدون أن أشك في أنني سأراها في أحدهم. كانت كل أبحاثي بلا نتيجة، ضماني في النقطة الأخيرة أثبت الحدث أنه لا أساس لها من الصحة مقترنة بحساباتي الأخرى. وقفت على باب كل معبد بعد الخدمة، وانتظرت حتى خرج كل

فرد، ممعناً النظر في كل معطف ذي شكل هزيل، ناظرا تحت كل قلنسوة تغطي رأساً شاباً. بلا جدوى، رأيت أجساما لبنات تمر بجانبي، لافّة أوشحة سوداء حول أكتافهن المائلة، ولكن ليس لدى أي منهن نفس لفة وجه الآنسة هنري؛ رأيت وجوهاً شاحبة و وقورة، مؤطرة بشعر بني، ولكني لم أعثر على جبهتها، وعينيها، وحواجبها. ملامح كل الوجوه التي قابلتها تفتت، لأن عيني فشلتا في تمييز الخصال التي بنيت عليها؛ فراغ واسع بين الحاجبين وعين كبيرة، مظلمة وجديّة بحاجب واضح فوقها.

«لقد غادرت بروكسل-ربما ذهبت لإنجلترا، كما قالت إنها ستفعل،» تمتمتُ داخلياً، عندما خرجت من باب دير فخم، في أصيل الأحد الرابع، الذي أغلقه البواب، وتبعت احتفال الجمع الذي كان يتشتت في الساحة. سبقت الزوجين الإنجليزيين ونساءهم. (يا إلهي! لم لا يرتدون ملابس أفضل؟ لا تزال عيني مملوءة بالأثواب ذات الأهداب العالية، الوسخة والملتفّة بالساتان والحرير المكلف، بشرائط الياقة الكبيرة غير اللائقة؛ بالمعاطف الرديئة، والبناطيل ذات الأذواق الغريبة، التي ملأت الجوقة أيام الآحاد خلال الخدمة الإنجليزية، و بعدها، متقدما إلى الساحة، برز لي تباين غير مؤاتٍ مع الأجسام الأجنبية المكسوة بأناقة على نحو حديث، مسرعة لتحضر الأقداس في كنيسة كوبرغ. مررت بأولئك الأزواج البريطانيين، ومجموعات الأطفال البريطان الجميلين، والخدم والخادمات الإنجليزيات؛ قطعت القصر الملكي، ثم انحرفت إلى شارع لوفان-شارع قديم وهادئ. أذكر ذلك، شاعراً ببعض الجوع، وغير راغب بالعودة لتناول حصتي من الطعام، الآن في قاعة طعام مدرسة بيليت - لخفّة الدم، البنادق والماء- دخلت إلى مخبز وأنعشت نفسي بكوك (؟) لا أعلم كيف ألفظها أو أتهجاها، إنها كلمة فلمنكية- نوع من الخبز- و كوب

من القهوة؛ وثم تجولت إلى بوابة لوفين. بعد قليل كنت خارج المدينة، أتسلق التلّة التي ترتفع من البوابة، ببطء، أخذت وقتي؛ وكان الجو خانقاً في المساء، بالرغم من أنه غائم، ولم تهب أي نسمة لتنعش الجو.

لا يحتاج سكان بروكسل لأن يسافروا بعيدا للبحث عن الوحدة؛ دعه يبتعد لنصف درجة عن مدينته وسيجدها تجلس خالية على الحقول البيضاء، موحشة بالرغم من أنها خصبة، تستقر بلا شجر وغير مطروقة حول عاصمة برابانت. بعد وصولي إلى قمة التلة، و وقوفي ونظري المطوّل إلى الحملة المثقفة والخالية من الحياة، شعرت برغبة ليهدأ الطريق الرئيسي، الذي كنت أتبعه حتى هذه اللحظة، ويصبح ضمن هذه الأرض المحروثة -الخصبة كطبقات بستان عظيم- تنتشر بعيدا و واسعة حتى حدود الأفق، حيث، غيرتهم المسافات من أخضر قاتم إلى أزرق حرون، وأربكت ألوانها بألوان السماء الشاحبة المرعدة. وفقاً لذلك استدرت في طريق جانبيّ على يميني؛ لم أتبع هذا الطريق من قبل وقادتني، كما توقعت، إلى الحقول، حيث امتدَّ في منتصفها سور أبيض طويل يطوقها، كما يبدو من أوراق الشجر الظاهرة من الأعلى، مشتل مزروع بكثافة بأشجار الصنوبر والسرو، لأن الفروع التي تدلّت من فوق الحاجز كانت من هذين النوعين، مكتظة حول تقاطع كبير مزروعة بلا شك على ربوة مركزية ومادّة أذرعها، والتي بدت أنها من الرخام الأسود، على قمم تلك الأشجار المشؤومة. اقتربت متسائلا لأي منزل تعود هذه الحديقة؛ استدرت عند زاوية السور، لأرى منزلاً فخماً؛ كنت قريبا من بوابات حديدية كبيرة؛ كان هناك كوخ يعمل كنُزُل بالقرب، ولكني لم أحتج إلى أي مفتاح لأن البوابات كانت مفتوحة؛ دفعت إحداها إلى الخلف، أصاب المطر مفاصلها بالصدأ، لأنها أنَّتْ بحزن عندما دارت. زينت المدخل نباتات كثيفة. رأيت على كل ذراع خلال مروري

بالطريق، أشياء، بلغة الإشارة والنقش الصامتة الخاصة بهم، شرحت لي على أي مسكن دخلت. كان هذا المنزل المحدد لكل الساكنين؛ أعلنت صلبان ومَعَالِم وتيجان، «المقبرة البروتستانتية، خارج بوابة لوفين»

كان المكان واسعاً كفاية ليمنح ساعة من التجوال بدون رتابة المرور دائما بنفس الطريق؛ ولأولئك الذين يحبون قراءة سجلات الموتى، يوجد هنا كتابات كافية لتشغلهم ضعفين أو ثلاثة أضعاف ذلك الوقت. جلب العديد من الناس من أصول ولغات مختلفة أقرباءهم للدفن؛ وهنا، على صفحات من حجر، والفخار، والنحاس، أسماء مكتوبة وتواريخ و رثاء بالإنجليزية، الفرنسية، والألمانية واللاتينية. هنا، رفع رجل إنجليزي نصباً من الفخار فوق جثمان ماري سميث أو جان براون، وكتب عليها فقط اسمها. هناك ظلل الأرمل الفرنسي القبر: قبر إلمر أو سيليتين بأجمة جميلة من الزهور، يرتفع في منتصفها لوحة تذكارية، حملت شهادة جميلة على فضائلها التي لا تحصى. كل قوم، قبيلة، أو عشيرة تندب بطريقتها الخاصّة؛ ويا له من حداد صامت! بدا أن خطواتي، بالرغم من أنها بطيئة وعلى أرض ملساء، تبثّ الرعب لأنها كانت الكاسر الوحيد لصمت تامّ. ليس فقط الرياح، ولكن حتى الهواء المتقطع، ذلك المساء، مالوا بالفطرة السليمة، كلهم ناموا في غرفهم العديدة؛ كان الشمال ساكتاً، والجنوب صامتاً، لم يبك الشرق، ولم يهمس الغرب. كانت الغيوم في السماء كثيفة وقاتمة، ولكنها بلا حراك. اختبأ ظلام دافئ تحت أشجار المقبرة، منها خرجت شجرة سرو صامتة، ومن فوقها تدلت أوراق الصفصاف بثبات؛ حيث الورود، الواهنة بقدر ما هي جميلة، انتظرت فاترة للندى أو الأمطار الرعدية؛ حيث القبور و أولئك الذين اختبأوا استلقوا دون أن تعبر عليهم الشمس ولا الظل، لا مطر ولا جفاف.

منزعجا من صوت خطواتي، فقلت عائدا من المنطقة، وتقدمت ببطء من أيكة صنوبر؛ رأيت شيئا يتحرك بين سيقان النبات؛ ظننت أنه ربما يكون فرعاً مكسوراً متدلياً، لم يلتقط نظري القصير أي شكل، فقط إحساسا بالحركة؛ ولكن الظل الغسقي انتقل، يظهر ويختفي على ثغرات الطريق. تبينت بعد ذلك أنه كان شيئا حياً، و إنساناً؛ ومقتربا أكثر، عرفت أنها امرأة، تسير جيئة وذهاباً، ومن الواضح أنها تعتقد نفسها وحدها كما أعتقد أنا ذلك، وتتأمل كما كنت أتأمل. قبل فترة عادت لنفس المقعد الذي أعتقد أنها قامت منه، أو أنه ربما لمحتها من قبل. كان في زاوية، مستورة بمجموعة من الأشجار؛ كان السور الأبيض أمامها، وحجر صغير مسنوداً على الحائط، وفي آخر الحجر، كان هناك تخصيص لمكان، قبر جديد. وضعت نظاراتي ومررت من خلفها؛ ملقياً نظرة على النقش الذي على الحجر، قرأت «جوليان هنري، توفيت في بروكسل، ستون عاماً. آب 10-18-» بعدما قرأت النقش، نظرت إلى الشكل الجالس مفكرا بالضبط تحت نظري، غير شاعرة بقرب أي شيء حي؛ كان جسداً نحيلا، وشاباً في حلة الحداد السوداء بقلنسوة سوداء بسيطة؛ شعرت، كما رأيت، من كانت؛ وقفت مستمتعا ببهجة القناعة، دون أن أحرك قدماً أو ذراعاً. بحثت عنها لشهر ولم أجد أي أثر لها - لم أقابل أملا، ولا حتى فرصة للقائها في أي مكان. أجبرت على التقليل من توقعاتي؛ ومنذ ساعة، غرقت في الفكرة المحبطة أن مجرى الحياة ودافع القدر، قد جرفاها بعيداً عني؛ وبينما أنحني تحت ضغط القنوط -وأنا أتبع بعيني ممّر الحزن على طريق المقبرة- هنا كانت جوهرتي المفقودة مرمية على الكلأ المسقيّ بالدموع، مختبئة بين جذور شجر الصنوبر الفوضوي المتعفّن.

جلست فرانسيس بهدوء، مرفقها على ركبتها و رأسها على يدها. عرفت أنها تستطيع أن تحتفظ بوضع جسماني للتفكير دون أي تغيير؛ أخيراً

ندت عنها دمعة؛ كانت تنظر إلى الاسم على الحجر مقابلها، وقلبها عانا بلا شك من واحدة من أحد هذه الانقباضات التي تنتاب الناس البائسين الذين يندمون ويتحسرون على الأموات. سقطت منها العديد من الدموع، ومسحتها بسرعة، مراراً وتكراراً، بمنديلها؛ هربت منها تنهدات متألّمة، ومن ثم، جلست هادئة كما كانت بعد انتهاء النوبة. وضعت يدي برفق على كتفها؛ لا حاجة لتحضيرها أكثر من ذلك، لأنها لم تكن هستيرية ولا عرضة لنوبات إغماء، بالطبع قد تخيفها دفعة مفاجئة، ولكن لمستي الرقيقة أثارت انتباهها لا أكثر كما رغبت، وبالرغم من أنها استدارت بسرعة، ومع ذلك التفكير بسرعة البرق - في بعض العقول خاصة -أعتقد أن التساؤل- الوعي بمن كان الذي تسلل بلا وعي بعزلتها، حتى قبل أن تقوم بتلك الحركة السريعة؛ على الأقل بالكاد فتح الذهول عينيها و رفعتهما باتجاهي، بالكاد أزعجت المفاجأة ملامح وجهها قبل أن يشرق إحساس بالفرح على محياها. بالكاد كان لدي الوقت لألاحظ أنها كانت منهكة وشاحبة، قبل أن أشعر بإحساس عارم بالفرح بإحساس المسرّة اللذيذة الذي يلمع في التورّد الحيوي، ومشرقة في النور الممتد، والمنتشرة على وجه تلميذتي. كانت شمس الصيف التي تشرق بعد المطر؛ وما الذي يخصِّب أكثر من شعاع، يشتعل كالنار في حماسها؟

أكره الجسارة ، تلك الجسارة التي هي نتاج الحاجب النحاسي والأعصاب عديمة الإحساس؛ ولكني أحب شجاعة القلب القوي، و اتِّقاد الدم الزاخر؛ أحببت بشغف شعاع عين فرانسيس إفانز البندقية عندما لم تخف أن تنظر مباشرة في عيني؛ أحببت النبرة التي لفظت بها الكلمات، «معلمي! معلمي!»

أحببت الحركة التي وضعت فيها يدها بيدي، أحببتها وهي واقفة هناك، خالية الوفاض ويتيمة، بالنسبة للشهواني فهي ليست فاتنة، أما بالنسبة لي فهي كنز - أفضل دافع للتعاطف على وجه الأرض، مفكرا بأفكار كالتي أفكر بها، وحاساً بالمشاعر التي أشعر بها، فكرتي عن الضريح المثالي الذي أحبس فيه مخزوني من الحب؛ تجسيد للحذر والتروّي، للاجتهاد والمواظبة، لإنكار الذات والتحكم بالنفس- هؤلاء الحراس، حماة الهدية التي أردت منحها- هدية كل عواطفي؛ مثالٌ للصدق والشرف، للاستقلالية و الاجتهاد - هؤلاء المصفّون والمحافظون على الحياة البريئة، وعلى شعلة ودية كما كانت دائماً، ونقية كما هي خالدة، بإحساس وشغف طبيعيين مصادر الراحة للمنزل. عرفت مدى عمق البئر التي في قلبها، عرفت كيف اشتعلت النار الأخطر بأمان تحت عين التعقّل؛ رأيت عندما ارتفعت النار واضحة وعالية، عندما أزعجت الحرارة موجة الحياة في قنواتها، رأيت العقل يقلل من العصيان، ويخمد نيرانها للجمر. كان لدي ثقة في فرانسيس إفانز؛ احترمتها، وعندما عقدت ذراعها بذراعي، وقدتها خارج المقبرة، شعرت بأن لدي إحساساً آخر، قوي كمال الثقة، بثبات الاحترام، وأكثر حماساً من الاثنين - وهو الحب.

«حسن، يا تلميذتي،» قلت بينما أغلقت البوابة المشؤومة خلفنا - «حسن، لقد عثرت عليك مجدداً: بدا شهراً من البحث طويلاً، ولم يخطر لي أن أجد نعجتي التائهة بين المقابر.»

لم أخاطبها من قبل سوى «بآنسة»، وأن أتحدث معها هكذا يعني أن نتخذ أسلوباً آخر في الحديث. أخبرني جوابها أن هذه اللغة لم تزعج أيا من مشاعرها، ولم توقظ أي نفور في قلبها.

قالت «أستاذي، هل أتعبت نفسك بالبحث عني؟ لم أتخيل أنك قد تأبه لغيابي، ولكني حزنت بمرارة على أخذي بعيداً عنك. كنت متأسفة لذلك الوضع عندما كان يجب أن تنسيني إياه مشاكل أكبر منه.»

«عمتك ميتة؟»

«أجل، منذ أسبوعين، وتوفت وكلها ندم لم أستطع أن أخرجه من عقلها؛ كانت تردد، حتى في آخر ليلة لها، «فرانسيس، ستكونين وحيدة جدا في غيابي، وبدون أصدقاء.» تمنت أيضا لو أنها تدفن في سويسرا، وكنت أنا التي أقنعتها أن تترك ضفاف نهر ليمان وأن تأتي، على ما يبدو فقط لتموت، في هذه المنطقة من فلاندر. لو أنني حققت أمنيتها عن طيب خاطر، وأخذت بقاياها إلى بلدنا، ولكن هذا كان مستحيلاً، كنت مجبرة على دفنها هنا.»

«أفترض أنها كانت مريضة منذ وقت قريب؟»

«منذ ثلاثة أسابيع. عندما بدأت تنهار، طلبت إذناً بالمغادرة من الآنسة رويتر لأبقى معها وأسهر على راحتها، وحصلت على مغادرة.»

«هل عُدتِ إلى المدرسة!» سألتها بعجالة.

«يا أستاذ، عندما أمضيت أسبوعا في البيت، أتت الآنسة رويتر، بالضبط بعد أن وضعت عمتي في سرير؛ ذهبت إلى غرفتها لتتحدث معها، وكانت دمثة ومؤدبة جداً، كعادتها؛ بعد ذلك جلست معي لوقت طويل، وعندما نهضتْ لتذهب، قالت لي: «يا آنسة، لن أتوقف عن ندمي على رحيلك عن مؤسستي، مع أنه صحيح أنك علّمت طالباتك جيدا حتى أصبحن بارعات في الأمور التي علمتيهن إياها ببراعة، وليس لهن أي حاجة للتعليم أكثر من ذلك؛ يجب على معلمتي التالية أن تغطي مكانك،

مع مراعاة الطلبة الأصغر سنا، بأحسن ما تستطيع، بالرغم من أنها أقل مهارة منك، وبلا شك سيكون دورك الآن أن تسعي لمنصب أعلى خلال مهنتك، أنا متأكدة من أنك ستجدين مدارس وعائلات راغبين بالاستفادة من مواهبك.» ومن ثم دفعت لي أجرة آخر فصل. سألت، كما ستظن الآنسة بلا شك، بكل بلادة عما إذا خططت لفصلي من المؤسسة. ابتسمت لفقدان كلامي للباقة، وأجابت «صلتنا كمُوَظِّفة ومُوَظَّفَة تلاشت بكل تأكيد، ولكنها كانت تأمل أن تستعيد سعادة معرفتي، ستكون دائما سعيدة لأن تراني كصديقة،» وثم قالت شيئا عن وضع الشوارع الممتاز، استمرارية الجو الجيد لفترة طويلة، وذهبت وهي مبتهجة.»

ضحكت في سرّي؛ كان هذا يشبه المديرة - بالضبط كما توقعت وخمنت من سلوكها؛ ومن ثم كشف ودليل كذبها، تم تقديمه عن طريق فرانسيس دون وعي منها. «لقد طالبت بعنوان الآنسة هنري دائما»، «تجنبت الآنسة هنري إعطاءه دائماً» إلخ، وهنا وجدتها زائرة في المكان الذي ادعت عدم معرفتها إياه!

تم كبح أي تعليق مني على كلام تلميذتي بالمطر الذي أخذ يتساقط على وجهينا والشارع، وغمغمة عاصفة قادمة. كان التحذير واضحاً في الهواء الساكن وحثتني السماء الداكنة على أخذ الطريق العائد إلى بروكسل، وأسرعت خطاي أنا ورفيقتي، وبينما طريقنا امتدَّ، أسرعنا في النزول. كانت هناك فترة بعد سقوط قطرات المطر الأولى قبل هطول المطر الغزير؛ في الوقت الحالي عبرنا بوابة لوفين، وكنا مجددا في المدينة.

«أين تقطنين؟» سألتها، «سأوصلك إلى بيتك.»

أجابت فرانسيس «شارع ثلج نوتر دام»

لم يكن بعيدا عن بوابة لوفين، ووقفنا على عتبة الباب قبل أن تفرغ الغيوم، التي تقطع بالجلجلة العالية وشلال صواعقها، ما فيها في وابل من المطر.

قالت فرانسيس، «ادخل! ادخل!» بعد أن أوصلتها للمنزل، توقفت قليلا قبل أن أتبعها: أجبرتني الكلمة؛ عبرت عتبة الباب، أغلقت الباب على في وجه العاصفة البيضاء المندفعة اللمعة، وتبعتها إلى الطابق العلوي إلى مسكنها. لم يكن أي منا مبللاً؛ منع غطاء على الباب الفيضان القادم؛ لم يلمس ملابسنا سوى بضع قطرات من الماء؛ لو تأخرنا دقيقة واحدة لما وجدنا قطعة قماش جافة علينا. ماشياً على سجادة من الصوف الأخضر، وجدت نفسي في غرفة مدهونة الجدران وتتوسطها سجادة خضراء مربعة الشكل؛ كان الأثاث بسيطاً، ولكنه كان جميلا ونظيفاً؛ عمَّ نظام ضمن حدودها - هذا النظام الذي يهدئ من روحي الدقيقة عند النظر إليه. وقد ترددت في دخول السكن، لأنني شككت أن ادعاءات الآنسة رويتر عن شدة فقره قد يكون لها أساس، وخفتُ أن أُحرج الخياطة بدخولي إلى مسكنها على حين غرة! قد يكون المكان فقيراً، ولقد كان بالفعل؛ لكن ترتيبه كان أفضل من جميل، ولم يكن ينقصه سوى نار مشتعلة في تلك المدفأة النظيفة، لكنت اعتبرته جذاباً أكثر من قصر. لم يكن هناك نار، ولم يوجد هناك حطب لإشعاله؛ لم تتمكن الخياطة من أن تسمح لنفسها بهذا الدلال، وخاصة الآن، وهي محرومة من قريبتها الوحيدة بسبب الموت، كان لديها مجهودها فقط لتعتمد عليه. ذهبت فرانسيس إلى غرفة داخلية لتزيل قلنسوتها، وخرجت مثالا على الأناقة الاقتصادية، بثوبها الأسود الملائم، الذي يظهر بدقة صدرها وخصرها النحيل، بياقتها البيضاء النظيفة الناكصة عن عنق متناسق وجميل، بشعرها البني الغزير المصفف في خصلات حول صدرها، وفي ضفيرة إغريقية طويلة من الخلف، لم يكن لديها أي زينة-لا

دبوس، ولا خاتم، ولا شريطة؛ كانت جيدة جداً بدونهم-تناسق مثالي، تناسب في الشكل، أناقة مركبة، زودت البيت بشكل متناغم. بحثت عينها عن عيني، التي كانت مثبتة على المدفأة حالما دخلت الغرفة؛ أعلم أنها قرأت فورا الرحمة والألم المشفق الذي أثاره فيَّ فراغ المدفأة الباردة: سريعة الاختراق، وسريعة التصميم، وسريعة التنفيذ، ربطت في ثانية المئزر الهولندي حول خصرها؛ ومن ثم اختفت، وظهرت مرة أخرى مع سلة؛ كان لديها غطاء؛ فتحته، وأخرجت منه خشباً وحطباً؛ رتبتها في الموقد بمهارة.

فكرت «هذا هو كل مخزونها، وسوف تنهيه كله بدافع حسن الضيافة.»

«ما الذي ستفعلينه؟» سألتها، «لن تقومي بإشعال النار في هذه الليلة الحارة؟ سأختنق.»

«من الواضح، يا أستاذ، أشعر بالبرد منذ بدأ المطر بالهطول؛ إلى ذلك، يجب أن أغلي الماء من أجل الشاي، لأني أحب تناول الشاي أيام الأحد؛ ستكون ممنونا لتجربه وتتحمل الحرارة.»

أشعلت عود ثقاب؛ استعر الخشب بالنار؛ عندما يقارن بالظلام، جلبة المعبد بدون ذلك الوهج المسالم الذي بدأ يسطع الآن على القلوب المفعمة بالحياة، بدا مبهجاً جداً. أعلن صوت خرخرة منخفض من غرفة أن هناك كائنا آخر غيري فرحٌ بالتغير؛ قطة سوداء استيقظت بفعل النيران من نومها على كرسي صغير، أتت ومسدت رأسها برداء فرانسيس عندما انحنت لها؛ داعبتها، قائلة إنها كانت مفضلة لديها هي و«عمتها جوليان الفقيرة.»

بعد إشعال النيران وتنظيف المدفأة، و وضعت قطة من نوع قديم، كالذي رأيته في بيوت المزارع القديمة في إنجلترا قرب النار، غسلت

فرانسيس يديها، و أزالت مئزرها في لحظة ومن ثم فتحت خزانة صغيرة، وأخرجت منها صينية شاي، و رتبت عليه طقم شاي خزفياً، الذي أشار حجمه و نوعه وشكله إلى قِدَمه؛ وضع في كل فنجان ملعقة فضية صغيرة؛ و زوج من الملاقط الفضية، بنفس القِدَم، وُضِعا في السكريّة؛ وأخرجت من الخزانة أيضاً إبريق قشطة صغيراً، ليس أكبر من قشرة بيضة. خلال تجهيزها لكل هذه التحضيرات، صادف أن رفعت نظرها، وبعد أن قرأت الفضول في عيني، ابتسمت وسألت: «هل هذا كما في إنجلترا، يا أستاذ؟»

«يشبه إنجلترا قبل مئة عام،» أجبتها.

«هي كذلك حقاً؟ حسن، كل شيء على هذه الصينية على الأقل عمره مئة عام: هذه الأكواب، والملاعق، إبريق القشطة هذا، كلها متوارثة؛ أم جدتي تركته لجدتي، وتركته هي لأمي، وجلبته أمي معها من سويسرا إلى إنجلترا، وتركتهم معي؛ ومنذ كنت فتاة صغيرة، أحببت أن آخذهم معي إلى إنجلترا، من حيث أتوا.»

وضعت بعض الخبز البيستوليت على الطاولة؛ صنعت الشاي، كما يصنعه الأجانب؛ مثال؛ بمعيار ملعقة شاي لكل نصف دزينة من الأكواب؛ وضعت لي كرسياً وسألتني، عندما جلست، بنوع من التمجيد، هل سيجعلك هذا تشعر أنك في بيتك للحظة؟»

«لو كان لي بيت في إنجلترا، أعتقد أنه سيذكرني به.» أجبتها؛ وحقيقةً، كان هناك نوع من الوهم في رؤية فتاة جميلة البشرة، شبيهة بالإنجليز، تجلس على وجبة إنجليزية وتتحدث بالإنجليزية.

وكانت ملاحظتها: «إذن ليس لديك منزل؟»

«لا، ولم يكن لي من قبل. لو امتلكت منزلا يوما ما، لا بد وأن يكون من صنعي، وهذه المهمة لم تبدأ بعد.» وبينما أنا أتحدث، هاجم قلبي ألم مفاجئ: كان ألم إهانة بسبب وضاعة موقفي، وضعف أساليبي؛ بينما ولدت مصاحبة لذلك الألم رغبة بالقيام بأكثر من ذلك، أكسب أكثر، أن أصبح أفضل، وأن أمتلك أكثر؛ ومع مالي المتزايد، لهثت روحي التوّاقة إلى امتلاك منزل لم أمتلكه من قبل، الزوجة التي نذرت نفسي على أن أكسبها.

شاي فرانسيس الذي كان أفضل قليلاً من الماء الساخن، السكر، والحليب، وخبزها الذي لم تستطع أن تقدم لي الزبدة معه، كان لذيذا بالنسبة لي كالمَنّ.

انتهت المأدبة، وتم غسل الأطباق الفخارية وترتيبها، تم تنظيف الطاولة وعادت أجمل، وبعد إطعام قطة العمة جوليان، وبعد تنظيف بعض الغبار عن المدفأة، جلست فرانسيس أخيراً؛ عندما اتخذت كرسياً مقابلا لي، أظهرت، للمرة الأولى، قليلا من الحرج؛ وبلا تعجب، لأنني راقبتها بلا وعي مني عن قرب، تتبعت كل خطواتها وحركاتها بشكل مواظب بعيني، لأنها فتنتني بكياستها واحتراس حركتها - بالتأثير الماهر، النظيف والزخرفي، الناتج عن كل لمسة لأصابعها الخفيفة والجميلة؛ وعندما استقرت أخيرا وهدأت، بدا لي ذكاء وجهها جمالاً، وقد أسهبت فيه وفقاً لذلك. تصاعد لونها بدلا من أن يهدأ بالراحة، وبقيت عيناها مخفوضتين، ولو أني كنت أنتظر أن ترفع عينيها لأشرب من شعاع النور الذي أحببته- نور حيث تذوب النار في النعومة، حيث تليّن العاطفة التغلغل، حيث، الآن على الأقل، لعبت المتعة بالعقل؛ كونه لم يتم إشباع هذا التوقع، بدأت أخيرا بالتفكير أنه علي أن ألوم نفسي على خيبة الأمل؛ يجب أن أتوقف عن التحديق وأبدأ بالكلام، إذا أردت أن أكسر التعويذة التي أجلسَتها بلا

حراك؛ متذكراً التأثير الذي اعتادت السلطة أن تنتجه عليها، قلت: «اجلبي أحد كتبك الإنجليزية، يا آنسة، لأن المطر لا يزال يسقط بغزارة، وربما سيحبسني لنصف ساعة أخرى.»

نهضت من مكانها متحررة وقد أطلق سراحها، أحضرت الكتاب وجلست في الكرسي الذي وضعته بجانبي. اختارت كتاب paradise lost «الفردوس المفقود» من رف الكتب الكلاسيكية، ظانّة، كما أفترض أن الشخصية الدينية ملائمة ليوم الأحد؛ أخبرتها أن تشرع من البداية، و بينما قرأت ابتهال جون ميلتون إلهة الإلهام تلك، التي علمت الراعي اليهودي «على قمة سيناء السرية» كيف أنه في رحم الفوضى، نشأت ونضجت فكرة العالم، استمتعت، بهدوء، الفرحة الثلاثية لكونها جانبي، سماع صوتها، - صوت جميل ومرضٍ لأذني- والنظر، من حين لآخر، إلى وجهها: لتلك الميزة الأخيرة، متعت نفسي فوق كل شيء عندما أجد خطأً في التنغيم، توقف، أو توكيداً؛ طالما قاطعتها، قد أنظر أيضاً، دون أن أثير توردا حميماً.

«قلت لها: «هذا يكفي» عندما انتهت من قراءة بضع صفحات (وقد أخذ هذا وقتاً معها لأنها كانت تقرأ ببطء و توقفت في بعض الأحيان لتسأل أو تتلقى معلومات) - «يكفي؛ و الآن توقف المطر، وعليّ الذهاب.» لأني عندما نظرت صوب النافذة رأيت أن السماء زرقاء، انقشعت الغيوم الرعدية، وشمس آب الراقدة ترسل أشعتها كانعكاس الياقوت خلال شبكية النافذة. نهضت و وضعت قفازاتي.

«ألم تجدي بعد منصبا آخر ليعوض عن الذي فصلتك منه الآنسة رويتر؟»

«لا، يا أستاذ، استعلمت في كل مكان، ولكنهم كلهم يطلبون مني مصادر إثبات، لأصدقك القول، لا أريد أن أطلب من المديرة لأنني لا

أعتقد أنها تصرفت معي بنزاهة أو بطريقة شريفة؛ استعملَت أساليب مخادعة ليثور طلابي علي، وهكذا تجعلني تعيسة خلال عملي في المؤسسة، وقد حرمتني منها أخيرا بسلوك منافق ومتنكر، متظاهرة أنها كانت تتصرف لمصلحتي، ولكن أن تنتزع مني وسيلة عيشي الأساسية، في محنة حيث ليست فقط حياتي، بل وحياة أخرى، اعتمدت على مجهودي: لن أطلب منها معروفاً مجدداً.»

«كيف تنوين المضي إذن؟ كيف تعيشين الآن؟»

«لا أزال أحتفظ بمهنة الحياكة؛ باعتنائي بها ستحميني من الجوع، ولا أشك أنه مع بعض المجهود سأحصل على وظيفة أفضل؛ مضى أسبوعان فقط منذ بدأت المحاولة؛ لم تفتر عزيمتي وشجاعتي بعد.»

«وإذا حصلت على ما تتمنين، ماذا بعد ذلك؟ ما هي أهدافك النهائية؟»

«أن أدّخر كفاية لأعبر القناة: دائما ما أنظر إلى إنجلترا مثل كنعان.»

«حسن، حسن - يجب عليّ أن أزورك مرة أخرى قبل ذلك؛ عمت مساءً الآن،» وتركتها بطريقة مفاجئة؛ كان لدي رغبة كبيرة لأن أقوم بدافع داخلي لأن أودعها بطريقة أكثر دفئاً ومعبرة أكثر: ما الأكثر طبيعية من أن آخذها في حضني، أن أطبع قبلة على وجنتها أو جبينها؟ لم أكن غير عقلاني - هذا كل ما كنت أرغب فيه؛ راضيا عن هذه النقطة، كان باستطاعتي الرحيل راضياً؛ ولم يسمح لي العقل حتى بهذه؛ أمرني أن أشيح بعيني عن وجهها، و إبعاد خطواتي عن شقتها - أن أغادرها بنفس الهدوء والجفاف اللذين تركت بهما السيدة بيليت. أطعت، ولكنني أقسمت بحقد على أن انتقم يوما ما. سأكسب الحق بالقيام بذلك كما أشاء، أو أموت في سبيل

ذلك. لدي هدف واحد الآن - أن أجعل هذه المرأة التي من جينيف زوجتي؛ وسوف تكون زوجتي- هذا في حال أنها تهتم بمعلمها كما يهتم هو بها. وهي ستكون مطيعة، مبتسمة، وسعيدة بتوجيهاتي لو لم تفكر بي كذلك؟ هل ستجلس بجانبي عندما أُملي أو أصلّح بمظهر طائر القاوند القنوع؟ «لأني لاحظت أنه بغض النظر عن كم هي حزينة أو منزعج كان محياها عندما دخلت تلك الغرفة ، مع ذلك بعدما كنت بقربها، وتحدثت معها بعض الكلمات، وأعطيتها بعض التعليمات، وتلفظت ببعض التوبيخ، قد ترغب، دفعة واحدة، أن تأوي إلى ركن سعادة، وتبدو هادئة ومنتعشة. ناسبها التأنيب من بين كل شيء: عندما أوبخها، تقطع بسكين صغيرة قلم رصاص؛ متململة قليلاً، مشمئزة بعض الشيء، مدافعة عن نفسها بكلمات أحادية المقطع، وعندما منعتها عن القلم، خشية أن تقطعه كله، وعندما حُرمت حتى الدفاع عن نفسها بتلك الكلمات القصيرة، بهدف إثارة الحماس المكبوت قليلاً، قد ترفع عينيها أخيرا وتلقي عليَّ نظرة معينة، ملطّفة بالفرح، وأشارت بجموح، لقول الحقيقة، حمّستْني كما لم يحمّسني شيء من قبل، وجعلتني بطريقة ما (بالرغم من أنها لم تعرف)، تابعها، إن لم أكن عبدها. بعد القليل من المشاهد المتشابهة، قد تحافظ معنوياتها على تدفقها، لبعض الساعات، وكما أشرت مسبقاً، تغذت صحتها من ذلك و اكتسبت حيوية، قبل موت عمتها وفصلها من المدرسة، تقريباً أعادت تشكيل جسدها.

استغرقتني كتابة هذه الجمل الأخيرة بضع دقائق؛ ولكني فكرت بمغزاها طيلة نزولي السلالم من غرفة فرانسيس. بالضبط عندما فتحت الباب الخارجي، تذكرت العشرين فرنكا التي لم أُعِدْها لها؛ توقفت: من المستحيل أن آخذها معي؛ من الصعب إرجاعها لمالكتهن الأصلية؛ رأيتها الآن في بيتها المتواضع، وشاهدت كرامة فقرها، كرامة النظام، العناية

الحساسة بالمحافظة، الواضحة في ترتيب واقتصاد منزلها؛ كنت متأكداً من أنها ستجعل نفسها تعاني من إعفائها من سداد الديون؛ أنا متأكد من أن جميل التعويض غير مقبول من أي يد، ربما على الأقل ليس مني: ومع ذلك فقد كانت قطع الخمسة فرانكات الأربع هذه حملا على احترامي لنفسي، ويجب أن أتخلص منهم. خطرت لي حيلة، بلا شك حيلة خرقاء، ولكن لم يكن عندي غيرها. صعدت السلالم، طرقت الباب، ودخلت الغرفة كما لو أني في عجلة من أمري.

«يا آنسة، يبدو أني نسيت أحد قفازاتي، يبدو أنني تركته هنا.»

نهضت فورا للبحث عنه، عندما أعطتني ظهرها، رفعت مزهرية صغيرة -كوني كنت قرب المدفأة-كانت واحدة من طاقم خزفي، بقِدَم أكواب الشاي، ووضعت المال تحتها، وقلت بعد ذلك» أوه، ها هو قفازي! لقد أسقطته عند سياج المدفأة؛ عمت مساء يا آنسة» وخرجت مرّة ثانية.

كانت عودتي مقتضبة كما هي مرتجلة، أعطتني وقتاً لألتقط حزناً؛ لاحظت أن فرانسيس أزالت الجمر الأحمر من الموقد: مجبرة على أن تحسب كل شيء، وأن توفّر في كل تفاصيله ، أزالت فور مغادرتي رفاهية ثمينة جداً على أن تستمتع بها وحدها.

فكرت «أنا سعيد لأن الشتاء لم يحل بعد، ولكن أمطار و رياح تشرين الثاني ستأتي بعد شهرين، هل بمشيئة الله سأحصل على الحق و القوة على أن أضع الفحم في ذلك الموقد!»

كان الرصيف يجف؛ حرك الجو بسمة عطرة ومنعشة، مطهرة بالنور؛ شعرت بالغَرب خلفي، حيث امتدت سماء كالأوبال. أزرق سماوي مخلوط بالقرمزي: الشمس الكبيرة، المتألقة بألوان تيريان، سقطت من طرفه؛

متقدما باتجاه الشرق، رأيت كومة من الغيوم، ولكني وجدت أمامي قوس قزح؛ قوس قزح مثالياً - مرتفعاً، واسعاً و واضحاً. نظرت لفترة طويلة؛ تشربت عيني المشهد، وأفترض أن عقلي استوعبه؛ لأنه تلك الليلة، بعد استيقاظي في حمى لذيذة لوقت طويل، مراقباً البرق، الذي كان يلعب بين الغيوم، و ومض بلون فضي على النجوم، وأخيراً نمت؛ ومن ثم في الحلم تم إنتاج نفس الشمس، وكومة الغيوم، قوس قزح العظيم. وقفت، بدا لي، على شرفة، استندت على حاجز؛ كان هناك فراغ أسفل مني، عمقٌ لا أستطيع سبر غوره، ولكن سماع اندفاع الموجات جعلني أؤمن أنه البحر، بحر ممتد إلى الأفق؛ بحر من الأخضر المتقلب و الأزرق الشديد: كان كل شيء ناعما أمامي؛ كل شيء مغطى بالبخار. تلألأت شرارة ذهبية في الخط الفاصل بين الماء والهواء، عامت، اقتربت، اتسعت، وتغيرت؛ تعلق الشيء بين السماء والأرض، تحت قوس قزح؛ انتشرت الغيوم القاتمة في الخلف. رفرف كما لو أن لديه أجنحة، تدفق هواء لؤلؤي، ناعم، ومنير كالثياب حوله؛ لون منوّر، مخلوط بالقرمزي، ما بدا وجهاً وأعضاء؛ أشرقت نجمة متلألئة على جبهة ملاك؛ ذراع ويدٌ ممدودة، تبرق كالشعاع، موجهة نحو مقدمة سفينة، وهمس صوت في قلبي، «يبتسم الأمل للجهد!»

* * *

20

إن الكفاءة هي كل ما أردته؛ وهدفي الآن هو الكفاءة التي قررت تأمينها؛ ولكني لم أكن في حياتي أبعد عن الهدف. انتهت السنة الثانية بآب (السنة الدراسية)، انتهت الامتحانات، منحت الجوائز، تفرقت المدارس، أغلقت بوابات جميع المدارس والكليات، أغلقت أبواب كل المدارس الداخلية، ولن تفتح مجددا حتى منتصف تشرين الأول. كان آخر يوم في آب قريباً، وماذا كان وضعي؟ هل تقدمت خطوة منذ بداية الفصل الماضي؟ على العكس، لقد تراجعت خطوة. بالتخلي عن ارتباطي كمعلم لغة إنجليزية في مؤسسة الآنسة رويتر، اقتطعت 20 $ من دخلي السنوي؛ قللت دخلي السنوي من 60 $ إلى 40 $، وحتى ذلك المبلغ الذي أحصل علية بعمل غير مستقر.

مر بعض الوقت قبل أن أقول شيئاً للسيد بيليت. المشي تحت ضوء القمر، كما أظن، هو آخر حدث مذكور في هذه الرواية حيث يقطع ذلك الرجل أي شك: الحقيقة هي، منذ ذلك الحدث، طرأ تغير على علاقتنا. هو بالطبع يجهل، أن ساعة صفاء، قمر بلا غيوم، وشبكة مفتوحة، كشفت لي سر الحب الأناني والصداقة المزيفة، قد يستمر بكونه لطيفاً وليّن الجانب

كالعادة؛ ولكني أصبحت شائكاً كسمكة النيص، وقاسياً كهراوة البرقوق؛ لم أبتسم يوماً لمزاحه، ولا لحظة حتى لمجتمعه؛ تم رفض دعواته لتناول الشاي في ردهة منزله، ومرفوضة بصرامة وقسوة أيضاً؛ تلميحاته الممازحة عن المديرة (والتي لا يزال مستمرا بها) تم الاستماع لها بهدوء متجهم ومختلف عن السعادة المشاكسة التي عادة ما كانت تثيرها. تحمل بيليت لفترة طويلة سلوكي الفاتر بصبر؛ حتى أنه زاد من اهتمامه؛ لكن عندما عرف أنه حتى الأدب المتذلل فشل في تحريكي أو ترويضي، تغير أخيراً؛ هو بدوره؛ توقفت دعواته؛ أصبح محياه شكاكاً ومكفهراً، وقرأت في حاجبه المرتبك فحصاً مستمراً ومقارنة للمقدمات، ومحاولة قلقة لاستنباط استنتاجات من كل هذا؛ نجح، كما أظن، منذ فترة في ذلك، لأنه لم يكن بلا هجوم؛ ربما ساعدته الآنسة زُرَيد في حل اللغز؛ على أي حال، وجدت أن الشك اختفى من سلوكه متخليا عن كل التظاهر بالصداقة والمودة، تبنى سلوكاً متحفظا و رسمياً ومهذباً. كانت هذه النقطة التي رغبت في أن أوصله إليها، وشعرت الآن مجدداً بالراحة. لم أحب، وهذا صحيح، وضعي في منزله؛ ولكن تحرري من إزعاج التصنع والخداع أستطيع تحمله، طالما أن لا مشاعر بطولية بالكره أو الغيرة تجاه المدير تشتّت روحي الرابطة الجأش؛ لم يجرحني في نقطة حساسة، شفي الجرح بسرعة و بشكل جذري، مخلفاً فقط إحساساً بالاحتقار لأسلوب الخيانة الذي استخدمه، وفقدان ثقة دائم في اليد التي ضبطتها تحاول أن تطعن في الظلام.

استمرت هذه الحالة حتى منتصف تموز، ومن ثم كان هناك تغيير؛ جاء بيليت إلى البيت في إحدى الليالي، متأخرا ساعة عن موعده المعتاد، في حالة من الثمالة، شيء غريب عنه؛ لأنه لو كان فيه بعض أسوأ عيوب مواطني بلده، لديه على الأقل واحدة من فضائلهم، مثلاً، الرصانة. مع ذلك، فقد

كان ثملاً في هذه المناسبة، إنه بعد أن أيقظ المؤسسة كلها (باستثناء الطلاب، حيث كانت غرفهم خلف الصفوف في مبنى منفصل عن المسكن، كانوا خارج نطاق الإزعاج) بضربه لجرس القاعة وطلبه لأن يتم جلب العشاء فوراً، لأنه كان يحسب الوقت ما بعد الظهيرة، بينما أعلنت أجراس المدينة حلول منتصف الليل؛ بعد أن وبخ الخدم على كونهم عديمي الدقة، وذهب بعيدا في معاقبة أمه المسكينة، التي نصحته لأن يخلد إلى سريره، بدا يهذي «بالإنجليزي اللعين، كريمسوورث». لم أنم بعد؛ أبقتني بعض الكتب الألمانية مستيقظاً لوقت متأخر؛ سمعت الجلبة في الأسفل، وميزت صوت المدير المرتفع على نحو مرعب وغير عادي. عندما فتحت الباب، سمعت مطالبة بإحضار كريمسوورث هنا ليقطع عنقه على طاولة القاعة ويغسل شرفه، الذي أكد أنه في وضع قذر، في الدم البريطاني الجهنمي. فكرت «لا بد أن يكون مجنوناً أو ثملاً، وفي كلا الحالتين ستكون العجوز و الخادمات في حاجة إلى مساعدة رجل» لذلك نزلت السلالم إلى القاعة. وجدته يترنح وعيناه تدوران في جنون-كان منظره جميلاً، بين الغبي والمعتوه.

قلت له «تعال يا سيد بيليت، من الأفضل أن تخلد إلى السرير،» وأمسكت بيده. زادت حماسته بالطبع عند رؤية الشخص الذي كان يطالب بدمه: نازع وضرب بغضب - ولكن رجلاً ثملاً لا يجاري رجلاً واعياً؛ وحتى في الوضع العادي، لا يستطيع جسد بيليت الهزيل أن يتغلب على جسدي الصحّي. أخذته إلى السرير. خلال العملية لم يتوقف عن الكلام الذي، بالرغم من أنه مكسر، كان فيه معنى؛ بينما كان يَصِمُني بنسل غادر لدولة خائنة، لعن، بنفس النفس، زُرَيْد رويتر؛ سماها «امرأة حمقاء وشريرة»، والتي في نزوة فاسقة، رمت نفسها على مغامر عديم المبادئ؛ موجهاً آخر تسمية بلطمة منحرفة مصوبة تجاهي. تركته وهو يقفز خارج

السرير الذي وضعته فيه؛ ولكن عندما أخذت حيطتي وأغلقت باب الغرفة خلفي، رجعت إلى غرفتي، متأكداً من حجزه حتى الصباح، ولدي حرية استنباط نتائج من المشهد الذي شاهدته للتو.

الآن، بالضبط في هذا الوقت وقت المديرة الملسوعة بفتوري، المسحورة بازدرائي، ومثارة بتفضيلي على شخص آخر، في كمين من صنعها-لقد وقعت في نفس شباك الشغف الذي تمنت أن توقعني به. يا لحالة الأمور في تلك الغرفة، فهمت، من حالة التي وجدت موظّفي فيها، حبه لها قد فضح صدها وميولها، إلى حد ما، يمكنني القول إن العاطفة كلمة دافئة ونقية جداً على الموضوع - جعله يرى تجويف قلبها، المفرغ من هذه الصورة، قد امتلأ الآن بصورة مدرسة. لم تكن مفاجأتي صغيرة عندما حصلت على هذه النتيجة؛ بيليت، بمدرسته القديمة، كان ملائماً وزوجاً مفيداً لها -كانت زُرَيْد حذرة جداً، امرأة تبحث عن مصلحتها- تساءلت أنه قد ينتصر الذوق الشخصي لديها للحظة على الفائدة الدنيوية: مع ذلك، كان واضحاً، مما قاله بيليت، انه لم تقم برفضه وحسب، ولكنها أفصحت عن بعض تعابير التحيّز لي. كانت إحدى صيحاته الثملة «تلك المرأة المغناج تحب شبابك، أنت أيها الأحمق! وتتحدث عن سلوكك النبيل، وتقول عن إنجليزيتك اللعينة شكليات- وعن أخلاقك النقية، لطيفة! تقول إنك مثل كيتون في الأدب، تلك السخيفة!» فكرت أن روحها لا بد أن تكون فضولية، لأنه على الرغم من ميل طبيعي وقوي لتقييم ميزات الثروة والوضع المفرطة، الازدراء الساخر من التابع الفقير أظهرت انطباعاً أعمق من الذي تشكوه من قبل المجاملات المادحة من مدير مدرسة. ندت عني ابتسامة داخلية؛ ومن الغريب القول، بالرغم من ذلك، حبي النظيف، لم يحرك الإخضاع المزعج حبي النقي، مشاعري بقيت غير ممسوسة. عندما رأيت المديرة في اليوم

التالي، وعندما قدمت عذرا لتقابلني في الرواق، وتوسلت ملاحظة بأسلوب ونظرة مكبوحة لمستوى تواضع الهيلوتس (طبقة العبيد في إسبارطة القديمة)، لم أستطع أن أحب، ولكني بالكاد أشفقت عليها. أن أجيب باختصار وجفاف أسئلة عن صحتي -أمر بها بانحناءة متشددة- كان كل ما استطعت فعله؛ كان لحضورها وسلوكها، ولبعض الوقت سابقاً، تأثيراً فريداً علي: سدَّت كل ما هو جيد وأثارت كل ما هو ضارّ في طبيعتي؛ أضعفا حواسي في بعض الأوقات، ولكنهما تسببا بقسوة قلبي. كنت واعياً بالضرر المُلحق، ونازعت نفسي لأتغير. لم أكره طاغية من قبل؛ وامتلاك عبد، اقتربت من تحويلي إلى ما أمقته! كان هناك القليل من المتعة في استقبال هذا البخور من عبدة جذابة وشابة؛ وإحساس بالذل في كل تجربة هذه المتعة. عندما انسلت حولي بخطوة العبدة الخفيفة، شعرت بأني بربري وشهواني كالباشا. تحملت إجلالها بعض أحياناً؛ ووبختها أحياناً أخرى. قام عدم مبالاتي وقسوتي بزيادة الشر الذي أردت فحصه.

«ازدراء موفق!» سمعتها مرة وهي تقول لأمها، «إنه جميل مثل أبولو عندما يبتسم متجبراً.»

وضحكت تلك الكهلة الفرحة، وقالت إنها حسبت ابنتها مسحورة، لأنه لا يوجد فيّ أي شيء جميل، عدا عن كوني سويا وبلا تشوّه. تابعت «بالنسبة لي فهو يشعرني بتأثير البومة بنظارته هذه.»

فتاة كبيرة فاضلة! لكنت ذهبت وقبلتها ما لم تكن كبيرة في السن، وسمينة، وذات وجه محمر؛ بدت كلماتها العاقلة الصادقة مفيدة جداً، مقارنة مع أكاذيب ابنتها الرهيبة.

عندما استيقظ بيليت في الصباح بعد نوبته المجنونة، بدا عليه أنه لا يذكر شيئاً مما حصل الليلة الماضية، ولحسن الحظ أنّ أمّه اختارت أن تمتنع

عن إخباره أني كنت شاهداً على ذلّه. لم يلجأ مجدداً إلى النبيذ ليعالج حزنه، ولكن حتى في وضعه الواع أظهر أن حديد الغيرة قد انغرس في روحه. رجل فرنسي ضليع، لم تنمحِ صفة الوحشية الوطنية بالطبيعة في تركيب مكونات شخصيته؛ بدت بداية وصوله إلى الغضب المخمور، عندما كانت بعض براهينه على كرهي نابعة من شخصية شيطانية، هي الآن تتكشّف بخفية في تقلص الملامح اللحظية، وومضات من الوحشية في عينيه الزرقاوين، عندما صدف والتقت عيناه بعيني. تجنب الحديث معي تماماً؛ تم إعفائي الآن من زيف تهذيبه. في العلاقة المتبادلة، ثارت روحي في بعض الأوقات على العيش في المنزل والتحرر من خدمة رجل كهذا؛ ولكن من يكون حراً من قيد الظروف؟ في ذلك الوقت لم أكن حراً: اعتدتُ على الاستيقاظ كل صباح متحمساً لكسر عبوديته، وأن أخرج حقيبة سفري تحت ذراعي، حتى لو كنت شحاذاً، لكن رجلاً حرّاً؛ وفي المساء، عندما عدت من مدرسة البنات الداخلية، في أذني صوت مبهج؛ وجه معين، ذكي جدا، مع أنه مطيع، تأملي، ومع ذلك ناعم، في عيني؛ ملامح شخصية محددة، فخورة ومطواعة في نفس الوقت، حساسة وحصيفة، جادة وحماسية، في رأسي؛ نوع معين من المشاعر، متحمس ومتواضع، لبق وعمليّ، نقي وقوي، يفرح ويزعج ذاكرتي، رؤى عن روابط أتوق لوصلها، لواجبات جديدة أتوق لتولّيها، أخذت مني المتجول والعاصي، وأظهرت احتمال نصيبي المكروه في ضوء الفضيلة الإسبارطية.

خمدَ غضب السيد بيليت؛ كان أسبوعان كافيين لارتفاعه، تطوره، وإخماده: خلال تلك الفترة تم فصل ذلك المعلم البغيض، وفي نفس الفترة صرّحت بقراري لأتبع وأجد طالبتي، وعند رفض طلبي لعنوانها، قدمت استقالتي من وظيفتي. هذا الفعل الأخير أعاد الآنسة رويتر إلى صوابها؛

حصافتها، بصيرتها، المضللة بوهم فاتن، عادوا إلى الطريق الصحيح عندما اختفى هذا الوهم. لا أعني بالطريق الصحيح طريق المديرة الصعب والمنحدر، لن تسير في ذلك الطريق؛ ولا الطريق العام للفطرة السليمة الذي انحرفت عنه كثيراً. عندما بحثت هناك بعناية ووجدت - متابعت بجدية - طريق خاطبها الكبير السيد بيليت. فتجاوزته بسرعة. لا علم لي بالأساليب التي اتبعتها لتعميه، لكنها نجحت في تسكين غضبه، وخداع بصيرته، كما تم إثباته عن طريق تغير سلوكه وأسلوبه؛ لا بد من أنها تمكنت من إقناعه بأني لم أكن ولن أكون منافساً له، لأن أسبوعيَّ الغضب تجاهي انتهيا برقة ولطف، مخلوطة بالقليل من الرضا عن النفس، مضحكة أكثر منها مغيظة. تمت تمضية فترة العزوبية في حياة بيليت بأسلوب فرنسي بتجاهل القيود الأخلاقية، وظننت أن حياته الزوجية ستكون فرنسية أيضاً. كان يتباهى أمامي كم كانت معرفته تشكل مصدر خوف لأزواج معينين؛ استنتجت أنه لن يكون من الصعب الآن أن أذيقه من نفس الكأس.

استمرت المحنة. فور بداية الإجازة انتشر خبر التجهيز لحدث مهم خلال مبنى السيد بيليت: دهانون، صقّالة، ومنجدون بدأوا العمل فوراً، ودار حديث حول «غرفة السيدة،» «غرفة معيشة السيدة» لا أعتبره من المحتمل أن المالكة القديمة التي تمتعت في الوقت الحاضر بهذا اللقب في منزلنا، قد ألهمت ابنها بحماس التقوى النبوي، كما لتحثّه ليُعِدَّ شققاً فقط لاستخدامها، استنتجت، مع الطباخة، والخادمتين، أن هناك سيدة يافعة مُقَدر لها أن تكون نزيلة هذه الغرف السعيدة.

نشر إعلان عن الحدث القادم. في الأسبوع القادم سيرتبط كل من السيد فرانسوا بيليت والآنسة زُرَيْد رويتر برابطة زواج. أخبرني السيد بنفسه بهذا الخبر؛ منهيا حديثه بتعبير عن رغبته أنه يجب عليّ أن أكمل،

حتى الآن، في كوني مساعده وصديقه الموثوق به؛ واقتراح بأن يزيد راتبي مئتي فرنك بالسنة. شكرته، ولم أعطه جواباً قاطعا ذلك الوقت، وعندما تركني، خلعت قميصي وارتديت معطفي، وانطلقت في سير طويل خارج بوابة فلاندرز، لأبرد من دمي، وأهدئ أعصابي، وأضع أفكاري المبعثرة في ترتيب معين. في الحقيقة، لقد استلمت ما كان فعلياً إقالتي. لم أخف، لم أرغب في أن أخفي عن نفسي قناعة أن كوني متأكداً الآن أن الآنسة رويتر قد أصبحت مدام بيليت لن ينفعني أن استمر في كوني مقيماً عالة في المنزل الذي عما قريب سيصبح لها. لم يكن سلوكها ناقصاً معي لا في الكرامة ولا في الأدب؛ لكنني عرفت أن مشاعرها السابقة لم تتغير. اللياقة مكبوحة، وقنّعته السياسة، وقد تكون الفرصة قوية جداً لأيّ منهم ، قد يحطم الإغراء قيودهم.

لم أكن البابا ، لا أستطيع التباهي بالنجاح التام: باختصار، لو بقيت، احتمالية أنه، في ثلاثة أشهر سيكون هنالك رواية فرنسية حديثة قيد الإعداد تحت سقف بيليت. والآن، إن الروايات الفرنسية لا تناسب ذوقي، إما عمليا أو نظرياً. بما أن خبرتي في الحياة محدودة، كانت لدي الفرصة مرة في تأمل، مثال على النتائج المولدة عن الخيانة المنزلية. لم يكن يحيط بهذا المثال أي هالة ذهبية، رأيته مجرداً وحقيقياً، وكان أمراً مقيتاً. رأيت عقلاً منحطاً بتنفيذ خدعة لئيمة، بعادة الخداع والغدر، وجسد محروم من قبل التأثير الملوث للروح الملوثة بالرذيلة. لقد عانيت كثيرا من الرؤية المطولة لهذا المشهد؛ هذا الكم من المعاناة التي لم أندم عليه الآن، لأن ذكرها عملت كمضاد للإغراء. نقشوا على عقلي قناعة أن السعادة غير المخلصة، المبنية على سعادة الآخرين، هي سعادة مزيفة وسامّة ، تجويفها يخيّب، ويعذّب سمّها بقسوة بعد ذلك، وتفسد أخلاقها إلى الأبد.

تمخض كل هذا عن نتيجة أنه يجب علي أن أغادر منزل بيليت، وفوراً. قال الحذر «لكن، أنت لا تعلم أين تذهب، ولا كيف تعيش،»؛ وحينها، أتاني حلم الحب الحقيقي: بدت فرانسيس هنري واقفة بجانبي؛ خصرها النحيل يدعو يدي؛ يدها تغازل يدي؛ شعرت بأنها خلقت لتأوي إلى يدي؛ لم أستطع رفض حقي بها، ولم أستطع سحب عيني بعيدا عن عينيها، حيث رأيت الكثير من السعادة، توافق تام بين قلبين؛ كان لدي تأثير على تعبيرها؛ حيث أستطيع أن أثير السعادة، أغرس الرعب، أحرك البهجة العميقة ، أوقظ الروح المتلألئة، وبعض الأحيان إيقاظ الرهبة الممتعة. أن أحقق آمالي، أن تستحق قراراتي، شكلن تنظيماً ضدي؛ وها أنا على وشك أن أقع في مهاوي الفقر؛ «وكل هذا» اقترح صوت داخلي، «لأنك تخاف شراً قد لا يقع!» «سيحدث؛ أنت تعلم أنه سيحدث.» أجاب ذلك المراقب العنيد، الضمير. «قم بما تشعر أنه الصحيح، أطعني، حتى في مستنقع الفقر سأزرع لك موضع قدم ثابت.» وحينها، بينما مشيت بسرعة على الطريق، ظهرت أمامي فكرة عن كائن عظيم، موجود لكنه غير مرئي، والذي بإحسانه أراد فقط فائدتي، وانتظر ليرى ما إذا سأطيع صوته، سمع في همسات ضميري، أو سمع سفسطائيتي التي بحث عنها عدوه وعدوي -روح الشر- لِيُضلّني بها. كان الطريق المقدس وعراً وشاقاً؛ مليئاً بالطحالب ومتدنّياً الطريق الأخضر الذي نثر عليه الإغراءُ الورودَ؛ في حين، بدا لي، إله الحب، صديق كل شيء موجود، سيبتسم راضياً إن أنا شددت أزري ووجهت نفسي للارتقاء الوقح؛ لذلك، من جهة أخرى، بدا كل ميول للانحدار المخملي إنه يشعل بريق انتصار على حاجب الشيطان الكاره للبشر، العاصي لله. استدرت بسرعة و رشاقة؛ تراجعت خطوتي بسرعة؛ في غضون نصف ساعة كنت مجدداً في بيت السيد بيليت: بحثت

عنه في مكتبه؛ محادثة مختصرة، وَفَى شرح مختصر بالغرض؛ أثبت سلوكي أني كنت عازماً؛ ربما هو وافق على قراري من قلبه. بعد حديث دام عشرين دقيقة، عدت إلى غرفتي، وقد حرمت نفسي من وسائل العيش، وحكمت على نفسي بمغادرة منزلي الحالي، بمهلة لمدة أسبوع ليجدوا معلماً آخر.

* * *

21

مباشرة بعدما أغلقت الباب، رأيت رسالتين ملقاتين على الطاولة؛ كانت فكرتي أنهما دعوتان من أصدقاء بعض طلابي؛ استلمت بطاقات كهذه بين الفينة والفينة، ومعي مراسلات الاهتمام الزائد كانت مستحيلة؛ لم يكن وصول ساعي البريد حدثا مهما بالنسبة لي منذ وصلت إلى بروكسل. وضعت يدي بلا مبالاة على الوثائق، وملقياً نظرة عليها بكل برود و بطء، استعددت لأكسر الختم، كانت عيني أوقفت يدي وعيني؛ رأيت ما يثيرني، كما لو وجدت صورة واضحة حيث توقعت أن أجد فقط صفحة بيضاء: على أحد الغلافين يوجد ختم إنجليزي؛ وعلى الآخرين توقيع واضح وجميل لآنسة؛ فتحت الثاني أولاً.

أستاذ

عرفت الذي فعلته في الصباح التالي بعدما زرتني؛ قد تكون متأكداً من أنني يجب أن أنفض الغبار عن الأواني الخزفية، كل يوم؛ وكما لا أحد غيرك دخل غرفتي من أسبوع، وبما أن مال الجنية (هو المال الذي تضعه الجنية بدلا من السن الذي يضعه الطفل تحت الوسادة) ليس شائعا في بروكسل، لم أستطع أن أشك بالذي وضع العشرين فرنكاً عند الموقد.

ظننت أني سمعتك تحرك المزهرية عندما كنت منحنية للبحث عن القفاز تحت الطاولة، وتعجبت تخيلك أنه وصل إلى كوب بهذا الصغر. الآن، يا أستاذ، المال ليس لي، ولا يجب أن أحتفظ به؛ لن أرسله مع هذه الرسالة لأنه قد يضيع بالإضافة إلى أنه ثقيل؛ لكني سأعيده لك عندما أراك، ويجب عليك ألا تتمنع عن أخذه؛ لأنه في المقام الأول، أنا متأكدة، يا أستاذ، إنك تفهم أن المرء يجب أن يسدد ديونه؛ وأنه من المرضي ألا تدين لأحد بشيء؛ وفي ثانياً، أستطيع الآن أن أكون صريحة، بما أني حصلت على وظيفة. هذا الوضع الأخير هو سبب مراسلتي لك، لأنه من الجميل مشاركة الأخبار الجيدة؛ وفي تلك الأيام، وفي هذه الأيام لدي فقط أستاذي الذي أستطيع أن أخبره أي شيء.

تم استدعائي، يا أستاذ، منذ أسبوع من قبل السيدة وارتون، سيدة إنجليزية؛ كانت ابنتها الكبرى على وشك الزواج، وقد أهداها قريب غني وشاحاً وثوباً من القماش المكلف، ثميناً، كما قالوا، كالجواهر، ولكنه تضرر قليلاً مع الوقت، وأوكلوا إلي مهمة إصلاحها. كان يجب عليّ القيام بها في المنزل؛ أعطوني فوق ذلك، بعض التطريز لأكمله، ومضى أسبوع قبل أن أنهي كل شيء. أتت الآنسة وارتون إلى الغرفة أحيانا وأنا أعمل وجلست معي، وهكذا فعلت السيدة وارتون أيضاً؛ جعلتني أتحدث الإنجليزية؛ سألن أين تعلمت أن أتحدثها جيداً؛ ثم سألوني عما أعرفه بالإضافة إلى ذلك، ما الكتب التي قرأتها؛ بعد قليل بدا أنهم أعجبوا بي، معتبرين أنني بلا شك امرأة متعلمة. أحضرت سيدة وارنغتون في أحد المساءات امرأة باريسية لتختبر مدى معرفتي بالفرنسية؛ كانت النتيجة: بسبب ظُرْف الأم والابنة حول الزواج، والذي حثهم على فعل الخير، وإلى حد ما لأنهن خيّرات، قررن أن الأمنية التي أسررتها لهن بالقيام بشيء أكثر من الحياكة

كانت أمنية منطقية جداً؛ وفي نفس الوقت أخذنني بعربتهن إلى منزل السيدة D، مديرة أول مدرسة إنجليزية في بروكسل. يبدو أنها في حاجة لسيدة فرنسية لتعطي دروساً في الجغرافيا، والتاريخ، والقواعد، والكتابة، باللغة الفرنسية. أوصت السيد وارتون عليّ بحرارة؛ وبما أن اثنتين من بناتها طالبتان في المدرسة، نفعت وصايتها في إعطائي المنصب وتم الاتفاق على أني سأعمل لست ساعات يومياً (لأنه ولحسن الحظ، لم يكن مطلوباً مني أن أعيش في المنزل؛ لكنت أسفت على تركي لمنزلي.) ومقابل ذلك ستعطيني السيدة D ألفاً ومئتي فرنك في السنة.

أترى، لذلك يا أستاذ أنّي الآن غنية؛ أغنى مما كنت آمل في حياتي كلها: أشعر بالامتنان لها، خاصة بعد أن بدأ نظري يتضرر من العمل المستمر في الحياكة؛ وكنت أتعب، أيضاً من البقاء مستيقظة طول الليل، ومع ذلك لا أكون قادرة على إيجاد الوقت للدراسة أو القراءة. بدأت أخاف من أنني سأمرض، وأصبح غير قادرة على أؤمن معاشي؛ زال هذا الخوف الآن بدرجة كبيرة؛ وفي الحقيقة، يا أستاذ، أنا ممتنة كثيراً لله على هذه الراحة؛ وأشعر أنه ضروري، أن أتحدث عن سعادتي مع شخص طيب القلب كفاية ليشعر بالبهجة عندما يرى الآخرين يبتهجون. لذلك لم أتمكن من مقاومة إغراء الكتابة لك؛ قلت لنفسي إنه من الجميل أن اكتب ولن يكون مؤلما بالضبط، بالرغم من أنه قد يكون متعباً للأستاذ ليقرأه. لا تكن غاضبا بسبب إطنابي وعدم لباقة تعابيري، وصدقني.

طالبتك المحبة

ف.إ.هنري

بعد أن قرأت هذه الرسالة، تأملت في محتوياتها لثوان -ما إذا كان بمشاعر فرح أو غير ذلك سألاحظه فيما يلي- وثم التقطت الرسالة الثانية. كانت مكتوبة بخطّ يد لم أتعرف عليها - صغيرة، ومرتّبة؛ ليست رجولية ولا هي بالضبط أنثوية؛ حمل الختم طبقة من الأذرع، ومنها استطعت أن أعرف أنها ليست من عائلة سيكوم، بناء على ذلك لا يمكن أن تكون الرسالة من أحد أقربائي المنسيين. ممَّن إذن هذه الرسالة؟ أزلت المغلف؛ كانت الرسالة المطوية داخلها كالتالي:

ليس لدي أدنى شك من أنك تبلي جيداً في فلاندر الدهنية؛ على الأرجح تعيش على دهون الأرض الزلقة؛ جالسا كالإسرائيلي الأسود النحيل الشعر طويل الأنف في أماكن المتعة المصرية؛ أو كابن ليفي وقح قرب المرجل النحاسي للمعبد، ومن حين لآخر تغرق بصنارة مقدسة وتستخرج من البحر، أسمن كتف (الكتف اليمين لحيوان يُقدّم كشكر للراهبين في قانون اللاويين)، أعلم هذا، لأنك لا تراسل أحداً في إنجلترا. يا لك من كلب ناكر للجميل! أنا، بمفعول توصيتي حصلت لك على المكان الذي تعيش فيه الآن في ترف، ومع ذلك ولا حتى كلمة امتنان، أو حتى شكر، تقدمه رداً على ذلك؛ ولكني قادم لرؤيتك، وعقلك الأرستقراطي المشوش، يشكل فكرة بسيطة عن الركلة الافتراضية التي لدي، في حقيبتي، جاهزة لتُقَدَّم إليك عند وصولي.

إبان ذلك، أعرف كل علاقاتك، وحصلت للتو على معلومات، عن طريق رسالة براون الأخيرة، إنك على وشك أن تتزوج من معلمة مدرسة بلجيكية - آنسة زينوبي، أو اسماً كهذا. ألن ألقى نظرة عليها عندما آتي! وهذا قد تعتمد عليه: إن لاءمت ذوقي، أو وجدتها أو تستحق، من وجهة نظر مالية، سأنقض على جائزتك آخذها بعيداً رغماً عن أنفك. مع ذلك أنا

لا أحب القصيرات والبدينات، و يقول براون إنها قصيرة وبدينة -ملائمة أكثر لرجل نحيل مثلك. «كن حذراً لأنك لا تعلم اليوم ولا الساعة عندما-» (لا أرغب في الكفر، لذلك سأتركها فارغة) - «تعال»

لك بإخلاص،

هانسدن يورك هانسدن

«همم» قلت، وهنا وضعت الرسالة، نظرت مجدداً إلى الكتابة المرتبة الصغيرة، ليست كخطّ تاجر، وليست بالطبع كخط أي رجل عدا هانسدن. يتحدثون عن الشبه بين التوقيع والشخصية: ما وجه الشبه هنا؟ استرجعت وجه الكاتب وبعض الصفات التي شككت، وعرفت إلى حد ما أنها تخص طبيعته، وأجبت، «صفقة رابحة.»

كان هنسدن إذن قادم إلى بروكسل، ولم أعرف متى سيأتي؛ قادما مشحونا بتوقع أن يجدني على قمة الازدهار، على وشك الزواج، والدخول إلى عش دافئ، والاستلقاء بجانب زوجة جميلة صغيرة.

«أتمنى أن يستمتع بصحة الصورة التي رسمها» فكرت، «ماذا سيقول عندما، بدلا من زوج من طائر القمر السمينين يهدلان في منزل من الزهور، يجد طائر غاق مائياً وحيداً يقف بلا زوجة وبلا مأوى على حافة الفقر الكئيبة؟ أوه، أربكه! فليأت وليضحك على الفرق بين الإشاعة والحقيقة. ما لم يكن الشيطان نفسه بدلا من أن يشبهه، لن أتنازل وأبتعد عن طريقه، أو أن أتصنع بسمة أو كلمة مبهجة كوسيلة لأتفادى سخريته.»

ثم رجعت إلى الرسالة الأخرى: لمستْ وتراً لا أستطيع تهدئته بوضع أصابعي في أذنيّ، لأنه اهتز داخلي؛ بالرغم من أن صوته قد يكون موسيقى

جميلة، فإن إيقاعه كان أنيناً. إن فرانسيس كانت مرتاحة من ضغط الفقر، وأنه تمت إزالة لعنة العمل المفرط عن كاهلها، ملأتني السعادة؛ إن فكرتها الأولى عن الازدهار كانت مشاركة فرحتها معي، أرضت أمنية قلبي. نتيجتان لرسالتها كانتا مفرحتين، وعذبتين كقطرتي رحيق؛ ولكن وضع شفتي على الكوب لمرة الثالثة، كانا محملين بالنكد والمرارة.

قد يعيش شخصان ذوا رغبات متواضعة، عيشة جيدة في بروكسل براتب بالكاد يكفي شخصاً واحداً في لندن: وذلك لا يعود على أن ضرورات الحياة أغلى في العاصمة الثانية، أو أن الضرائب أعلى من التي في العاصمة الأولى، بل لأن الإنجليز يتجاوزون كل الأمم التي على الأرض، وعبيد للعادة والعرف، للرأي، للرغبة في الحفاظ على مظهر محدد، من حب الإيطاليين للرهبنة، والفرنسيين للخيلاء، والروسين لقيصرهم، أو الألمانيين لجعّتهم السوداء. رأيت درجة من المنطق في التنظيم المتواضع لأهل بيت بلجيكي، قد يخجل أناقة، و وفرة، و رفاهية، التحسينات المتكلفة لمئة قصر إنجليزي. في بلجيكا، في حال أنك تستطيع كسب المال، تستطيع ادخاره؛ هذا نادر الإمكانية في إنجلترا؛ التفاخر هناك يبدد بشهر ما كسبه العامل بسنة. عار أكثر على كل الطبقات في تلك الدولة الوافرة والفقيرة لتبعيتهم المتذللة للموضة؛ أستطيع أن أكتب فصلاً أو اثنين عن هذا الموضوع، لكن يجب أن أمسك عن ذلك، على الأقل في الوقت الحالي. لو أنني استرجعت مبلغ 60 $ في السنة أستطيع، الآن وفرانسيس لديها 50 $، لكنت ذهبت إليها مباشرة هذا المساء، وقلت الكلمات التي، بقيت تضايق قلبي بالحمّى وهي مكبوتة؛ سيكفي مدخولنا المشترك، مثلما كان علينا ترتيبها، لدعمنا معاً؛ بما أننا نعيش في دولة حيث الاقتصاد ليس مرتبكاً بالدناءة، حيث التوفير في اللباس، والطعام، والأثاث، ليسوا مرادفين للسوقية في هذه

النقاط المتعددة. لكن المعلم الذي لا مكان له، عديم المصادر، وليس لديه علاقات، يجب ألا يفكر بهذا؛ شعور كالحب، كلمة كالزواج، وضعت خطأ في قلبه، وعلى شفتيه. للمرة الأولى شعرت ما يعنيه أن تكون فقيراً؛ الآن ارتدت التضحية التي قمت بها بتخليّ عن وسيلة عيشي هيئة جديدة؛ بدلا من تصرف صحيح، مشرف، وعادل، بدا تصرفاً متعصبا وطائشاً؛ أخذت أدور في غرفتي تحت تأثير تأنيب الضمير اللاذع؛ مشيت لربع ساعة من الحائط إلى الشباك، وعند النافذة، بدا أن تأنيب الضمير يواجهني؛ وازدراء الذات عند الجدار: تحدثا معا وفقاً للضمير.

وصرخت: «فلترحلوا أيها المعذبون الأغبياء! قام الرجل بواجبه؛ يجب ألا تغويه بأفكار حول ماذا كان ليحدث؛ لقد أحسن صنيعاً بتنازله عن خير مؤقت ومحتمل ليتجنب شراً أكيداً ودائماً. دعوه يتأمل الآن، وعندما يزول غباركم المعمي وهمهمتكم المصمّة للآذان، سيكتشف الطريق.»

جلست؛ وضعت جبهتي على راحتي، فكرت وفكرت لساعة ولساعتين؛ بلا جدوى. شعرت كالشخص المحبوس في قبو تحت الأرض، الذي ينظر إلى السواد القاتم؛ إلى سواد مضمون بأسوار من حجر حوله، وبأكوام من البنايات خلفه، يتوقع أن يخترق النور من خلال الغرانيت، وخلال الإسمنت الصلب كالغرانيت. لكن كان هناك صدوع، أو ربما كان هناك صدوع، في أكثر البناء تنظيماً؛ كان هناك صدع في زنزانتي الغائرة؛ لأنه، أخيراً، رأيت، أو بدا لي أني رأيت، شعاعاً باهتاً، بالتأكيد، وبارداً، وملتبساً، ولكنه لا يزال شعاعاً، لأنه أظهر الطريق الضيق الذي وعد به الضمير بعد ساعتين أو ثلاث من البحث المعذِّب في العقل والذاكرة، أخرجت إلى النور بقايا ملابسات معينة، ورأيت أملاً أنه بوضعهم معاً قد تتشكل وسيلة. هذه هي الملابسات باختصار:

قبل ثلاثة أشهر، قام السيد بيليت، في حفلته، بدعوة الأولاد، وهي دعوة تشتمل على حفلة متعة لمكان معين في منتجع عام في ضواحي بروكسل، الذي لا أذكر إلى الآن اسمه، ولكن كان بقربه العديد من البحيرات المدعوات بالبِرَكْ، وكان هناك بركة واحدة، أكبر من البقية، حيث اعتاد الناس على أن يذهلوا أنفسهم بالتجديف حولها بقوارب صغيرة. بعد أن تناول الأولاد كمية كبيرة من الفطائر، وشربوا عدة زجاجات من البيرة، وسط ظلال حديقة صُنِعت وتم توفيرها لمثل تلك الأمور، طلبوا من المدير المغادرة وأن يأخذوا دوراً في البركة. نجح نصف دزينة من الأولاد في الحصول على الإذن، وأوكلت لي مهمة مرافقتهم كمراقب. كان هناك عبر المجموعة ولد اسمه جون بابتست فاندنهوتن، شاب فلمنكي مضجر ليس طويلاً، ولكن حتى الآن في عمر السادسة عشرة، يمتلك توسعاً وعمقاً للتطور الذاتي قومياً بحق. صدف وأن كان جون أول ولد ينزل في القارب؛ تعثر، تمايل إلى جهة، ثار القارب بسبب وزنه وانقلب. غرق فاندنهوتن كالورقة، صعد، وغرق مرة أخرى. خلعت معطفي وصداري في لحظة؛ لم تتم تربيتي في إيتون ولم أركب القوارب أو سبحت هناك لعشر سنوات لا شيء؛ كان عملا سهلا عليّ أن أهبّ لمساعدته. صرخ الأولاد والمراكبي؛ ظنوا أنه سيكون هناك حالتا وفاة بالغرق بدلا من واحدة؛ ولكن عندما ارتفع جون للمرة الثالثة، أمسكت به من قدمه وياقته، وفي ثلاث ثوان أخرى كنا على البرّ بأمان. لأقول الحقيقة، كان فضلي في الحادثة قليلاً هنا لأني لم أتعرض لأي خطر، ولم أصب بالبرد بعد ذلك من البلل؛ ولكن عندما سمع السيد والسيدة فاندنهوتن، اللذان كان جون أملهما الوحيد، بالعمل البطولي، بدوا أنهم فكروا أني أظهرت شجاعة وبطولة لا يكفيها الشكر. السيدة بالتحديد كانت أكيدة من «أنني لا بد أني أحببت ابنها

العزيز، وإلا ما كنت خاطرت بحياتي لأنقذ حياته.» لم يقل السيد -وهو رجل صادق بالرغم من أنه بارد- سوى القليل، ولكنه لم يردني أن أغادر الغرفة، دون أن أَعِدَه أنه في حال احتجت لأي مساعدة، أنّي، بطلبي المساعدة منه، قد أريحه من الواجب الذي أكّد لي أنّي فرضته عليه. كانت هذه الكلمات حينها، وميض النور لي؛ هنا وجدت منفذي؛ وفي الحقيقة، بالرغم من أن النور البارد أيقظ ولكنه لم يبهجني؛ ولم يبدو على المنفذ أنه من الذي أحب أن أعبر من خلاله. ليس لدي الحق في دعم السيد فاندنهوتن، لا أستطيع أن أطلب منه المساعدة على أساس الواجب؛ لا، يجب أن أقف على الضرورة: ليس لدي عمل، أريد عملاً؛ وأفضل طريقة للحصول عليه كان بتوصية. علمت أن هذا يمكن الحصول عليه بطلبه؛ ألا أطلبه لأن طلبه يتمرد على كرامتي وخافت عاداتي، قد يكون، كما شعرت، انغماسا في الحساسية الزائفة البليدة. قد أندم على تجاوزها طول حياتي؛ لن أكون حينها مذنباً بسببها.

ذهبت ذلك المساء إلى منزل السيد فاندنهوتن؛ ولكني ثبت المقدمة وضبط المقود بلا فائدة؛ انقطع الحبل. ضربت الجرس عند الباب الكبير (كان بيتاً كبيراً وجميلاً في حي راق في المدينة)؛ فتح خادم الباب؛ سألت عن السيد فاندنهوتن؛ كان السيد فاندنهوتن وأسرته خارج البلد-ذهبوا إلى اوستند-ولم يعلم متى سيعودون. تركت بطاقتي، وعدت أدراجي.

* * *

22

مضى أسبوع؛ حلَّ يوم الزفاف؛ تم الاحتفال بالزواج في كنسية القديس جاك؛ أصبحت الآنسة زُرَيْد مدام بيليت، مولودة رويتر وبعد ساعة من هذا التحول، «الزوجان السعيدان»، كما عبرت عنه الصحف، كانوا في طريقهم إلى باريس؛ حيث، وفقاً لترتيبات مسبقة، يجب أن يقضوا شهر العسل. رحلت عن المدرسة الداخلية في اليوم التالي. أنا وأملاكي (بعض الكتب والملابس) انتقلنا إلى سكن متواضع استأجرته في شارع ليس بالبعيد. في غضون نصف ساعة كانت ملابسي مرتبة في صوان، وكتبي على رف، وكانت التجهيزات منتهية. لم يجدر بي أن أكون حزيناً ذلك اليوم لو لم يعذبني انقباض مفاجئ، توقٌ لأذهب إلى شارع ثلج نوتردام، مقاومة، ومع ذلك محفَّزة بتصميم داخلي لتجنب ذلك الشارع حتى يأتي الوقت الذي ينقشع فيه ضباب الشك عن مستقبلي.

كان أصيل أيلول جميلاً - لطيفاً جداً، وهادئ؛ لم يكن لدي ما أفعله؛ عرفت أنه في تلك الساعة تتحرر فرانسيس من عملها؛ عرفت أنها قد تَحِنُّ لمعلمها، وعرفت أنني أحنُّ لتلميذتي. بدا التصور بهمساتها الخافتة، وهي تنفخ في روحي الحكاية العذبة للمتعة القادمة.

«ستجدها تقرأ أو تكتب،» قالت؛ «تستطيع أن تتخذ مجلسك جانبها؛ لن تجفل سلامها بانفعال غير ضروري؛ لا تحرجها بتصرفات أو لغة استثنائية. كن كما أنت دائماً؛ ألقي نظرة على الذي كتبته؛ أستمع بينما هي تقرأ؛ وبخها أو امدحها بهدوء؛ أنت تعرف تأثير الأسلوبين؛ أنت تعرف بسمتها عندما تكون فرحة، وتعرف تمثيل نظراتها عندما يتم إيقاظهن؛ لديك سر إيقاظ ذلك التعبير الذي تريده، ويمكنك أن تختار من ذلك التنوع الرائع. ستجلس معك بهدوء بالقدر الذي يناسبك لتتحدثا وحدكما؛ يمكنك أن تضعها تحت تعويذة قوية: مهما كانت ذكية، مهما كانت بليغة، يمكنك أن تغلق شفتيها، وتغطي محياها الجميل بعدم الثقة؛ وفوق ذلك، أنت تعلم، هي ليست لطفاً مملًا؛ رأيتَ، أنه مع السعادة الغريبة، العصيان والازدراء والقسوة والمرارة، كان هناك ادعاء نشيط بمكان ما في مشاعرها وملامحها؛ تعلم أنه قليل منهم يمكنهم التحكم بها كما تفعل أنت؛ تعلم أنها قد تُكسَر، ولكنها لن تنحني تحت يد الطغيان والظلم، ولكن المنطق والعاطفة قد يقودانها بإشارة. جرّب تأثيرهما الآن. اذهب-إنهما ليسا مشاعراً؛ ستحسن التعامل معهم.»

«لن أذهب،» كان جوابي على الإغواء اللذيذ. «يسيطر الرجل على نفسه لنقطة معينة، ولكنه لا يمكنه تجاوزها. هل سأجد فرانسيس الليلة، وأجلس معها وحدنا في غرفة هادئة، وأخاطبها فقط بلغة العقل والوجدان؟»

«لا»، كان جواب ذلك الحب الذي احتلني وأصبح يتحكم بي.

بدا على الوقت الركود؛ لا تريد الشمس أن تغرب؛ دقت ساعتي، ولكني ظننت أن عقاربها مشلولان.

«يا له من مساء حارّ!» صرختُ فاتحاً النافذة؛ لأنه، نادراً ما شعرت بأني محموم. سامعاً خطوة صاعدة الدرج، تساءلت ما إذا كان المستأجر،

الذي يصعد إلى شقته، كان مضطرب العقلِ والوضع كحالي، أو إذا ما عاش في هدوء من مصادر مالية معينة، وفي حرية الأفكار الغير مقيدة. ماذا! هل كان قادماً ليحل مشكلة بالكاد معروضة في فكرة غير مسموعة؟ لقد طرق الباب بالفعل-طرق بابي-طرقة عاجلة ولبقة؛ وقبل أن أتمكن من دعوته إلى الدخول، كان قد عبر العاتبة، وأغلق الباب وراءه.

«وكيف حالك؟» سأل صوت هادئ ومحايد، باللغة الإنجليزية؛ بينما وضع قبعته على الطاولة، بلا مقدمات، و وضع معطفيه في القبعة، وساحباً الكرسي الوحيد في الغرفة، جلس عليه بهدوء.

«ألا تستطيع التحدث؟» سألني بعد ثوان، بنبرة بدت لامبالاتها تُسِرّ لي أن لا فرق سواء رددت أم لم أرد. في الحقيقة، وجدت أنه لدي رغبة في التحدث مع أصدقائي الجيدين؛ ليس بالضبط لتأكيد هوية زائري -لأني عرفته أربكت وقاحته! ولكن لأرى كيف كان يبدو-لأحصل على فكرة واضحة عن سلوكه ومحيّاه. مسحتُ النظارة بِتَرَوٍّ، وارتديتها بتروٍّ ضابطاً إياها لئلا تؤذي قصبة أنفي أو تتعلق بخصلاتِ شعري الكميت. كنت جالسا في كرسي النافذة، معطياً ظهري للضوء، و وجها لوجه معهن وهي وضعية يأمل إلى حد ما أن يعكسها؛ لأنه، في أي وقت، أحب أن يُراقِب الناس لا أن يُراقَب. أجل، كان هو، ولا شك في ذلك، بطوله الذي يبلغ ستة أقدام منسقة في وضعية جلوس؛ بمعطفه ذي الياقة المخملية، وبنطلونه الرمادي، وأصله الأسود، و وجهه، أكثر وجه طبيعي صنعته الطبيعة، والأقل تطفلاً؛ ليس فيه أي ملمح قد يسمى بالغريب أو ملحوظ، ومع ذلك تأثير من لا نظير له. لا يوجد فائدة في محاولة وصف ما لا يوصف. كوني لست مستعجلا للحديث معه، جلست وحدقت براحتي.

«أوه، هذه هي لعبتك-أليس كذلك؟» قال أخيراً. «حسن، سنرى من سيتعب أولاً.» وببطء قام بسحب علبة سجائر، اختار واحدة، أشعلها، تناول كتابا من الرف القريب لِيَده، ثم راكياً للخلف، بدأ بالقراءة والتدخين بهدوء كما لو أنه في غرفته، في شارع غروف في X، -شاير، إنجلترا. عرفت أنه كان قادراً على الاستمرار بذلك الوضع حتى منتصف الليل، لو رغب بذلك، لذلك نهضت، آخذاً الكتاب من يده، قلت، «لم تطلبه، ولذلك لن تحصل عليه.»

لاحظَ «أنه سخيف ومضجر، لذلك لم أخسر الكثير» ثم بعد أن كسرت الرقية، تابع كلامه، «حسبت أنك عشت في بيت بيليت؛ ذهبت هناك هذا المساء، متوقعا أن أموت جوعاً من الجلوس في قاعة الاستقبال، وقالوا لي إنك رحلت، وغادرت هذا الصباح؛ لقد تركت عنوانك عندهم، والذي تعجبت له؛ كان إجراء عملياً ومعقولا أكثر مما كنت أظنك ستفعل. لماذا رحلت؟»

«لأن السيد بيليت تزوج الآنسة التي أخرعموها أنت والسيد براون كزوجة لي.»

«أو، أكيد» رد هانسدن بضحكة قصيرة؛ «إذن فقد خسرت زوجتك وعملك؟»

«بالضبط»

رأيته يلقي نظرة سريعة وعلنية على غرفتي؛ لاحظ حدودها الضيقة، وأثاثها غير الكافي: استوعب الحال في غضون ثانية-أعفاني من جريمة الرفاهية. خلّف هذا الاكتشاف تأثيراً غريبا على عقله؛ أنا متأكد أخلاقياً أنه ما إذا وجدني أقيم في دار جميلة، أستريح على أريكة ناعمة، بزوجة جميلة

وثرية بجانبي، لكان كرهني؛ زيارة مختصرة وباردة ومغرورة، ستكون في حالة كهذه، لكانت الحد الأعلى لكياسته، ولم يكن ليأتي بقربي بعد ذلك، لذلك طالما أن موجة الثراء حملتني بلطف على سطحها؛ ولكن الأثاث المطلي، الجدران العارية، وحدة الغرفة الكئيبة أراحت فخره وكبرياءه الصلب، ولا أعلم أي تغير ملطّف احتل صوته ونظرته بعد أن تكلم ثانية.

«حصلت على منزل جديد؟

«لا»

«هل أنت على وشك الحصول على واحد؟»

«لا»

«هذا سيء، هل طلبت من براون؟»

«بالطبع لا»

«من الأفضل لك؛ غالباً ما يكون لديه القدرة على إعطاء معلومات مفيدة في هذا الأمر.»

«لقد خدمني من قبل جيداً، ليس لدي الحق في الطلب منه، وليس في مزاج لأزعجه مجدداً.»

«أوه، لو أنت خجول، وتخاف أن تكون تطفلياً تحتاج فقط لأن توكلني. سأراه الليلة، أستطيع أن أوصيه.»

«أرجو ألا تفعل، يا سيد هانسدن؛ أنا مدين لك من قبل؛ قدمت لي خدمة مهمة عندما كنت في X؛ أخرجتني من الوكر الذي كنت أموت فيه: لم أُسددِ لك تلك الخدمة، وفي الوقت الحاضر أرفض إضافة خدمة أخرى على الحساب.»

«لو جرت الرياح بذلك الاتجاه، أنا راضٍ. حسبت أن كرمي منقطع النظير في إخراجك من مكتب المحاسبة الملعون ذلك سيتم تقديره كما ينبغي يوماً ما: «ارمِ خبزك على وجه المياه، فإنك تجده بعد أيام كثيرة» يقول الكتاب المقدس. أجل، هذا صحيح، أيها الولد -استفد مني- أنا شخص مفيد: ليس هنالك مثلي بين العوام. في الوقت الحالي، لنضع كل الخداع جانباً ولنتحدث بجدية أكثر لبعض الوقت، من الممكن أن تكون في وضع أفضل، وأكثر من ذلك، ستكون أحمق إن رفضت أن تأخذه من أي يدٍ تقدمه لك.»

«هذا جيد، يا سيد هانسدن؛ والآن بما أنك سويت هذه النقطة، تحدث عن شيء آخر. أي أخبار من X-؟»

«لم أسوِّ تلك النقطة، أو على الأقل هناك نقطة أخرى لنحلها قبل الانتقال إلى X. هل هذه الآنسة زينوبي» (زُرَيْد؟، قاطعته) «حسن، زُرَيْد- هل هي حقاً متزوجة من بيليت؟»

«أجل - وإن كنت لا تصدقني اذهب واسأل راعي كنيسة جاك.»

«وهل قلبك محطّم؟»

«لست مدركاً من أنه كذلك، أشعر بأنه جيد-ينبض كما العادة.»

«إذن مشاعرك أقل رقة مما ظننتُ؛ يجب أن تكون شخصيتك أشد وقاسية القلب لتتحمل صفعة كهذه دون أن تتهاوى تحتها.»

«أتهاوى تحتها؟ ماذا يوجد بحق الشيطان في زواج مديرة مدرسة بلجيكية بمدير مدرسة فرنسي يدعو للتهاوي؟ ستكون الذرية بلا شك عرقاً هجيناً غريباً؛ ولكن هذا شأنهم-وليس شأني.»

«هو ينغمس في المزحات البذيئة، وكانت الزوجة خطيته!»

«من قال ذلك؟»

«براون»

«دعني أخبرك أن براون نمّام قديم.»

«هو كذلك؛ ولكن في الوقت الحاضر، لو كانت إشاعته مبنية على أقل من حقيقة-لو لم تكن مهتماً بالآنسة زُرَيْد-لماذا-أيها المعلم الشاب! تركت عملك بعد أن أصبحت مدام بيليت؟»

«لأنني-» شعرت بأن وجهي ازدادت حرارته؛ «لأنه-باختصار، يا سيد هانسدن، أرفض الرد على أي أسئلة أخرى.» وأدخلت يدي عميقاً في جيب البنطال.

انتصر هانسدن: أعلنت عيناه-ضحكته عن النصر.

«علام تضحك بحق الجحيم، يا سيد هانسدن؟»

«على رباطة جأشك التي لا مثيل لها. حسن، يا فتى، لن أُغضبك؛ أرى كيف هو الأمر: هجرتك زُرَيْد-تزوجت بشخص أكثر ثراءً، كما قد تفعل أي امرأة عاقلة لو أُتيحت لها الفرصة.»

لم أرد عليه-جعلته يظن كذلك، دون أن أشعر بحاجة لأخوض في شرح الوضع الحقيقي، ولا حتى في تزييف قصة كاذبة؛ ولكنه لم يكن من السهل خداع هانسدن، صمتي، بدلاً من أن يقنعه أنه أصاب عين الحقيقة، بدا أنه جعله شكاكاً بها. تابع، «أعتقد أن الأمر قد تم تدبره كما يتم تدبّر الأمور بين الراشدين: عرضتَ عليها شبابَكَ ومواهبَكَ كما هي-بدل منصبها ومالها: لا أعتقد أنك وضعت المظهر، أو ما يسمى بالحل في

الحسبان - لأني أفهم أنها أكبر منك، ويقول براون، إن مظهرها معقول ولكنها ليست جميلة. بما أنها لم تستطع الحصول على صفقة أفضل، كانت ميالة في البداية إلى الوصول إلى تفاهم معك، ولكن بيليت -مدير مدرسة مزدهرة- تَدَخَّلَ بعرض أفضل؛ وافقت، وحصل هو عليها: صفقة صحيحة - ومثالية- عملية وشرعية. والآن سنتحدث عن شيء آخر.»

«تفضَّل،» قلت له فرحاً لتغيير الموضوع، وبخاصة سعيد لإعاقتي ذكاء محققي - لو، فعلاً، أعقْتها؛ لأنه بالرغم من أن كلماته ابتعدت عن النقطة الخطرة، بدت عيناه، المراقبتان والمتحمستان، أنهما لا تزالان مشغولات بالنقطة السابقة.

«تريد أن تسمع أخباراً عن X-؟ وما هو اهتمامك بـ X -؟ لم تترك أصدقاء خلفك هناك، لأنه لم يكن لديك أصدقاء. لم يسأل عنك أحد مطلقاً-لا رجل ولا امرأة؛ ولو ذكرت اسمك، يبدو الرجال كما لو أنني تحدثت عن بريستير جون؛ ولنخرت النساء بخفية. قد تكون قد كرهتك حسناوات X. كيف أثرت استياءهن؟»

«لا أعلم. نادراً ما تحدثت معهن-لم يعنين شيئاً لي. اعتبرتهن فقط أشياء لأنظر إليهن من بعيد؛ كانت ملابسهن و وجوههن سارة للنظر: ولكني لم أتمكن من فهم حديثهن، ولا حتى أن أقرأ محياتهن. عندما ألتقط مقتطفات من كلامهن، لم أستطع فهم شيء؛ وحركة شفاههن وعيونهن لم تساعدني بتاتاً.»

«كان هذا خطأك، وليس خطأهن. هناك نساء راشدات بقدر ما هن وسيمات في X؛ نساء تستحق أن يقضي الرجل وقته في الحديث معهن، وأستطيع التحدث معهن بسعادة: ولكنك لم يكن لديك لباقة مفرحة؛ لا

يوجد شيء فيك يغري النساء ليكنّ لطيفات. لاحظتك تجلس قرب الباب في غرفة مليئة بالرفقة، مصمم على أن تسمع، لا أن تتحدث؛ على المراقبة لا الإمتاع؛ بدوت خجولاً عند بداية الحفلة، محترساً ومرتبكاً في منتصفها، ومملًّا بشكل مهين في آخرها. هل هذه هي الطريقة، كما تعتقد، التي تنقل بها السعادة أو تثير الاهتمام؟ لا؛ وإذا كنت غير شعبي بشكل عام، فهذا لأنك تستحق أن تكون كذلك.»

«مقتنعٌ!» هتفتُ.

«لا، أنت لست مقتنعاً؛ أنت ترى أن الجمال دائماً يدير ظهره لك؛ تُهان ثم تنخر. أنا أؤمن من غير ريب بكل شيء مرغوب على الأرض -الثروة ، السمعة، الحب- هل سيكونون بالنسبة لك دائماً عنباً ناضجاً على العريش المرتفع ، سوف تنظر إليهم؛ ستعذّبك شهوة النظر؛ ولكنهم خارج المنال؛ ليس لديك إمكانية جلْبُ سلّم، وستبتعد مدعياً أنهم حامضون.»

كان يمكن أن تكون هذه الكلمات قاطعة تحت ظروف معينة، لم يهرقوا أي قطرة دم الآن. تغيرت حياتي؛ تنوعت خبراتي منذ غادرت X-، لكن لم يكن باستطاعة هانسدن أن يعرف هذا؛ لقد رآني فقط بشخصية كاتب السيد كريمسوورث عالة بين الغرباء الأغنياء مقابلاً الازدراء بالصرامة، واعياً على المظهر الخارجي الانطوائي والكريه، أرفض التوسل للملاحظة كنت متأكداً من أنها ستكون ممنوعة عني، رافضاً أن أثير إعجاباً أعرف أنه سيتم احتقاره كأمر لا قيمة له. لم يكن واعياً من ذلك الوقت أن الشباب والفتنة كانا هدفي اليومي؛ أني درستهما عن قرب، وقد رأيت قماش الحقيقة تحت تطريز المظهر؛ ولم يكن باستطاعته، بحدّة نظره، أن يخترق قلبي، أن يبحث في عقلي، ويقرأ شفقتي وكراهيتي؛ لم يعرفني لفترة كافية، أو جيداً كفاية، ليعرف إلى أي مدى قد تنحط مشاعري تحت بعض

التأثيرات، القوية على معظم العقول؛ كيف يتدفقون بسرعة تحت تأثيرات أخرى، والتي أثرت بقوة عليّ، لأنهم أثروا عليّ وحدي. ولا حتى استطاع أن يشك للحظة تاريخ تواصلي مع الآنسة رويتر؛ كانت حكاية وَلَهِهَا الغريب سراً عنه وعن الجميع؛ رأيت مداهنتها، وخداعها، وكنت أنا الوحيد الذي يعرفهم؛ ولكنهم غيروني، لأنهم أثبتوا أنني أستطيع أؤثر. سرٌّ جميل ساكن عميقاً في قلبي؛ سرٌ مليء بالرقّة كما بالقوة: انتزعَ السعة من سخرية هانسدن؛ حفظني من الخجل، ومعصوماً عن الغضب. ولا يمكنني قول شيء عن هذا – لا شيء قاطع على الأقل؛ أغلقت الريبة شفتي، وخلال فترة الصمت التي رددت بها على السيد هانسدن، اتخذت قراري على أن يتم سوء فهمي من قبله، وقد أسيء فهمي؛ حسب أنه كان قاسياً جداً معين ومن أني قد تحطمت جرّاء توبيخه؛ لذلك قال ليؤكد لي، إنني سأتحسن يوماً ما؛ لا زلت في بداية حياتي؛ ومذ كنت بلا وعي، كل خطو خاطئة أتخذها قد تكون درساً جيداً.

حينها أدرت وجهي نحو الضوء؛ اقتراب الشفق، ووضعيتي في كرسيٍّ عند النافذة، لعشر دقائق، منعه من أن يدرس وجهي، عندما تحركت، التقط تعبيراً فسره كذلك، « خلط الأمور! استحسن نفسه بثقة الشاب الذي يبدو عليه! حسبت أنه مقدر له أن يموت بالعار، ويجلس هناك مبتسماً، ويقول في الواقع، «دع العالم يهتز كما يشاء، أحمل في جيب صدريتي حجر الفيلسوف، وإكسير الحياة في خزانتي؛ أنا مستقل عن القدر والحظ.»

«هانسدن–لقد تحدثت عن العنب؛ كنت أفكر بفاكهة أفضِل من X خاصتك –عنب منزلي– فاكهة مميزة، تنمو، والتي علمتها كملكيتي، وآمل يوماً ما أن أقتطفها وأتذوقها. لا يوجد فائدة في عرضك لي ظمأ المرارة، أو

أن تهددني بالموت عطشاً: لدي توقع حلاوة في باطن فمي؛ وأمل العذوبة على شفتي؛ أستطيع رفض البغيض، وأتحمل المرهق.»

«إلى متى؟»

«حتى تحين فرصة المجهود؛ وبما أن جائزة النجاح ستكون كنزاً بعد قلبي، سآتي بقوة ثور إلى النزاع.»

«يسحق الحظ السيئ الثيران بسهولة؛ و أؤمن أن الغضب يضايقك: لقد ولدت وفي فمك ملعقة خشبية، اعتمد عليها.»

«أنا أصدقك؛ من المحزن أن أجعل ملعقتي الخشبية تقوم بعمل مغارف الآخرين الفضية: مُمْسَكة بإحكام، ومعالجة بمهارة، حتى الملعقة الخشبية ستغرف من الحساء.»

نهض هانسدن: «أعرف، أفترض أنك من الناس الذين يتطورون أفضل بعيداً عن العيون، وتقوم بالعمل بطريقتك بلا مساعدة. سأذهب الآن.» وكان ذاهباً دون أن يقول كلمة أخرى؛ استدار عندما وصل إلى الباب.

قال «بِيعَ بيت كريمسوورث.»

«بِيع» رددت.

«اجل، أنت تعلم، بالطبع، أخوك فشل منذ ثلاثة أشهر؟»

«ماذا! إدوارد كريمسوورث؟»

«بالضبط؛ وذهبت زوجته إلى منزل والدها، عندما انحرفت الأمور، مال نحوهم، أساء استخدامها؛ قلت لك أنه سيكون طاغية معها يوماً ما؛ وبالنسبة له-»

«نعم، بالنسبة إليه - ما الذي حصل معه؟»

«لا شيء غير طبيعي - لا تخف؛ وضع نفسه تحت حماية المحكمة، اتفق مع دائنيه - عشر سنتات في الرطل؛ أطلق سراحه مجدداً في ستة أسابيع، تملّق زوجته مجدداً، وها هو يزدهر كشجرة خضراء.»

«وبيت كريمسوورث - هل بيع الأثاث أيضاً؟»

«كل شيء - من البيانو الكبير حتى مرقّ العجين.»

«ومكونات غرفة الطعام السنديانية - هل بيعت؟»

«بالطبع؛ لم يجب اعتبار المقاعد والأرائك تلك الغرفة أكثر قدسية من بقية الأثاث؟»

«واللوحات؟»

«أي لوحات؟ لم يكن لدى كريمسوورث مجموعة خاصة أعرف عنها - لم يعترف بكونه هاوياً.»

«كان هناك لوحتان، واحدة على كل طرف من رف الموقد؛ لا يمكن أنك نسيتها، يا سيد هانسدن؛ لقد لاحظت ملامح الآنسة-»

«أوه، أعلم ذلك! المرأة ذات الوجه النحيل، بشالٍ كالجوخ عليها. كما جرت الأمور، فقد تم بيعها مع الأشياء الأخرى. لو كنت غنياً، لربما اشتريتها، لأني أذكر أنك قلت إنها تمثّل أمّك: أنت تعلم ما هو شعور ألا تملك سوى (عملة فرنسية قديمة).»

عرفت. فكرت في نفسي، «لكن بالتأكيد، يجب عليّ ألا أكون دائما في فقر مدقع؛ قد أتمكن يوماً ما من شرائها.» -من اشتراها ؟ هل تعلم» سألته.

«كيف من المحتمل؟ لم أسأل من الذي اشترى أي شيء؛ هنا يتحدث الرجل غير العملي إليّ ، يظن الجميع مهتماً بالذي يهتم هو به! والآن، عمت مساءً؛ أنا منطلق إلى ألمانيا غداً صباحاً؛ سأعود هنا في غضون ستة أسابيع، ومن المحتمل أن أتصل بك وأراك مجدداً؛ أتساءل ما إذا ستكون لا تزال في غير محلك!» ضحك، ضحكة ساخرة وعديمة شفقة كضحكة ميفيستوفيليس، واختفى.

بعض الناس، بغض النظر عن مدى عدم مبالاتهم بعد أن يغيبوا لفترة معينة، دائماً ما يسعون لأن يُخلّفوا انطباعاً جيداً عند الافتراق؛ ليس كهانسدن، اللقاء معه مختلف كجفاف حديقة بيروفيا؛ بدا تكتلا من القاسي، متشدد، لاذع؛ لا أعلم إذا ما دامت كلحاء الشجر.

عقل مكدّر يصنع وسادة قلقة؛ نمت قليلاً في تلك الليلة بعد هذه المقابلة؛ بدأت بالغفو قرب الصباح، ولكن بالكاد أصبح نعاسي نوماً، عندما أوقظت منه بسماعي لصوت في غرفة الجلوس خاصتي، المحاذية لغرفة نومي-خطوة، ودفع للأثاث؛ بالكاد استمرت الحركة لدقيقتين؛ توقفت مع إغلاق الباب. أصغيت؛ لم يتحرك شيء؛ ربما كان حلماً؛ ربما أخطأ مستأجر ودخل شقتي بدلاً من شقته. كانت الساعة الخامسة فجراً؛ لا أنا ولا اليوم كنا مستيقظين؛ استدرت وبعد قليل كنت نائماً. عندما استيقظت، بعد ساعتين تقريباً، نسيت ما حدث؛ أول شيء رأيته عند خروجي من غرفتي، استدعيته؛ فقط دفعت باب غرفة الجلوس، و واقفاً في آخرها، كان صندوق تعبئة خشبي-شيء كبير، واسع ومسطح؛ لا بد من أن بواباً أدخلهن ولكن عندما لم يجد أحداً في الغرفة تركه عند المدخل.

فكرت وأنا أقترب منه، «هذا ليس لي، لا بد و أنه لأحد غيري.» انحنيت لأتفحص العنوان: «ويليام كريمسوورث، حي، رقم-، شارع-، بروكسل.»

كنت مشدوهاً، ولكن بما أن أفضل طريقة للحصول على المعلومات هي بالاطّلاع على ما في داخله، فتحت الصندوق. غلّف نسيج أخضر محتوياته، تمت خياطته جيداً من الجانبين؛ قطعت الخيط بسكيني، ولا يزال عندما انفتحت الدرزة، بدت لمحات من الطلاء بين الأطراف المتباعدة. مع غزالة الدرزات، أخرجت من الصندوق لوحة كبيرة، في إطار رائع؛ مسنداً إياها على كرسي، بوضع سَمَحَ للشمس أن تسقط عليها، تراجعت للخلف - لقد وضعت نظارتي. لوحة سماء، وأشجار ذات مسحة ألوان تقليدية، رفعت بكل راحة، وجه المرأة شاحباً ومتأملاً، مظللة بشعر أسود ناعم، ممتزجاً بغيوم سوداء؛ نظرت عيون كبيرة ورصينة في عينيّ؛ وجنة هزيلة ارتاحت على يد صغيرة رقيقة؛ أظهر شال من الجوخ بعض من جسد نحيل وأخفى بعضاً منه. قد يسمعني السامع (لو كان هناك واحد) بعد عشر دقائق من التحديق الصامت، أنطق بكلمة «أمي!» كان يمكن أن أقول أكثر - ولكن بالنسبة لي فإن أول كلمة تقال مناجاة توقظ وعيي؛ تذكرني أنه فقط الأشخاص المجانين هم من يتحدثون مع أنفسهم، ومن ثم أفكر في مناجاتي، بدلاً من قوله. فكرت لفترة طويلة، وتأملت لفترة طويلة ذكاء وعذوبة - واحسرتاه! حزن هذه العيون الرمادية الحزينة، القوة العقلية لذلك الجبين، والحساسية النادرة لذلك الفم الجاد، عندما أُنزل نظري إلى الأسفل، وقع على قطعة خشب، عالقة في زاوية اللوحة، بين الإطار والقماش. ثم سألت، «من الذي أرسل هذه اللوحة؟ من الذي فكر بي، وأنقذها من بيت كريمسوورث، والآن يودعها في رعاية حارسها الطبيعي؟» أخذت الرسالة من مكانها، وكانت كالتالي:

«هناك نوع من المتعة الغبية في إعطاء طفل حلوى، وإعطاء الغبي أجراسه، وإعطاء الكلب عظمته. أنت تكافأ عندما ترى الطفل يلوث فمه

بالسكر؛ عندما ترى كيف تجعل فرحة الغبي بأجراسه منه غبياً أكثر؛ برؤية طبيعة الكلب تخرج على عظمته. بإعطاء ويليام كريمسوورث صورة أمه، أعطيته حلوى، وجرس، وعظمة، كلهم مرة واحدة؛ إن الذي يؤسفني هو انه لا يمكنني أن أرى النتيجة؛ لو كان بإمكان بائع المزاد أن يعدني بهذه المتعة، لكنت أضفت خمسة شلنات على عرضي.

هـ.ي.هـ

ملاحظة: قلت البارحة إنك رفضت أن تضيف خدمة أخرى على الحساب؛ ألا تظن أني وفرت عليك ذلك العناء؟»

غلفت اللوحة بالنسيج، أعدتها إلى الصندوق، وبعد أن نقلت كل شيء إلى غرفة نومي، وضعتها تحت سريري. كانت سعادتي مسممة بألم لاذع؛ قررت ألا أنظر حتى أستطيع أن أنظر براحتي. لو دخل هانسدن تلك اللحظة، لكنت قلت له، «أنا لا أدين لك بشيء، يا هانسدن - ولا حتى فارذنغ (عمله بريطانية): لقد دفعت لنفسك بالسخرية!»

قلق من أن أبقى هادئاً أكثر من ذلك، فور تناولي لفطوري، رجعت مرة أخرى لمنزل السيد فاندنهوتن، آملاً أن أجده في المنزل؛ لأنه بالكاد مضى أسبوع على زيارتي الأولى: ولكن متخيلاً أنه بإمكاني الحصول على معلومات عن موعد رجوعه. كانت هناك نتيجة أفضل من الذي توقعته بانتظاري، لأنه بينما كانت العائلة لا تزال في أوستند، جاء السيد فاندنهوتن إلى بروكسل في عمل لليوم. استقبلني بلطف رجل صادق، وليس سريع الانفعال. لم أجلس لخمس دقائق معه في مكتبه، قبل أن أشعر بنوع من الراحة في حضوره، كما لم أشعر من قبل مع الغرباء. كنت متفاجئاً من رباطة

جأشي، لأني، بعد كل شيء، أتيت من أجل مهمة مؤلمة بالنسبة إليّ -وهو أن ألتمس معروفاً. تساءلت على أي أساس بُنيت راحتي- خفت أن تكون خادعة. قبل فترة طويلة نظرت إلى الأرض، وشعرت بالثقة في صلابتها؛ عرفت أين كانت تكمن.

كان السيد فاندنهوتن غنياً، محترماً، وذا تأثير؛ أنا، الفقير، المكروه، والضعيف؛ لذلك وقفنا أمام العالم حرين كعضوين في مجتمعه؛ ولكن أمام بعضنا، كبشريين، كانت أوضاعنا معكوسة. الهولندي (لم يكن فلمنكياً وإنما هولندي أصيل) كان متمهّلاً، لطيفاً، وشديد الذكاء، على أن حكمه دقيق وسليم؛ إن الرجل الإنجليزي أكثر توتراً، نشيط، أسرع في التخطيط والتنفيذ، أسرع في الفهم والإنجاز. الهولندي خير، الإنجليزي سريع التأثر؛ باختصار، شخصياتنا معشقة، ولكن كون لدى عقلي نشاط ونار أكثر من عقله، افترضت وحافظت على السيطرة.

بعد أن سوّيت هذه الغاية، تم التَّحَقُّق من منصبي، خاطبته بموضوعي بصراحة أصيلة، والتي تستطيع الثقة بالنفس فقط أن تلهمه. كان من دواعي سروره أن يتم الطلب منه؛ شكرني على إعطائه فرصة استخدام بعض التأثير لصالحي. تابعت لأشرح له أن أمنيتي ليست بأن احصل على المساعدة، كما هي حول أن أساعد نفسي بنفسي؛ لم أرد أي مجهود من ناحيته -هذا هو نصيبي- ولكن فقط المعلومات والتوصية. بُعيد ذلك نهضت لأغادر. مد لي يده عند المغادرة - فعلٌ له معنى أعظم عند الأجانب من معناه لدى الإنجليز. عندما تبادلت بسمةً معه، ظننت أن خير وجهه الصدوق كان أفضل من ذكاء وجهي. شخصيات مثلي يختبرون سلوان يشبه البلسم في التواصل مع أرواح كهذه حيوية كقلب فيكتور فاندنهوتن الصادق.

كان الأسبوعان القادمان فترة تقلبات وتغيرات كثيرة؛ شابه وجودي خلال تلك الفترة سماء واحدة من تلك الليالي الخريفية والتي تكون مسكونة بالشُهُبْ والنجوم الساقطة. الآمال والمخاوف، التوقعات وخيبات الأمل، نزلت في أمطار برّاقة من الأوج إلى الأفق؛ ولكن كل هذا كان عابراً، وتبع ذلك الظلام السريع خلف كل اختفاء لظاهر. ساعدني السيد فاندنهوتن بأمانة؛ وضعني على الطريق لعدة أماكن، وقام بمجهود بنفسه ليؤمنهم لي؛ ولكن كان الإغراء والتوصية بلا فائدة لفترة طويلة - إما أن يغلق الباب في وجهي قبل أن أدخله، أو جعل منافس آخر تقدمي هذا بلا فائدة. حمي و مستثار، لم تعتقلني أي خيبة أمل؛ كانت الهزيمة تلو الهزيمة تشكل حافزاً لتصميمي. نسيت الحساسية، تمكنت من التكتم والتحفظ، دفعت بالفخر جانباً: سألت، و واظبت، واعترضت، وألححتُ. هي كذلك البدايات مدفوعة نحو دائرة محروسة حيث تسوي الثروة مسائل الناس. جعلتني المواظبة معروفاً؛ جعلني إلحاحي مميزاً. سألوا عني؛ أهالي طلبتي السابقين، جامعين قصص أبنائهم، سمعوا عني أنى موهوب، ورددوا صدى الكلمة: الصوت، المذاع بشكل عشوائي، وصل أخيراً إلى الآذان التي، ولكن لعالميته، ربما وصلها؛ وفي المحنة نفسها عندما جربت آخر مجهود لي ولم أعلم ماذا أفعل، نظر لي الحظ يوماً ما، بينما جلست في تشاور كئيب وحتى يائس على هيكل السرير، أومأ بألفة معرفةٍ قديمة - ويعلم الله أنني لم أقابله من قبل- ورمى في حضني مكافأة.

في الأسبوع الثاني من تشرين الأول، 18-، حصلت على وظيفة معلم لغة إنجليزية لكل صفوف كليةِ -، في بروكسل، براتب ثلاثة آلاف فرنك بالسنة؛ وحقيقة أنى قادر، بقوة السمعة والشهرة المرافقة للوظيفة، على أن أكسب أكثر من ذلك بالوسائل الخاصة؛ الإعلان الرسمي، الذي

أوصل هذه المعلومات، ذكر أيضاً أنه كانت للتوصية القوية من السيد فاندنهوتن التي قلبت الميزان لصالحي. أسرعت لمكتب السيد فاندنهوتن فور قراءتي للإعلان، دفعت إليه بالوثيقة، وعندما قرأها، أخذت كلتا يديه وشكرته بحرارة. كلماتي الواضحة وإيماءاتي المؤكدة حركت مشاعره الهولندية الهادئة. قال إنه كان سعيداً وفرحاً لأنه خدمني-؛ ولكنه لم يفعل شيئاً يستحق شكراً كهذا. لم يدفع سنتيماً واحداً - فقط كتب بضع كلمات على ورقة.

كررت على مسامعه مجدداً، «لقد جعلتني سعيداً، وهذا يناسبني نوعاً ما؛ أنا لا اشعر بواجب مزعج، عندما يمنح بيدك العطوفة؛ لا أشعر أنه يجب أن أجتنبك لأنك أسديت لي معروفاً؛ من هذا اليوم عليك أن توافق على جعلي من معارفك المقربين، لأنه يجب أن أعود مجدداً لرضا مجتمعك.»

كان رده، «فليكن» مرفقةً ببسمة رضا حميد. ذهبت بنور شمسها في قلبي.

* * *

23

عدت إلى بيتي الساعة الثانية؛ لا يزال الدخان ينبعث من الغداء الذي تم إحضاره للتو من الفندق المجاور؛ جلست لآكل ، لو كان الطبق مليئاً بشقف قطع خزفية وزجاج مكسور، بدلاً من اللحم المغلي واليخنة، لم أكن لأقوم بفشل أكثر تميزاً: هجرتني الشهية. ضاق صدري لرؤية طعام لا أستطيع تذوقه، وضعته كله في الخزانة، وتساءلت، «ما الذي على فعله حتى المساء؟» لأنه سيكون الذهاب إلى شارع ثلج نوتر دام بلا فائدة قبل السادسة مساء؛ ساكِنتُه (بالنسبة لي كان فيه ساكنة واحدة) كانت مشغولة بمهنتها في مكان آخر. مشيت في شوارع بروكسل، وتمشيت في غرفتي من الثانية حتى السادسة؛ لم أجلس خلال تلك الفترة بتاتاً. كنت في غرفتي عندما دقت الساعة السادسة؛ غسلت وجهي ويديّ المحمومتين للتو، وكنت واقفاً بجانب المرآة، كان خدي قرمزياً، كانت عيني مشتعلة، ومع ذلك بدت كل ملامحي هادئة ومستقرة. نازلاً السلالم بسلالة خارجاً، فرحت برؤية الشفق يرتسم على الغيوم؛ ظل كهذا كان كستار مستحبّ بالنسبة لي، وبرد أواخر الخريف، يتنفس في رياح متقطعة من الشمال الغربي، قابلني كبرودة منعشة. مع ذلك رأيت أنه لا يزال بارداً بالنسبة للآخرين، لأن النساء اللاتي مررت بهن كنّ ملفوفات بأوشحة، وكان الرجال مزرّرين معاطفهم.

«متى نكون سعيدين؟ هل كنت سعيداً حينها؟ لا؛ أقلق أعصابي رعب طارئ ومتزايد، وكان يقلقهم من اللحظة الأولى التي بدأت أمور جيدة بالحدوث معي. كيف كانت فرانسيس؟ مضت عشرة أسابيع مذ رأيتها، ستة أسابيع منذ سمعت عنها شيئاً منها أو عنها. أجبت رسالتها بملاحظة مختصرة، ودودة ولكن مطمئنة، لم يذكر فيها أي خبر عن زيارات أو تواصل في المستقبل. في تلك الساعة كان قاربي معلقاً على أعلى قمة موجة القدر، ولم أعلم إلى أي مياه ضحلة سيقذفه اندفاع الموجة؛ لن أربط قدرها بقدري حينها بأخفّ خيط؛ لو كان مقدرا أن ينفصل عند الصخرة، أو أن ينزل على الضفة الرملية، كنت عازماً على ألا يشارك قارب آخر كارثتي: لكن ستة أسابيع وقت طويل؛ وهل يمكن أنها لا تزال صحتها جيدة وأحوالها جيدة؟ ألا يتفق الحكماء على أن السعادة لا تجد ذروتها على الأرض؟ جرؤت على التفكير بذلك ولكن فصلني الآن نصف شارع عن كأس الطمأنينة الكامل - الجفاف؛ التيار المسحوب من المياه سيجري فقط في الجنة؟

كنت عند الباب؛ دخلت البيت الهادئ؛ صعدت الدرجات؛ كان الرواق فارغاً، ولا تزال الأبواب مغلقة؛ بحثت عن السجادة الخضراء؛ كانت في مكانها كما ينبغي.

«بارقة أمل!» قلت، وتقدمت. «ولكني سأكون أهدأ قليلاً؛ لن أسرع إلى الداخل، وأبتكر مشهداً مباشرة.» وقفت بالإكراه على خطوتي التواقة، وقفت على السجادة.

«يا له من سكوت تام! هل هي في الداخل؟ هل من أحد في الداخل؟» سألت نفسي. خشخشة خفيفة، كالأوراق المتساقطة الموقد، ردّت؛ حركة-حُرّكتْ النار بهدوء؛ وخشخشة الحياة مستمرّة، خطوة

اتُخِذت للأمام والخلف، جيئة وذهاباً، في الشقة. وقفت مذهولاً، ذهلت بشكل لأكبر عندما كافأ صوت انتباه أذني المصغية–منخفض جداً، ومخاطب للذات؛ لم أتخيل المتحدث بصورة أخرى إلا أنه وحيد؛ قد تتحدث الوحدة هكذا في الصحراء، أو في قاعة منزل مهجور.

And ne'er but once, my son» he said
«was yon dark cavern trod;
in persecution's iron days,
When the land was left by God.
From bewley's bog, with slaughter red,
and wanderer hither drew;
and of the stopped and turn'd his head,
as by fits the night-winds blew.
For trampling round by Cheviot-ridge
where heard the troopers keen;
and frequent from Whitelaw ridge
the death-shot flash'd between,» &c.&c.

تُليت القصيدة الغنائية الاسكتلندية القديمة، ثم توقفت؛ ولّت الاستراحة؛ وتبع ذلك تناغم آخر بالفرنسية، وهذه ترجمة المعنى بالإنجليزية:

"I gave at first, attention close;
then interest warm ensued;
from interest, as improvement rose,
succeeded gratitude.

"Obedience was no effort soon,
and labor was no pain;
if tired, a word, a glance alone
would give me strength again.

From others of the studios band,
ere long he singled me;
but only by more close demand,
and sterner urgency.

"The task from another took,
from me he did reject;
he would no slight omission brook,
and suffer no defect.

"If my companions went astray,
he scarce their wanderings balm'd;
if I but falter'd in the way,
his anger fiercely flam'd".

تحرك شيء في الغرفة المجاورة؛ لن ينفع أن تفاجئ مسترقاً السمع؛ طرقت بسرعة، ودخلت. كانت فرانسيس أمامي مباشرة؛ كانت تسير ببطء في غرفتها، وتوقف سيرها بمجيئي: كان الشفق معها، وهامداً، ضوء نار محمرّ؛ كانت تتحدث مع هاتين الأختين، المظلمة والمشرقة، قبل أن أدخل أنا، عن طريق الشعر. صوت السير والتر سكوت، بالنسبة لها، صوت غريب، وبعيد، صدى جبل، نطق بصوته في المقطع الشعري الأول، الثاني، ظننت من الأسلوب والجوهر، كانت لغة قلبها. كان وجهها رزيناً، بتعبير مركز؛ ألقت عليّ نظرة غير مبتسمة - عينٌ عادت من فكرة غامضة، استيقظت للتو من الأحلام: كان لباسها منسقاً، وشعرها الأسود ناعماً، وغرفتها الهادئة مرتبة؛ ولكن ماذا - بنظرتها الرصينة، اعتمادها على نفسها الجاد، قدرتها على التأمل والإلهام بالصدفة- ما حاجتها إلى الحب؟ «لا

شيء» كان جواب محيّاها الحزين واللطيف؛ بدا عليه أنه يقول، «يجب أن أصقل شجاعتي و أتمسك بالشِّعر، أحدهما يجب أن يكون سندي والآخر عزائي في الحياة. العواطف البشرية لا تزهر، ولا حتى المشاعر البشرية تتوهج لي.» لدى نساء أخريات نفس الأفكار. فرانسيس، لو كانت بائسة كما زعمت، لن تكون أسوأ من الآلاف من جنسها. أنظر إلى العرق الصارم والرسمي للخادمات الكبيرات-العرق الذي يكرهه الجميع؛ أطعمن أنفهن، منذ مرحلة الشباب وما بعدها، على مبدأ التحمل والاعتزال. الكثير منهن تعظّمن بالحمية الجافة؛ تفكيرهن دائماً في ضبط الذات، هدفهن الدائم، الذي يمتص في الآخر صفات طبيعتهن الألطف والعذبة؛ ويتوفين نموذجاً خالصاً لتقشف، مصاغة من البرشمان والعظم. سيقول لك علماء التشريح إنه هناك قلب في جثة الخادمة العجوز - نفس الذي في أي زوجة محبوبة أو امرأة على الأرض. هل يمكن أن يكون كذلك ؟ لا أعلم حقاً؛ ولكني أشعر بالميل إلى الشك بالأمر.

تقدمت، تمنيت لفرانسيس «مساء الخير»، وجلست. من المحتمل أن يكون الكرسي الذي اخترته هو نفسه الذي تركته؛ كان بجانب طاولة صغيرة كان عليها أوراقها و كتابها المفتوح. لا أعلم إن كانت عرفتني في البداية، ولكنها تعرفت عليّ الآن؛ وردَّتْ تحيتي بصوت ناعم وهادئ. لم أظهر أي لهفة؛ أخذت إشارتها مني، ولم تظهر أي تفاجؤ. تقابلنا كما نتقابل دائماً، كمعلم وتلميذته - لا أكثر. بدأت بأخذ الأوراق؛ دخلت فرانسيس، المراقبة والمساعدة، إلى غرفة داخلية، جلبت شمعة، أشعلتها، وضعتها بجانبي؛ وثم أغلقت الستائر، وبعد أن أضافت وقوداً جديدا للنار الموقدة، سحبت كرسياً ثانياً للطاولة وجلست بجانبي، معزولة قليلاً. الورقة التي على القمة كانت ترجمة لمؤلف فرنسي كبير إلى الإنجليزية، ولكن كان تحتها

ورقة فيها مقاطع شعرية؛ وضعت يدي عليها. نهضت فرانسيس، وحاولت استرجاع الورقة، موضحة أنها لا شيء - نسخ لمقاطع شعرية لا أكثر. أصررت على قراري الذي عرفت أنها لم تعد تعترض عليه؛ ولكن في هذه الحالة أحكمت أصابعها على الورقة. كان عليّ أن أحررها بهدوء؛ تفككت الأصابع عند لمستي؛ ابتعدت يدها؛ كانت يدي تلحق بيدها، ولكني منعت هذه الرغبة في الوقت الحاضر. كانت الصفحة الأولى مليئة بالأبيات التي سمعتها؛ لم تكن التتمة من قريحة الكاتب نفسه، ولكنها تأليف من وحي قريحة أخرى. لذلك بينما تم تجنب الغرور، مورست الهواية، ورضي القلب. أنا أترجم كما سبق، وترجمتي هذه حرفية؛ كانت هكذا:

When sickness stay'd awhile my course,
he seemed impatient still,
because his pupil's flagging force
could not obey his will.

One day when summoned to the bed
where pain and I did strive,
I heard him, as he bent his head,
say, 'God, she must revive!'
I felt his hand, with gentle stress;
a moment laid on mine,
and wished to mark my consciousness
by some responsive sign.

But pow'rless then to speak or move,
I only felt, within,

the sense of hope, the strength of love,
their healing work again.
And as he from the room withdrew,
my heart his steps pursued;
I long'd to prove, by efforts new;
my speechless gratitude.

When once gain I took my place,
long vacant in the class,
th' unfrequent smile across his face
did for one moment pass.

The lessons done; the signal made
of glad release and play,
he, as he passed, an instant stay'd,
one kindly word to say.

'Jane, till tomorrow you are free
from tedious task and rule;
this afternoon I must not see
that yet pale face in school.

"seek in the garden shades a seat,
far from the play-ground din
the sun is warm, the air is sweet:
stay till I call you in".

A long and pleasant afternoon
I passed in those green bowers;

all silent, tranquil, and alone
with birds and bees and flowers.

Yet, when my master's voice I heard
call, from the window, "Jane!"
I entered, joyful, at the word,
the busy house again.

He, in the hall, paced up and down;
he paused as I passed by;
his forehead stern relaxed its frown;
he raised his deep-set eye.

"Not quite so pale, he murmured low.
"Now Jane, go rest awhile"
and as I smiled, his smoothened brow
returned as glad a smile.

My perfect health restored he took
his mien austere again;
and, as before he would not brook
the slightest fault from Jane.

The longest task, the hardest theme
fell to my share as erst,
and still I toiled top place my name
in every study first.

He yet begrudges and stinted praise,
but I had learnt to read

the secret meaning of his face,
and that was my best meed.
Even when his nasty temper spoke
in tones that sorrow stirred,
my grief was lulled as soon as woke
by some relenting word.

At last hour school ranks took their ground,
the hard-foughtfield I won;
the prize, a laurel-wreath, was bound
my throbbing forehead on.

Low at my master's knee I bent,
the offered crown to meet;
its green leaves through my temples sent
a thrill as wild as sweet.

The strong pulse of ambition struck
in every vein I owned;
at the instant, bleeding broke
a secret, inward wound.

The hour of triumph was to me
the hour of sorrow sore;
a day hence I must cross the sea,
ne'er to recross it more.

An hour hence, in my master's room
I with him sat alone,
and told him what a dreary gloom

o'er joy had parting thrown.
He little said; the time was brief,
the ship was soon to sail,
and while I sobbed in bitter grief,
my master but looked pale.

They called in haste; he bade me go,
then snatched me back again;
he held me fast and murmured low,
"why will they part us, Jane?"

"Where you not happy in my care?
Did I not faithful prove? Will others to my darling bear
as true, as deep a love?

"O God, watch o'er my foster child!
O guard her gentle head!
When minds are high and tempests wild
protection round her spread!

"They call again leave then my breast;
quit thy true shelter, Jane;
but when deceived, repulsed, opprest,
come home to me again!"

قرأت - ثم كتبت على نحو حالم ملاحظات على الهوامش بقلم الرصاص؛ مفكراً أول الوقت بأشياء أخرى؛ أفكر بأن جين الآن بجانبي؛ ليست طفلة وإنما فتاة في التاسعة عشرة؛ و ربما تكون ليوم أمدّ قلبي ذلك؛ أُزيلت عني لعنة الفقر؛ كان الحسد والغيرة بعيدين، ولا يعلمون عن لقائنا

هذا؛ قد يذوب جليد سلوك المعلم؛ شعرت بالذوبان يحصل بسرعة، سواء كنت قادراً أم لا؛ ليس هناك حاجة لأن تنظر العين بوضوح، ليركز الحاجب في طيّة: تم السماح لها الآن أن تتعرض للكشف الظاهري للوهج الداخلي - أن تبحث، تسأل، وتستنبط حماسة مجيبة. خلال هذا الاستغراق في التفكير، اعتقدت أن العشب في هاملتون لم يتشرب قطرات ندى الغروب بامتنان أكثر من مشاعري عندما شربت نعيم هذه الساعة.

نهضت فرانسيس، كما لو أنها قلقة؛ مرت من جانبي لتحرك النار، التي لم تحتج إلى تحريك؛ رفعت و وضعت الزينة التي كانت على رف الموقد؛ رفرف رداؤها على بعد ياردة مني؛ خفيف، سوي، وأنيق، وقفت منتصبة على الموقد.

هناك دوافع نستطيع التحكم بها؛ ولكن هناك دوافع تتحكم بنا، لأنها تنال منا بوثبة نمر، ويكونون أسيادنا منذ رؤيتنا لهم. ربما، مع ذلك، بعض هذه الدوافع نادرا ما تكون سيئة؛ ربما المنطق، بعملية قصيرة و هادئة، عملية تنتهي منذ الإحساس بها، أكد صحّة الفعل الذي اعتزمَتْه الغريزة، ويشعر بالرضا ببقائه بليداً حتى يتم فعله. أعلم أنه لم أفكر، لم أخطط أو أنوي، بعد، في حين أنه في لحظة كنت جالساً وحدي على الكرسي، قرب الطاولة، وفي الثانية، حملت فرانسيس على ركبتي، موضوعة هناك بتصميم و ذكاء، وأبقيتها هكذا بعناد وتمسك.

«يا أستاذ!» صاحت فرانسيس، وكانت ثابتة: لم تغادر شفتيها كلمة أخرى؛ بدت خلال الثواني الأولى مذهولة؛ ولكن الذهول ابتعد بعد قليل؛ لم يتلُ ذلك رعب ولا غضب: على كل حال، كانت أقرب مني أكثر قليلاً مما كانت من قبل، للشخص الذي احترمته و وثقت به؛ ربما دفعها

الحرج لأن تكون تناضل، ولكن احترام لذاتٍ أوقف المقاومة حيث كانت المقاومة بلا فائدة.

«فرانسيس، إلى أي حد تهتمين بي؟» كان سؤالي لها. لا جواب؛ كان الوضع جديداً ومذهلاً ليسمح لها بالكلام. بهذا الاعتبار، أجبرت نفسي بضع ثوان لأتحمل صمتها، بالرغم من ضيق صدري به: كررت نفس السؤال توّاً ، من المحتمل، ليس بألطف أسلوب؛ نظرت إليّ؛ بلا شك، لم يكن وجهي مثالاً لرباطة الجأش، لم تكن عيني آباراً من الطمأنينة والهدوء.

«تحدثي» حثثتها؛ وقال صوتٌ منخفض، متعجل، مع ذلك رئيسي، «سيدي، هل تفعل الخطأ لي؛ أطلق نعمة اليد اليمنى قليلاً.»

في الحقيقة، كنت واعياً أني كنت حاملاً ما يدعى «باليد اليمنى» بقبضة قاسية: فعلت كما رغبت؛ وللمرة الثالثة، سألت بلطف أكثر، «إلى أي حد تهتمين بي يا فرانسيس؟»

«سيدي، لدي الكثير من الاهتمام،» كانت هذه إجابتها الصريحة.

«يا فرانسيس، هل تمنحيني نفسك كزوجة؟ - أن تقبلي بي زوجاً لك؟»

شعرت باهتياج القلب، رأيت «ضوء الحب الأرجواني» يعكس نورة على الوجنات، الصدغين، والرقبة؛ رغبت باستشارة العين، ولكن الجفن منعني من ذلك.

«يا سيدي،» قال الصوت الناعم أخيراً، «يريد السيد أن يعرف ما إذا كنت موافقة في النهاية -ما إذا أرغب في الزواج منه؟»

«بالضبط»

«سيدي، هل سيكون سيدي زوجاً صالحاً؟»

«سأحاول، يا فرانسيس.»

صمتت لمدة قصيرة؛ بنوع جديد من الصوت-نوع استفزني كما أسعدني-رافَقَهُ أيضاً «ابتسامة خجولة نوعاً ما» منسجمة مع نغمة صوتها، «أن أقول إنك يا سيدي ستكون عنيداً ومتطلباً قليلاً؟»

«هل كنت كذلك، يا فرانسيس؟»

«أجل يا سيدي، أنت تعلم هذا جيداً.»

«ألم أكن شيئاً آخر؟»

«لكن؛ كنت أفضل صديق لي»

«وما أنت بالنسبة لي يا فرانسيس؟»

«تلميذتك التي تحبك من كل قلبها.»

«هل ستوافق تلميذتي على أن تمضي حياتها معي؟ تحدثي الإنجليزية الآن يا فرانسيس.» (كانت تتكلم معه بالفرنسية طيلة هذا الحديث.)

استغرقت بضع ثوانٍ في التأمل؛ كانت الإجابة الملفوظة ببطء كالتالي:

«دائما ما جعلتني سعيدة؛ أحب أن أسمعك تتحدث؛ أحب أن أراك؛ أؤمن بأنك طيب جداً، ومتفوق و سامي؛ أعرف أنك صارم مع أولئك الكسولين والمستهترين، ولكنك لطيف، لطيف جداً مع المكترثين والمجتهدين، حتى لو لم يكونوا أذكياء. سأكون فرحة لأني سأعيش معك إلى الأبد، يا أستاذ»؛ وقامت بحركة، كما لو أنها تتمسك بي، ولكن بعد أن كبحت جماح نفسها، أضافت بتأكيد جدي، «سيدي، أنا موافقة على أن أمضي حياتي معك.»

«جيد جداً، يا فرانسيس.»

قربتها من قلبي أكثر؛ أخذت القبلة الأولى من شفتيها، خاتماً الاتفاق بهذه الطريقة، الذي تشكل بيننا الآن؛ بعد ذلك، كنا صامتين، ولم يكن صمتنا لفترة قصيرة. لم أعرف ما الذي كانت فرانسيس تفكر فيه خلال هذه الفترة، ولم أحاول أن أخمّن؛ لم أكن مشغولاً في البحث في محيّاها، ولا حتى إزعاج هدوئها. تمنيت أن تشعر بالسلام الذي شعرت به؛ صحيح أن يدي لم تزل تمسك بها؛ ولكن بشكل رقيق، طالما أنه لم يكن هناك مقاومة. كان نظري ناحية النار الحمراء؛ كان قلبي يقيس مقدار سعادته؛ حاول و حاول، ولكنه وجد أن العمق لا يسبر غوره.

«يا سيدي،» قالت رفيقتي الهادئة أخيراً، ساكنة في فرجتها كسكون الفأر عند ما يرتعب. حتى الآن بالكاد رفعت رأسها عندما تتكلم.

«حسن، يا فرانسيس؟» أحب الكلام غير المبالغ فيه؛ لي أسلوبي في أن أهيمن بالكنايات الغرامية، ولا أن أقلق على المداعبات الملحة.

«يا سيدي، هذا ليس معقول، أليس كذلك؟»

«أجل؛ خاصة عندما أطلب أن يكون ذلك بالإنجليزية: ولكن لمَ تسأليني؟ أنت لا تجدين شيئاً عنيفاً أو لحوحاً في سلوكي؛ هل أنت لست مطمئنة كفاية؟»

بدأت فرانسيس «Ce n’est pas cela–»

«بالإنجليزية!» ذكرتها.

«حسن، يا سيدي، رغبت فقط أن أقول، إني أحب، بالطبع، أن أحتفظ بوظيفتي في التعليم. ستبقى تعلم، على ما أفترض يا سيدي؟»

«أوه، نعم! فهذا كل ما أستطيع الاعتماد عليه.»

«Bon!- أقصد جيداً. هكذا سيكون لدينا نحن الاثنان نفس المهنة. أحب هذا؛ ومجهودي في النجاح سيكون غير محدود كمجهودك - أليس كذلك، يا سيدي؟»

«أنت تضعين مخططات لأن تكوني مستقلة عني.» قلت لها.

«أجل يا سيدي؛ يجب ألا أكون عائقاً ولا أكون بأي حال حملاً عليك.»

«لكن، يا فرانسيس، أنا لم أخبرك إمكانياتي إلى الآن. تركت مدرسة السيد بيليت؛ وبعد شهر من البحث، حصلت على مكان آخر براتب ثلاثة آلاف فرنك في السنة، والذي أستطيع مضاعفته بقليل من الجهد. لذلك لا فائدة لأن تكدحي في الخروج وإعطاء الدروس؛ نستطيع أن نعيش بستة آلاف فرنك ونعيش جيداً.»

بدا أن فرانسيس تفكر في الأمر. هناك شيء مذهل لقوة الرجل، شيء ينسجم مع كبريائه الشريف، في فكرة أن يصبح العناية المحيطة لمحبيه- من إلباسه وإطعامه، كما يفعل الله مع السوسن في الحقل. لذلك، لتتخذ قرارها الحاسم، تابعتُ، «كانت الحياة مؤلمة وشاقة عليك إلى الآن يا فرانسيس؛ أنت تحتاجين للراحة الكاملة؛ الألف والمئتي فرنك خاصتك لن تشكل إضافة مهمة لدخلنا، ويا لها من تضحية بالراحة لكسبهم! أوقفي عملك: لا بد أن تكوني مُرهَقة، ودعيني أحصل على سعادة منحك الراحة.»

لست أكيداً من أن فرانسيس أولت خطابي انتباهاً؛ بدلاً من أن تجيبني بسرعة بديهتها المعهودة، تنهدت وقالت: «يا لك من غني، يا سيدي!» ومن ثم تحركت بانزعاج بين ذراعي. «ثلاثة آلاف فرنك!» قالت: «بينما أحصل أنا على ألف ومئتين!» تابعت بسرعة أكبر، «مع ذلك، ستكون الأمور

هكذا في الوقت الحالي؛ ويا أستاذ، ألم تكن تقول شيئاً عن أتخلى عن مكاني؟ أوه، لا! يجب أن أحافظ عليه؛» وأطبقت أصابعها النحيلة على أصابعي.

«أفكر في زواجي كأنك ترعاني، يا أستاذ! لا أستطيع أن أفعلها؛ ويا للملل الذي سيكسو أيامي! ستكون بعيدا، تعطي دروساً، في غرفة صفية ضاجّة، من الصباح حتى المساء، وأنا أبقي في البيت، عاطلة و وحيدة؛ سأكتئب وأحزن، وستملُّ منّي عمّا قريب.»

«يا فرانسيس، يمكنك القراءة و الدراسة – وهما شيئان تحبينهما كثيراً.»

«يا أستاذ، أنا لا أستطيع؛ أحب الحياة التأمليّة، ولكنني أحب الحياة النشطة أكثر؛ يجب أن أتحرك بوسيلة ما، وأن أتحرك معك. لقد لاحظت، يا سيدي، أن الناس يرافقون بعضهم للتسلية، لا يحبون بعضهم بحق، أو يرفعون من قدر بعضهم، كالذين يعملون معاً، وربما يعانون معاً.»

«أنت أصبت عين الحقيقة،» قلت لها، «وستقومين بكل شيء على طريقتك، لأنها الطريقة المثلى. والآن كمكافأة على الموافقة الجاهزة، أعطني قبلة بإرادتك.»

بعد قليل من التردد، الطبيعي بالنسبة لمبتدئة في فنّ التقبيل، قامت بملامسة شفتيها لجبهتي بحركة لطيفة؛ أخذت الهدية الصغيرة كإعارة، وسددتها حالاً، وبفائدة سخية.

لا أعلم ما إذا تغيرت فرانسيس منذ رأيتها أول مرة؛ ولكن، بينما أنظر إليها الآن، عرفت أنها تغيرت لأجلي؛ العين الحزينة، الوجنة الشاحبة، الوجه الحزين الخالي من البهجة الذين تذكرتهم كصفاتها الأولى، اختفت الآن، والآن رأيت وجهاً مرتدياً الراحة والجمال؛ بسمة، غمازة، وصبغة وردية، لفّت كفافها وأضاءت ألوانها. اعتدت على تنمية فكرة أن ارتباطي

القوي بها أثبت بعد نظر في طبيعتي؛ لم تكن جميلة، لم تكن ثرية، لم تكن حتى منجزة؛ ومع ذلك كانت كنز حياتي؛ يجل إذن أن أكون رجلاً ذا بصيرة. اليوم، فتحت عيني على خطأ اقترفته؛ بدأت أشعر أنه فقط ذوقي ما كان مميزاً، ليست قدرتي في اكتشافي أو تقديري للأهمية الأخلاقية على مفاتن الجسد. بالنسبة لي كان لفرانسيس مفاتنها: لم يكن فيها أي تشوه للتغلب عليه، ولا أي عيب بارز في العين، الأسنان البشرة، الشكل، التي استحقت إعجاب أبطال الفطنة والذكاء من الذكور، (لأن النساء تستطيع أن تحب رجلاً صريحاً وبشعاً لو كان فقط موهوباً)؛ لو كانت «غير فاعلة، أو حسيرة، هائجة، أو حدباء»، لربما بقيت مشاعري تجاهها لطيفة، ولكن لا يمكن أن تكون متقدة؛ كنت متعاطفاً تجاه الفتاة المشوهة سيلفي، ولكن لا يمكن أن أكنّ لها الحب. صحيح أن قدرت فرانسيس الفكرية هي أول ما لفت انتباهي، ولا تزال تحتفظ بالتأثير الأقوى على خياري؛ ولكني أحب جمالها الشخصي أيضاً. استخلصت سعادة، مادية بحتة، من تأمل نقاء عينيها البنيّتين، وجمال بشرتها الناعمة، نقاوة أسنانها المرصوفة بعناية، تناسب جسدها الرقيق؛ ولا أستطيع الاستغناء عن تلك المتعة. ظهر لي حينها، أني أنا الآن كنت شهوانياً، بطريقتي المعتدلة والحساسة.

الآن أيها القارئ، خلال الصفحتين السابقتين كنت أعطيك عسلاً طازجاً من الورود، ولكن يجب ألا تعيش بشكل كامل على طعام طيب المذاق؛ فلتتذوق إذن شيئاً مرّاً–قطرة فقط، من باب التغيير.

عدت إلى بيتي في ساعة متأخرة: كوني ناسياً أن ذلك الرجل لديه أي اهتمام بالأكل والشرب، خلدت إلى النوم صائماً. كنت متحمساً ومتحركاً طول اليوم، ولم أذق طعاماً منذ الساعة الثامنة صباحاً؛ بجانب ذلك، للأسبوعين الماضيين، لم أعرف راحة للعقل أو الجسد؛ كانت الساعات

القليلة الأخيرة هذياناً جيلاً، ولن تخمد الآن، ولفترة بعد منتصف الليل، كسرت بنشوة مزعجة الراحة التي احتجتها بشدة. غفوت أخيراً، ولكن ليس طويلاً؛ كان الظلام لا يزال مخيماً عندما استيقظت، وكان استيقاظي كأيوب عندما مرّت روحٌ من وجهه، ومثله، «وقف شعر جسدي». قد أكمل المقارنة، لأنه حقيقة، بالرغم من أنني لم أرَ شيئاً، مع ذلك «تم جلب شيء لي سِرّاً، واستقبلت أذني قليلاً منه؛ كان هناك صمت، وسمعت صوتاً، يقول- في منتصف الحياة نكون في الموت.»

ذلك الصوت، وإحساس المعاناة المصاحب له، يتم اعتبارها شيئاً خارقاً؛ ولكني عرفتها فوراً كأثر رد الفعل. عن الرجل دائم البقاء بفنائه ، كانت طبيعتي الهالكة التي ترنحت وتألمت، أعصابي التي ارتجت وأصدرت صوتاً مزيفاً، لأن الروح، منذ فترة تندفع نحو هدف، أنهكت ضعف الجسد النسبي. رعب ظلامٍ عظيمٍ غشيني؛ شعرت بان غرفتي غُزيت من قبل شخص عرفته مسبقاً، ولكني ظننت أنه غادر للأبد. أصبحت مؤقتاً فريسة للوساوس المرضية.

كانت من معارفي، لا، ضيفتي، مرة خلال فترة الصبا؛ أمتعتها في السرير والمائدة لسنة؛ طوال تلك المدة كانت لي وحدي في السر؛ استلقت معي، تناولت الطعام معي، تمشّت معي، تريني الأماكن المنعزلة في الغابات، الحفر التي في التلال، حيث أمكننا الجلوس معاً، وحيث أمكنها أن تضع عليّ وشاحها الكئيب، وبذلك تخفي السماء والشمس والعشب والشجر الأخضر؛ أخذتني إلى صدرها البارد كالموت، وتحتضنني بيدين من العظم. يا للقصص التي تحكيها لي في مثل هذه الساعات! يا للأغاني التي قد تغنيها في أذني! كيف أمكنها أن تتحدث معي عن وطنها -القبر- ومراراً وتكراراً تعدني أن تقودني إلى هناك قبل فترة طويلة؛ وساحبة إياي إلى شرفة

نهر أسود حرون، وتريني، في الناحية الأخرى، شواطئ غير متكافئة الركام، تمثال، ولوحة تذكارية، منتصبة في أجلّ من ضوء القمر. «مدينة الموتى» قد تهمس، مشيرة إلى الأكوام الشاحبة، وأضافت، «إنها تحتوي على بيت مُعَدٌّ لك.»

ولكن كانت فترة صباي وحيدة، وبلا آباء؛ لا فيها أخ أو أخت؛ ولا يوجد أعجوبة لأنه، بالضبط عندما صعدت للشباب، وجدتني تائهاً في ضلال عقلي غامض، بكثير من العاطفة وقليل من الأهداف، طموح متوهج وإمكانياتها المظلمة، رغبات قوية وآمال ضامرة، ترفع فانوسها المُضلّل عن بعد، وتستدرجني إلى بيت الرعب المعقود. لا عجب أن تعويذاتها حينها كانت قوية؛ لكن الآن عندما كان يتسع مساري، وإنارة أفقي، عندما عثرت عواطفي على الراحة؛ عندما علمت رغباتي، أجنحتي المنطوية، المتعبة من التحليق لوقت طويل، على حضن الاستمتاع والإثمار، وآوتْ، هناك دافئة وهادئة، تحت مداعبة يد ناعمة – لمَ دنت مني الهلوسات المرضية الآن؟

رفضتها كما يرفض الشخص محظية مروّعة آتية لتكدّر قلب زوج نحو زوجته الشابة؛ بلا جدوى؛ بقيت تدور حولي تلك الليلة والليلة التالية، ولثمانية أيام لاحقة. بعد ذلك، بدأت روحي تستعيد مزاجها؛ عادت شهيتي، وكنت جيداً في أسبوعين. أصبحت أتردد طيلة الوقت كالعادة، لم أخبر أحداً عن شيء مما شعرت به؛ ولكنني كنت سعيداً عندما غادرتني الروح الشريرة، واستطعت أن أبحث عن فرانسيس مجددا وأجلس بجانبها، متحرراً من طغيان شيطاني المرعب.

* * *

24

في يوم أحد قارس من شهر تشرين الثاني، تمشيت أنا وفرانسيس؛ أخذنا جولة في جادة بروكسل؛ وبعد ذلك، بعد أن تعبت فرانسيس، جلسنا على أحد الكراسي التي تكون على جوانب الطريق تحت الشجر، من فترة لأخرى، من أجل الراحة. كانت فرانسيس تخبرني عن سويسرا؛ حمّسها الموضوع؛ وكنت أظن أن عينيها تحدثتا بفصاحة لسانها، عندما توقفت ولاحظت، «يا سيدي، هناك رجل يعرفك.»

رفعت نظري؛ كان هناك ثلاثة رجال أنيقين مارّين كانوا إنجليزاً، عرفت من وجوههم ومشيتهم كما عرفت من ملامحهم؛ ميزت أطول رجل بين الثلاثي بأنه السيد هانسدن؛ كان يقوم برفع قبعته احتراماً لفرانسيس، بعد ذلك، أعطاني تكشيرة، ومضى.

«من هو هذا؟»

«شخص عرفته في إنجلترا.»

«لمَ انحنى لي؟ هو لا يعرفني.»

«أجل، إنه يعرفك، بطريقته.»

«كيف، يا سيدي؟» (كانت لا تزال تناديني «سيدي»؛ لم أتمكن من جعلها تتبني أي لقب أكثر حيمية.)

«ألم تقرئي التعبير في عينيه؟»

«في عينيه؟ لا. ماذا قالا؟»

«قالا لك، «كيف حالك، يا مدام، كريمسوورث؟» ولي، «إذن وجدت نصفك الثاني أخيراً؛ ها هي تجلس، نوعك المفضل من الإناث!»

«يا سيدي، لا تستطيع قراءة كل هذا في عينيه؛ لقد اختفى بسرعة.»

«قرأت هذا وأكثر، يا فرانسيس؛ قرأت أنه من المحتمل أن يتصل بي هذا المساء، أو في مناسبة في المستقبل القريب؛ ولا شك عندي في أنه سيصرّ على أن أعرفه عليك؛ هل أجلبه إلى شقتك؟»

«إذا كانت هذه رغبتك، يا سيدي-ليس لدي اعتراض؛ أعتقد، أني أرغب في رؤيته عن قرب؛ يبدو أصيلاً.»

كما توقعت، أتى السيد هانسدن ذلك المساء. أول شيء قاله كان، «لا تحتاج لأن تتفاخر، يا أستاذ بروفيسور؛ أعرف عن خبر تعيينك في كلية-، وكل ذلك؛ أخبرني براون بذلك.» وثم قال إنه أتى من ألمانيا لمدة يوم أو اثنين؛ بعد ذلك، سأل بشكل مفاجئ ما إذا كانت مدام بيليت رويتر التي رآني معها في الجادّة. كنت على وشك النطق برفض مؤكد، ولكن عندما أعدت التفكير أوقفت نفسي، والموافقة بادية عليّ سألته عن رأيه بها.

«بالنسبة لها سأتحدث عن ذلك مباشرة؛ وليس لدي شيء لأقوله لك أولاً. أرى أنك وغد؛ ليس لديك شأن في تنزّهك مع زوجة رجل غيرك. ظننت أنه لديك إحساس أسلمَ من أن تقحم نفسك في خليط أجنبي كهذا.»

«لكن الآنسة؟»

«من الواضح أنها كثيرة عليك؛ هي مثلك، ولكنها أفضل منك- ليست جميلة، مع ذلك؛ فوق ذلك، عندما نهضت (لأني نظرت خلفي لأجدكما تبتعدان) فكرت أن جسدها وقوامها جيداً. هؤلاء الأجانب يفهمون الأناقة والجمال ما الذي فعلته ببيليت بحق الجحيم؟ لم يمضِ على زواجها منه ثلاثة أشهر-لا بد وأن يكون سخيفاً!

لا يمكنني أن أدع سوء الفهم يستمر؛ لم يعجبني الوضع.

«بيليت؟ كيف تتكلم عن السيد والسيدة بيليت! أنت دائماً ما تتحدث عنهما. أتمنى من الآلهة لو تزوجت الآنسة زُرَيْد بنفسك!»

«ألم تكن تحب الآنسة زُرَيْد؟»

«لا؛ ولا حتى مدام زُرَيْد.»

«لم كذبتَ إذن؟»

«أنا لم أكذب؛ ولكن أنت الذي في عجلة من أمره. إنها تلميذتي- سويسرية.»

«وبالطبع ستتزوجها؟ لا تنكر ذلك.»

«أتزوج! أعتقد أنه يجب عليّ فعلها-إذا أمهلنا القدر عشر أسابيع إضافية. هذه فراولتي البرية، يا هانسدن، والتي أنستني حلاوتها عنب بيتك الزجاجي.»

«توقف، لا تتباهَ-لا بطولات؛ لن أسمعهم. ما هي؟ لأي طبقة تنتمي؟»

ابتسمتُ. ضغط هانسدن لا شعورياً على كلمة طبقة، وفي الحقيقة، مع أنه جمهوري، ويكره الرب، كان مع ذلك فخوراً بدمائه القديمة من شاير، بسلالة و نفوذ عائلته، المحترمة وجيدة السمعة منذ أجيال خَلَتْ، كأي نظير لها في العرق النورماندي. لم يفكر هانسدن باتخاذ زوجة من طبقة أدنى من طبقته، كما قد يفكر شخص من عائلة ستانلي بالزواج من فتاة من عائلة كوبدن. استمتعت بالمفاجئة التي أمنحها؛ استمتعت بنصر فعلي على نظريته؛ ومستنداً على الطاولة، وناطقاً الكلمات ببطء لكن بسعادة مكتومة، قلت بالضبط، «إنها خياطة.»

تفحصني هانسدن. لم يقل إنه كان متفاجئاً، ولكنه كان متفاجئاً فعلاً؛ كان لديه أفكاره عن التربية الجيدة. رأيت أنه شكّ بأني كنت على وشك اتخاذ خطوة عاجلة، لكن كابحاً الخطبة أو الاعتراض، أجاب، «حسن، أنت الأفضل في الحكم على علاقاتك. قد تكون الخياطة زوجة جيدة؛ لكن بالتأكيد أنك تأكدت تماماً من أنه بما أنها ليست متعلمة، أو ذات منصب أو ثروة، لديها سمات طبيعية تظن أنها قد تفضي إلى سعادتك. هل لديها أقارب كثر؟»

«لا أحد في بروكسل.»

«هذا أفضل. عادة ما يكون الأقرباء الشر الحقيقي في مسائل كهذه. لا أستطيع إلا أن أفكر أن قطاراً من العلاقات الوضيعة ستكون مصدر إزعاج لك حتى آخر عمرك.»

بعد الجلوس في صمت لمدة أطول، نهض هانسدن، وكان يتمنى لي مساءً طيباً؛ الأسلوب المهذب والمراعي لمشاعر الآخرين، الذي مد لي يده به (وهو شيء لم يفعله من قبل)، أقنعني بأنه فكر أنني جعلت من نفسي

غبياً، مدمراً ومهملاً كما كنت، ولم يكن وقتاً للسخرية أو التهكم، ولا لأي شيء عدا التسامح والهوادة.

«عمت مساءً، يا ويليام» قال لي، بصوت ناعم، بينما بدا وجهه شفوقاً. «عمت مساءً يا فتى. أتمنى لك ولزوجتك المستقبلية الازدهار، وأنا آمل أن ترضي روحك صحبة الإرضاء.»

كنت مهتاجاً جدا لأتوقف عن الضحك عندما رأيت الشفقة على ملامحه؛ محتفظاً بجوٍّ جدّي، قلت له: «ظننت أنك ترغب في رؤية الآنسة هنري؟»

«أوه، هذا اسمها! أجل، إن كان هذا يناسبك، أرغب في رؤيتها- لكن-» تردَّدَ.

«حسن؟»

«لا أرغب بأي حال أن أتطفل.»

قلت له: «تعال إذن» انطلقنا. لا شك بأن هانسدن اعتبرني رجلاً متسرعاً، ومتهوراً، هكذا لأريه حبيبتي المسكينة، في عليتها الفقيرة، ولكنه استعد ليتصرف كجنتلمان حقيقي، كونه لديه بذرة تلك الشخصية، التي فرح لارتدائها تحت القشرة القاسية كنوع من المعطف الفكري. تحدث بدماثة، وبرقّة، ونحن في الطريق؛ لم يكن في حياته كلها مهذباً معي هكذا. وصلنا المنزل، خلال مرورنا بالرواق، استدار هانسدن ليصعد سلالم أضيق تقود إلى طابق آخر؛ رأيت أن عقله كان مركزاً في العِليّات. «هنا، يا سيد هانسدن،» قلت له بهدوء، طارقاً باب بيت فرانسيس. استدار؛ كان مرتبكاً لارتكابه هذا الخطأ؛ عادت عينه إلى السجادة الخضراء، لكنه لم يقل شيئاً.

دخلنا، ونهضت فرانسيس من مجلسها قرب الطاولة لاستقبالنا؛ زيّ الحِداد منحها مظهراً مميزاً؛ لم تُضِف بساطته شيئاً للجمال، ولكن الكثير للوقار؛ وفّت ياقتها البيضاء لبروز ثوب صوف الميرينوس الأسود؛ كانت الزينة مزيفة. انحنت فرانسيس بأناقة وقورة، كما بدت دوماً، عندما بادرها شخص بالكلام، - امرأة لتحترمها أكثر من أن تحبها- قدّمت السيد هانسدن، وعبرت عن سعادتها بمعرفته بالفرنسية. اللهجة النقية، الصوت المنخفض والجميل، أعطيا تأثيرهما فوراً؛ تحدث هانسدن بالفرنسية رداً، لم أسمعه يتكلم تلك اللغة من قبل؛ أتقنها جيداً. جلس في مقعد النافذة؛ جلس السيد هانسدن، وفقاً لدعوة مضيفته، المقعد المجاور للمدفأة؛ من وضعي أستطيع أن أراهما الاثنين، والغرفة أيضاً، بنظرة. كانت الغرفة نظيفة وبراقة، بدت كحجرة صغيرة لامعة، كان هناك كأس مملوء بالورود في منتصف الطاولة، زهرة جديدة في كل كوب خزفي على رف الموقد أعطى المكان جو الحفلة، كانت فرانسيس جدية، وخاضعاً، ولكن كان الاثنان مهذبين؛ استمرا بالفرنسية بنجاح: نوقشت المواضيع العادية باحتشام و رسمية؛ فكرت أنني لم أرَ مثالين للياقة مثلهما، لأن هانسدن (بفضل اللغة الأجنبية) كان مجبراً على تشكيل عباراته، وقياس جُمله، بعناية منعت أي غرابة. أخيراً ذُكرت إنجلترا، واستمرت فرانسيس بطرح أسئلة مفعمة بالحيوية، بدأت تتغير، بالضبط كما تتغير سماء الليل عند اقتراب شروق الشمس: أولا بدا كما لو أن جبهتها أشرقت، ثم لمعت عيناها، استرخت ملامحها، وأصبحت متحركة، أصبحت بشرتها دافئة وجليّة؛ بدت لي الآن جميلة؛ قبل ذلك، بدت دوماً أنيقة.

كان لديها الكثير لتقوله للإنجليزي الأصيل، وحثته بحماسة وفضول التي أذابت من فترة تحفظ هانسدن كما تذيب النار الأفعى المتجمدة.

أستخدمُ هذه المقارنة غير المحببة لأنه فعلاً ذكرني بأفعى تستيقظ من سباتها، عندما انتصبت قامته الطويلة، رفع رأسه، قبل أن ينحدر قليلاً ويرفع شعره للخلف بعيداً عن جبهته، أظهر نور هجاء همجياً استطاعت نظرة محدثته المتحمسة أن تضرمها في روحه وتستنبطها من عينيه: كان هو نفسه؛ كما كانت فرانسيس نفسها، ولن يخاطبها الآن إلا بلُغته هو.

«أتفهمين الإنجليزية؟» كان سؤاله التمهيدي.

«قليلاً»

«حسن إذن، يجب أن تحصلي على الكثير منها؛ و أولاً، أرى أنه ليس لديك إحساس أكثر من العديد من معارفي» (مشيراً إليّ بإبهامه)، «وإلّا لما انصرعت بتلك الدولة القذرة المعوقة إنجلترا؛ لأني أراك مصروعة؛ أقرأ الأنجلوفوبيا (الخوف من الإنجليز) في عينيك، وأسمعها في كلماتك. هل من المحتمل يا آنسة أن يشعر شخص لديه ذرة من العقلانية بالحماس لمجرد اسم، وهذا الاسم هو إنجلترا؟ حسبتك ديرا من خمس دقائق مضت، واحترمتك وفقاً لذلك؛ والآن أرى أنك نوع من عرافة سويسرية، بمبادئ الكنيسة والمحافظين السامية!»

سألت فرانسيس: «هل إنجلترا هي بلدك؟»

«أجل»

«ولا تحبها؟»

«سأكون متأسفاً لحبها! بعض من الفساد، قائمة على الرشوة، شعب ملعون بنظام الملكية الوراثية، مليئة بالكبرياء القذر (كما يقولون في شاير)، وإملاق لا حول له ولا قوة؛ نتنة بسبب المفسدات، متسوسة بالإجحاف!»

«قد تقول هذا عن كل دولة تقريباً؛ هناك إجحاف ومفسدات في كل مكان، وظننت أنها أقل في إنجلترا من الدول الأخرى.»

«تعالي إلى إنجلترا وانظري. تعالي إلى برمنغهام ومانشستر، تعالي إلى شارع جيلز في لندن، واحصلي على فكرة عملية عن طريقة عمل نظامنا. تفحصي آثار أقدام أرستقراطيتنا العظيمة؛ أنظري إليهم كيف يمشون بالدم، يحطمون القلوب في سيرهم. أَدخلي رأسك من باب كوخ إنجليزي؛ ألقي نظرة على المجاعة المستلقية الخاملة على حجر الموقد الأسود؛ وعلى المرضى المستلقين على السرير دون غطاء، على العار المسرف في الوحشية مع الجهل، بالرغم من أن الرفاهية هي خليلتها المفضلة، والقاعات السخية أعز لديها من كوخ القش -«لم أكن أفكر بالحقارة والرذيلة في إنجلترا؛ كنت أفكر في الجانب الجيد- في الأمور السامية في دولتكم كأمة.»

«لا يوجد جانب جيد-لا شيء تعرفينه على الأقل؛ لأنك لا تستطيعين تقدير مجهود الصناعة، إنجازات المشاريع، أو اكتشافات العلم: إن قصر التعليم وعملك المغمور يجعلك عاجزة عن فهم هذه النقاط؛ وبالنسبة للجماعات الشعرية والتاريخية، لن أهينك، يا آنسة، بافتراض أنك قد ألمحت إلى هراء كهذا.»

«ولكني قمت بذلك جزئياً.»

ضحك هانسدن-ضحكة الاستهزاء التام.

«لقد فعلت، يا سيد هانسدن. هل أنت من أولئك الذين لا تمنحهم جماعات كهذه أي متعة؟»

«يا آنسة، ما هي الجماعة؟ لم أرَ في حياتي واحدة. ما هو طولها وعرضها ووزنها وقيمتها-نعم، القيمة؟ ما هي القيمة التي ستجلبها للسوق؟»

«صورتك، لأي شخص يحبك، ستكون، من أجل الجماعة، تكون بلا ثمن.»

سمع هانسدن الغامض هذه الملاحظة وشعر بها بفطنة، في مكان ما؛ لأن لونه تغير-شيء غير عادي معه، عندما يصاب على حين غرة في نقطة حساسة- نوع من الإزعاج أظلم عينه- وأنا أعتقد أنه ملأ فترة الصمت العابرة ، بأمنية أن لو أحبه أحد كما يرغب أن يُحَبَّ هو-شخصا يمكنه أن يرده بكل صراحة.

تابعت الآنسة تقدمها المؤقت.

«إذا كان عالمك عالماً بلا جماعات، فأنا لا أتعجب أنك تكره إنجلترا هكذا. أنا لا أعلم ما هي الجنة، وما هم الملائكة؛ ولكن باعتبارها أروع منطقة أستطيع أن أتخيلها، والملائكة أسمى الموجودات -لو أن أحدهم- لو أن عبدئيل نفسه» (كانت تتكلم عن ميلتون) «فجأة نُزع من جماعته، أعتقد أنه سيجري خارج «البوابات الأزلية»، يترك الجنة، ويبحث عما فقده في الجحيم. أجل، في الجحيم التي خرج منها «باحتقار».

كان أسلوب فرانسيس فيما قالته مميزاً كلُغتها، وعندما رنّتْ كلمة «جحيم على شفتيها، بتأكيد مخيف، تلطف هانسدن ومنح نظرة إعجاب. أحب شيئاً قويا، سواء أكان رجلاً أو امرأة، أحب كل ما يقدم على إزالة الحدود التقليدية والمبتذلة. لم يسمع من قبل آنسة تقول «جحيم» بتلك اللهجة المتصلبة، و أعجبه الصوت الخارج من شفاه الآنسة؛ رغب لو أن فرانسيس تضرب ذلك الوتر مجدداً، ولكن هذا لم يكن بطريقتها. لم يمنحها عرض قوتها أي سعادة، و بدا فقط على صوتها أو لمع على محياها عندما تجبره الظروف غير العادية -ظروف مؤلمة بشكل عام- على الخروج من الأعماق

حيث كانت كامنة. بالنسبة لي، مرة أو مرتين، نطقت، في حوار حميمي، بأفكار مغامرة بلغة مضطربة؛ ولكن عندما تمضي ساعة تجلي كهذه، لا أستطيع تذكرها؛ أتت وحدها و وحدها غادرت. وفرت هياج هانسدن ببسمة، وعودة إلى موضوع المناظرة، قالت، «بما أن إنجلترا لا شيء، لم تحترمها أمم الدول الأخرى؟»

«حسبت أن لا طفل سيسأل هذا السؤال،» أجاب هانسدن، الذي طول حياته لم يُعط أي معلومات قبل أن يوبخ بسبب غباء من سأله، «لو كنت طالبتي، أفترض أن لديك سوء الحظ لتكوني ذات شخصية بائسة، و لكنت وضعتك في الزاوية بسبب اعتراف جهل كهذا. لماذا، يا آنسة، ألا ترين أن ذهبنا يشتري أدب الفرنسيين، ورضا الألمان، والذل السويسري؟» ونخر بشيطانية.

«سويسري؟» قالت فرانسيس، وقد التقطت كلمة «ذل». «هل تدعو أبناء وطني بالأذلّاء؟» و وثبت. لم أستطع كتم ضحكة خافتة؛ كان هناك غضب في نظرتها وجموح في سلوكها «هل تسيء لسويسرا أمامي يا سيد هانسدن؟ هل تظن أنه ليس لي جماعة؟ هل تعتقد أني مستعدة للعيش على الرذيلة والمهانة التي قد توجد في القرى الألبية، وأزيل من قلبي العظمة الاجتماعية لأبناء وطني، وحريتنا المستحقة بالدماء، وشموخ جبالنا الطبيعية؟ أنت مخطئ، أنت مخطئ.»

«العظمة الاجتماعية؟ سميها ما تحبين، أبناء وطنك زملاء راشدون؛ إنهم يصنعون من فكرتك المجردة سلعة صالحة للعرض في الأسواق؛ لقد باعوا، منذ وقت طويل، عظمة مجتمعهم وحريتهم التي استحقوها بالدماء ليكونوا خدماً للملوك الأجانب.»

«لم تكن من قبل في سويسرا؟»

«أجل، لقد زرتها مرتين.»

«أنت لا تعلم عنها شيئاً.»

«أعلم.»

«وأنت تقول إن السويسريين مرتزقة، كما يقول البيغاء «اقتراع سيء»، أو كما يتهمهم الفرنسيون بكونهم غادرين: ليس هناك أي عدل في رأيك.»

«هناك حقيقة.»

«دعني أخبرك، يا سيد هانسدن، أنك رجل غير عملي كما أنا امرأة غير عملية، لأنك لا تعترف بما هو موجود؛ تريد أن تدمر الوطنية الفردية والعظمة الوطنية كما يدمر الملحد فكرة الله وروحه، بإنكار وجودهما.»

«إلى أين أنت تحلقين؟ لقد انحرفت عن الموضوع - ظننت أننا كنا نتحدث عن طبيعة السويسريين المرتزقة.»

«أجل كنا - و إن أثبتّ لي أن السويسريين مرتزقة غداً (وهذا شيء لا تقدر على فعله) سوف أبقى أحب سويسرا.»

«ستكونين مجنونة، حينها -مجنونة كآذار هنا- لتنغمسي في عاطفة لملايين حمولات بواخر من التراب، الخشب، والثلج.»

«ليس بجنونك أنت الذي لا تحب شيئاً.»

«هناك أسلوب لجنوني؛ ولا يوجد شيء في جنونك.»

«وسيلتك هي أن تعتصر الخلق وتصنع السماد من النفايات، بتحويلها إلى ما تسميه منفعة.»

«لا يمكنك المجادلة أبداً» قال هانسدن، «لا يوجد لديك منطق.»

«من الأفضل أن أكون بلا منطق من أن أكون بلا مشاعر،» ردت فرانسيس، كانت تمشي جيئة وذهاباً من الطاولة إلى الخزانة، قاصدة، إن لم تكن بناء على أفكار مضيافة، على الأفعال المضيافة، لأنها كانت تبسط القماش، وتضع الأطباق، والسكاكين والأشواك عليها.

«هل ذلك ضربة لي، يا آنسة؟ هل تفترضين أني عديم المشاعر؟»

«أعتقد أنك دائماً ما تتدخل بمشاعرك، ومشاعر الناس الآخرين، وتؤكد على لاعقلانية هذا، وذاك، وأحاسيس أخرى، ومن ثم تأمر بأن تُقمع لأنك تتصورها تتضارب مع المنطق.»

«أفعل الصحيح.»

اختفت فرانسيس عن ناظرينا ودخلت غرفة المؤن؛ وظهرت بعد قليل.

«أنت تفعل الصحيح؟، من الواضح، لا! أنت مخطئ إن كنت تعتقد ذلك.فقط كن جيداً ودعني أصل إلى النار، يا سيد هانسدن لدي شيء لأطهوه.» (في الوقت التالي، وضِعت «كَسَرولَّة» على النار؛ وبعدها، بينما كانت تحرك محتوياتها) «الصحيح! كما لو كان صحيحاً أن تحطم أي إحساس سعيد أعطاه الله للإنسان، بالذات أي إحساس، كالوطنية، ينشر أنانية الإنسان في حلقات أوسع.» (حُرّكت النار، ووُضع الطبق أمامها.)

«هل وُلدتِ في سويسرا؟»

«يجب أن أعتقد ذلك، وإلا لمَ عليّ أن اعتبرها بلدي؟»

«ومن أين حصلتِ على سماتك وجسدك الإنجليزي؟»

«أنا إنجليزية أيضاً؛ نصف الدم الذي يجري في عروقي إنجليزي؛ لذلك لي الحق في صلاحية وطنيتين، مهتمة بشأن دولتين شريفتين وحرتين ومحظوظتين.»

«كان لديك أم إنجليزية؟»

«نعم؛ وأنت، كما أفترض، لديك أم من القمر أو يوتوبيا، بما أنه لا يوجد هناك أمة في أوروبا لك شأن بها؟»

«على العكس، أنا مواطن عالمي، إن كنت أحسنتِ فهمي: وطني هو العالم.»

«لا بد أن التعاطف المنتشر سطحي جداً؛ هل تأتي إلى الطاولة. سيدي (أم أصبحت مأخوذاً بالقراءة على ضوء القمر) سيدي، العشاء جاهز.»

قالت هذا بنبرة صوت تختلف عن النبرة التي كانت تستخدمها في تقاذف الجمل مع هانسدن-ليست موجزة، أكثر لطفاً ونعومة.

«فرانسيس، ما الذي تعنينه بتحضير، العشاء؟ لم يكن في نيتنا البقاء.»

أوه، يا سيدي، ولكنكم بقيتم والعشاء جاهز الآن، لديكم فقط خيار تناول العشاء.»

كانت الوجبة غريبة، بالطبع؛ تكونت من طبقين صغيرين لكن لذيذين من لحم مطهو ببراعة ومقدم بأسلوب جميل؛ أكمله سلطة و «الجبن الفرنسي». توسطت عملية تناول الطعام بهدنة قصيرة بين المحاربين، ولكنهم عادا إليه فور أن تم التخلص من العشاء. موضوع المناظرة مرَّ على موضوع التعصب الديني الذي أكد السيد هانسدن على وجوده في سويسرا،

بالرغم من تعلق السويسريين بالحرية. هنا كانت فرانسيس أسوأ، ليس لأنها لم تكن ماهرة بالجدال، بل لأن رأيها بالموضوع صدف أن طابق و وافق رأي السيد هانسدن، وخالفته فقط لأجل معارضته. استسلمت أخيراً، معترفة أنها فكرت مثله، ولكنها جعلته يلاحظ أنها لم تعتبر نفسها قد هُزمت.

«لم يقم الفرنسيون أكثر في واترلو،» قال هانسدن.

«لا يوجد مقارنة بين القضيتين، » أجابت فرانسيس. «كانت قضيتي قتالاً مزيفاً.»

«مزيفاً أو حقيقياً، الأمر عائد إليك.»

«لا؛ بالرغم من أني لا أملك العلم ولا المنطق ولا الكلمات، مع ذلك في قضية عندما يختلف رأيي عن رأيك، ألتزم به عندما لا يكون لدي شيء لأقوله دفاعاً عنه، يجب أن تحتار بالتصميم المغفل. أن تتحدث عن واترلو؛ كان يجب أن يتم احتلال ويلينغتون هناك، وفقا لنابوليون، ولكنه دأب بصرف النظر عن قانون الحرب، وكان منتصراً في التخطيط الحربي. قد أفعل ما فعل هو.»

«أتوقع أنك ستفعلين ذلك؛ ربما لديك شيء من العناد فيك.»

«سآسف إن لم يكن لديّ؛ كان هو وتيل أخوين، وقد أزدرد السويسري، رجلاً كان أو امرأة، من لديه التحمل التي لدى روح بطلنا ويليام.»

«لو كان تيل مثل ويلينغتون، فهو أحمق.»

«أليست أحمق تعني حماراً؟» سألت فرانسيس، متجهة نحوي.

أجبتها «لا، لا، إنها تعني المفكر الحر، والآن، حان وقت الرحيل.»

نهض هانسدن. «إلى اللقاء،» قال لفرانسيس؛ «سأنطلق إلى إنجلترا الجميلة تلك غداً، وقد آتي إلى بروكسل بعد سنة أو أكثر؛ سأبحث عنك عندما أعود، وسترين ما إذا عثرت على وسيلة لجعلك أقوى من تنين. أحسنتِ صنعاً هذا المساء، ولكن يجب أن تتحديني بصراحة. في الوقت الحالي قدَرُكِ أن تصبحي مدام ويليام كريمسوورث، على ما أفترض؛ أيتها الآنسة المسكينة؟ لكن لديك شرارة شخصية؛ قدريها، وامنحي البروفيسور الفائدة منها.»

«سألت فرانسيس فجأة، «هل أنت متزوج، يا سيد هانسدن؟»

«لا. كان يجب أن أعتقد أنك ربما خمنت أني متزوج حديثاً من مظهري.»

«حسن، وقتما تتزوج لا تأخذ زوجتك من سويسرا؛ لأنك إن بدأت تسيء إلى هيلفيتيا، أو شتمت أقاليم سويسرا – فوق كل ذلك، تذكر كلمة أحمق بنفس النفَس الذي تنطق به اسم تيل، (لأن أحمق تعني حماراً، أعلم ذلك؛ بالرغم من أن سيدي راض بترجمتها بالمفكر الحر) ستُخْنَق ستَخنُقُكَ آنستُك، كما خَنَقَ أوثيللو دزديمونا.

«لقد تم تحذيري،» قال هانسدن، «وأنت أيضاً، يا فتى» (مومئاً لي). لا زلت آمل بأن أسمع عن المحاكاة بين البربري وسيدته اللطيفة، التي ستتغير فيها الأدوار حسب الخطة الموضوعة الآن – وأن تكون أنت في قلنسوة النوم خاصتي. الوداع يا آنسة!» انحنى عند راحتها، وبلا ريب كالسير تشارلز جراندبسون عندما انحنى لهاريت بايرون؛ مضيفاً – «لن تكون المنيّة من هذه الأصابع بلا مفاتن.»

«يا إلهي،» تمتمت فرانسيس، فاتحة عينيها الكبيرتين و رافعة حاجبيها المميزين؛ «يا له من مجامِل! لم أكن أتوقع ذلك.» ثم ضحكت ضحكة

نصفها غضب، ونصفها مرح، مع انحناءة احترام مرفقة بكياسة أجنبية، وهكذا افترقا.

حالما نزلنا إلى الشارع، أمسك هانسدن بخناقي.

«وهذه هي خياطتك؟» قال لي، «وتظن أنك فعلت شيئاً حسناً وشهماً بعرضك الزواج عليها؟ أنت، سليل سيكوم، أثبتّ كرهك للفروق الاجتماعية باستيلائك على عاملة! وأنا أشفقت على الزميل، ظاناً أن مشاعره أضلّته، وأنه ضرّ نفسه بخطوبته لزوجة سيئة!»

«أترك ياقتي، يا هانسدن.»

على العكس، لقد أرجحني للأمام والخلف؛ لذلك تشبثت بخصره. كان الجو مظلماً؛ والشارع وحيداً وبلا مصابيح. وتشاددنا نحن الاثنان؛ وبعد أن تدحرجنا نحن الاثنان على الرصيف، ونهضنا بصعوبة، اتفقنا على أن نسير برزانة أكثر.

«أجل، تلك هي خياطتي،» قلت له، «وستصبح لي مدى الحياة - إن شاء الله.»

«لن يشاء الله - لا تستطيع أن تفترض هذا؛ ما فائدتك أن تناسبك شريكتك جيداً؟ وتعاملك بنوع من الاحترام، أيضاً وتقول، «سيدي» وتعدل من صوتها وهي تكلّمك، كما لو كنت شيئاً أسمى! لا تستطيع أن تظهر احتراماً أكثر لشخص مثلي، لو فضّلها الحظ لدرجة كبيرة وجعلها خياري بدلا من خيارك.»

«أنت مغرور، يا هانسدن. ولكنك رأيت صفحة عنوان سعادتي؛ لا يمكنك أن تعلم الحكاية التي تتبعها؛ لا يمكنك أن تتخيل المتعة والتنوع الجميل والمتعة المثيرة للحكاية.»

هانسدن -يتحدث الآن بصوت منخفض، لأننا الآن دخلنا شارعاً مزدحماً- أرادني أن أمسك عن الكلام، مهدداً أنه سيقوم بشيء مرعب إن أنا استفززت غضبه بالتفاخر. ضحكت حتى تألمتْ جنباتي. وصلنا فندقَه بعد قليل؛ قبل أن يدخل، قال لي: «لا تكن مختالاً. إن خياطتك كثيرة عليك، ولكنها ليست جيدة كفاية لي؛ إنها لا ترقى لامرأتي المثالية لا جسداً ولا أخلاقاً. لا؛ أحلم بشيء أبعد من تلك «الهلفيتية» الشاحبة الوجه (بالمناسبة إن فيها من باريس أكثر من يونغفراو»). إن الآنسة هنري خاصتك سقيمة بالفكر ضعيفة الشخصية، مقارنة برؤياي. قد تتحمل بالطبع الوجه الكتوم، ولكن عندما أتزوج يجب أن يكون لديها ملامح متناسقة وسوية، شيء أفخم وأفضل مما تتباهى به تلك الطفلة الحمقاء.»

«قُمْ برشوة أحد الساروفين (الخدم) ليجلب لك حطباً من الجنة إذا شئت،» قلت له، «وبها أضرم الحياة في أطول وأسمن النساء ، ذوات الدماء النبيلة اللاتي رماهنَّ روبن - اترك لي فقط آنستي، ولن أحسدك.»

بحركة متزامنة، ولّى كل منهما ظهره للآخر. لم يقل أي منهما «فليباركك الرّب» مع ذلك غداً سيتمايل البحر بيننا.

* * *

25

أنهت فرانسيس فترة الحداد على عمتها في غضون شهرين. في أحد صباحات كانون الثاني -أول عطلة السنة الجديدة- ذهبت في عربة أجرة برفقة السيد فاندنهوتن، لشارع ثلج نوتر دام، وبعد أن صعدنا وحيدين وجدت فرانسيس في انتظارنا، مرتدية بطريقة تلائم ذلك اليوم البارد الوضّاء والمكسو بالصقيع. لم أرها من قبل مرتدية سوى الأسود أو زياً بألوان حزينة؛ وها هي واقفة قرب النافذة، مرتدية الأبيض، الأبيض ذو نسيج شفاف؛ كان لباسها بسيطاً جداً، للتأكيد، ولكنه بدا مهيباً ومهرجانياً لأنه كان ناصعاً، مفصلاً، وطليقاً؛ غطى رأسها وشاح، وتدلى أسفل ركبتها؛ مع إكليل من الورد مثبت على جديلة شعرها، وتدلى من ذلك المكان على جانبي وجهها. كانت وحيدة، أو كانت تبكي؛ عندما سألتها ما إن كانت جاهزة، قالت لي، «أجل، يا سيدي» بنوع من الشهقة المكتومة؛ وعندما تناولت شالاً، كان ملقى على الطاولة، ولففتها به، لم تطارد فقط دمعة إثر أخرى على وجنتها، ولكنها أيضاً ارتجفت لخدمتي كالقصبة. عبرت لها عن أسفي لرؤيتها في حالة حزن كهذه، وطلبت منها أن توضح لي مصدرها. قالت فقط، «كان من المستحيل أن أمسك نفسي،» ومن ثم طوعاً، وعلى عجالة، واضعة يدها في يدي، رافقتني خارج الغرفة، ونزلت

السلالم بخطوة سريعة ومترددة، كشخص يتوق لأن ينهي عملاً صعباً. وضعتها في العربة. استقبلها السيد فاندنهوتن، وأجلسها بجانبه؛ ذهبنا معاً إلى الكنيسة البروتستانتية، أنجزنا خدمة من كتاب الصلاة، وتزوجت أنا وهي. زفَّ السيد فاندنهوتن العروس.

لم نسافر لنمضي شهر العسل؛ تواضعنا، المستور بضبابية محطتنا، ووضعنا المعزول، لم تتطلب تلك الحيطة الإضافية. لذنا ببيت صغير أخذته في ضاحية قريبة من المدينة حيث وُجدت مهنتنا. بعد حفل الزفاف بثلاث لأربع ساعات، فرانسيس، بعد أن تعرّت من ثلجها الزفافي، ومرتدية ثوباً أرجوانياً جميل من خامة دافئة، ومئزراً من الحرير الأسود، وياقة تزينها شريطة أرجوانية، كانت راكعة على سجادة قاعة صغيرة لكن مؤثثة بأناقة، ترتب على رف من الجوخ بعض الكتب التي ناولتهم لها من الطاولة. كانت تثلج بغزارة في الخارج؛ أصبح المساء أبيض وبارداً؛ كانت السماء ثقيلة بالثلوج، وبلغ الثلج في الشارع من الارتفاع حتى الكاحل. اشتعلت نارنا بسطوع، سكننا الجديد بدا جميلاً وحديثاً، كان الأثاث مرتباً، وكان هناك بعض بضع قطع زجاجية، وخزفية وبعض الكتب، للترتيب. وجدت فرانسيس في هذا العمل شاغلاً حتى وقت شرب الشاي، وبعد أن علمتها كيف تعد كوب الشاي على الطراز الإنجليزي، وبعد أن تجاوزت الفزعَ التي سببتها رؤية هذا الكم الهائل من المواد التي توضع في إبريق الشاي، منحتني مأدبة إنجليزية أصيلة، لم نحتج بها لا للحلوى أو لوعاء الشاي المعدني، لا النار ولا رفاهية.

مضى أسبوع العطلة، وعدنا إلى العمل. بدأت أنا وزوجتي بجدية بفكرة أننا عمّال، وقدرنا أن نكسب عيشنا بجهدنا، وبمواظبتنا. كانت أيامنا مشغولة بالكامل؛ اعتدنا على الفراق الساعة الثامنة من كل صباح، ولا

نلتقي مجدداً حتى الخامسة مساءً؛ ولكن يا لها من راحة ينتهي بها كل يوم شاقّ! ناظراً إلى مشهد من الذاكرة، أرى أن المساءات التي حلّت في تلك الدار كخيط من الياقوت الأحمر يطوّق بحاجب الماضي المظلم. كانوا متشابهين كالجواهر المصقولة، وككُلٍّ جوهرة مشتعلة ولامعة.

مضى عام ونصف، في صباح (كان إجازةً، وكان اليوم لنا وحدنا) قالت لي فرانسيس، بحزن خاص بها عندما تفكر لمدة طويلة بأمر ما، وأخيرا، وصلت إلى نتيجة، رغبت أن تتحقق من صحته بمعرفة رأيي: «أنا لا أعمل كفاية.»

سألتها «ماذا الآن؟» رفعت نظري عن قهوتي، التي كنت أحركها بينما أستمتع، مقدماً، بنزه عرضتها على فرانسيس، في يوم الصيف ذلك (كان في حزيران)، إلى بيت مزرعة في الريف، حيث كنا سنتعشى. «ماذا الآن؟» ورأيت فوراً، في الحماسة الجادة في عينيها، مشروعا ذا أهمية حيوية.

«أنا لست راضية،» قالت، «أنت الآن تكسب ثمانية آلاف فرنك في السنة» (كان هذا صحيحاً؛ جهودي، دقتي، شهرة تطور طلابي، شهرة مهنتي، ساعدوني إلى الآن)، «بينما لا أزال أكسب ألفاً ومئتي فرنك. أستطيع أن أقوم بأفضل من هذا، وسأفعل.»

«أنت تعملين كما أعمل، يا فرانسيس،»

«أجل، يا سيدي، ولكني لا أعمل بالطريقة الصحيحة، وأنا مقتنعة بذلك.»

«أنت ترغبين بالتغير - لديك خطة للتطور في عقلك؛ اذهبي وارتدي قلنسوتك؛ وبينما نتنزه، ستخبرينني عنها.»

«أجل يا سيدي.»

ذهبت منصاعة كطفل حسن التربية؛ كانت مزيجاً من الانقياد والصرامة: جلست أفكر بها، وأتساءل ماذا يمكن أن تكون خطتها، عندما عادت.

«يا سيدي، أعطيت ميني (خادمتنا) الإذن بالخروج أيضاً، لأن الجو جيد جداً؛ لذلك هل يمكنك أن تغلق الباب، وتأخذ المفتاح معك؟»

«قبليني، يا مدام كريمسوورث،» كان ردي؛ لكنها بدت مشغولة جداً بثوبها الصيفي الخفيف وقبعتها، وأسلوبها في الحديث معي كان حينها، كالعادة، بلا تكلف ومحترم ولبق، حتى أن قلبي نما لرؤيتها، وبدت القبلة ضرورية لترضي إلحاحه.

«هاك، يا سيدي.»

«لمَ دائماً تنادينني «سيدي»؟ قولي «ويليام.»

«لا أستطيع أن أنطق الواو؛ فوق ذلك، فإن «سيد» تليق بك؛ أفضلها أكثر.»

بما أن ميني غادرت، نحن أيضاً، تاركين المنزل وحيداً وساكناً- ساكناً على الأقل، عدا صوت دقات الساعة. بعد قليل كنا خارج بروكسل؛ استقبلتنا الحقول، ومن ثم الطرق، بعيداً عن ضجيج العربات اقتربنا من خلوة، ريفية، خضراء، ومنعزلة، قد تكون بقعة في ولاية إنجليزية ريفية؛ عرضت ضفة من العشب الطحلبي القصير، تحت الزعرور البري مجلساً لا يمكن رفضه؛ أخذناه، وعندما نظرنا وتأملنا بعد الأزهار البرية، الشبيهة بتلك الإنجليزية، التي كانت تنمو عند أقدامنا، استرعيت انتباه فرانسيس إلى الموضوع الذي بدأناه عند الإفطار.

«هكذا كانت خطتها؟» خطة عادية-الخطوة الأولى لنتخذها، أو على الأقل، لتتخذها هي، لو أرادت أن تترقى في مهنتها اقترحت أن تفتتح مدرسة. لدينا الموارد للشروع على مقياس حذر، كوننا عشنا جيداً جدا بمدخولنا. كان لدينا، أيضاً، في ذلك الوقت، علاقات ممتدة وجيدة، في اتجاه يفيد عملنا؛ لأنه، بالرغم من أن دائرة معارفنا الزوار كانت لا تزال محدودة، كنا معروفين على نطاق واسع عند المدارس والعائلات كمعلمين. عندما طورت فرانسيس خطتها، أعلنت، بجمل ختامية، آمالها للمستقبل. لو كان لدينا صحة جيدة ونجاح مقبول، أنا ربما، كانت متأكدة، مع الوقت أن نحقق استقلالاً؛ وهذا ربما قبل أن نصبح أكبر من أن نستمتع بها؛ حينها سنرتاح أنا وهي؛ وما الذي سيمنعنا من زيارة إنجلترا؟ لا تزال إنجلترا أرض الميعاد بالنسبة لها.

لم أضع عائقاً في طريقها؛ ولم أعترض؛ عرفت أنها ليست الإنسانة التي تعيش هادئة وخاملة، أو حتى خاملة نسبياً. يجب عليها أن تؤدي واجباتها، وواجبات مهمة؛ عمل للقيام به - وعمل مثير، ومستحوذ ومفيد جداً؛ تحركت سماتها القوية، وطالبت بالازدهار التام، الممارسة الحرة: لم أكن أعيق ميزاتي أو أحرمها؛ لا، ابتهجت لتوفيرهم بالتغذية التي تتطلّبها، وفي توفير مساحات أكبر للحركة.

قلت لها: «لقد وضعت خطة، يا فرانسيس، وخطتك جيدة؛ نفذيها؛ لديك موافقتي الكاملة، وحينما تحتاجين لمساعدتي، اطلبيها وستحصلين عليها.»

شكرتني عيون فرانسيس تقريباً بالدموع؛ فقط تلألؤ أو اثنان، مسحتهم بسرعة؛ أمسكت بيدي، وبقيت ممسكة بها لفترة أيضاً، ولكنها لم تقل أكثر من «شكراً، يا سيدي.»

أمضينا يوماً مقدساً، وعدنا إلى المنزل في وقت متأخر، ونور قمر الصيف المكتمل ينيرنا.

أسرعت عشر سنوات بأجنحة مغبرة متذبذبة؛ سنوات من العمل النشيط، والمحاولات المستمرة؛ سنوات، بعد أن انطلقنا في التقدم في مهنتنا، بينما يدور التقدم في العواصم الأوروبية، بالكاد عرفنا الراحة، كنا غريبين عن المتعة، لم نفكر بتاتا في مهلة، ومع ذلك، بينما مشينا في مسيرتنا جنباً إلى جنب، كما مضينا يداً بيد، لم نتذمر أو نندم، أو نتداعى. رفع الأمل من معنوياتنا؛ بقيت صحتنا سليمة، تخلص انسجام أفكارنا وأفعالنا من الكثير من الصعوبات، وأخيراً، منحنا النجاح من حين لآخر جائزة على الاجتهاد. أصبحت مدرستنا واحدة من أهم المدارس في بروكسل، ورفعنا شروطنا ونظام تعليمنا، أصبح اختيارنا للطلاب من الصفوة، وعلى المدى البعيد انضم إلينا أبناء أفضل العائلات في بلجيكا. كان لدينا علاقات ممتازة في إنجلترا، افتتحت بتوصية السيد هانسدن التي لا داعي لها، الذي انتهى، وكونه أساء إلي بشروط مُضِرَّة، عاد، وبعدها أرسل سلسلة من الوريثات من شاير- قريباته؛ كما قال، «ليتم صقلهن من قبل مدام كريمسوورث.»

بالنسبة إلى مدام كريمسوورث، من جهة، فقد أصبحت امرأة أخرى، بالرغم من أنه من ناحية أخرى لم تتغير. كانت تتغير جداً تحت ظروف مختلفة. بدا لي أنه لدي زوجتين. قدراتها الطبيعية، التي كُشفت عندما تزوجتها، بقيت طازجة وجميلة؛ ولكن بعض القدرات أصبحت أقوى، تفرّعت، غيرت الصفة الخارجية للنبتة. الثبات، النشاط، وحب المغامرة، المغطاة بالزخرفة الجليلة، إحساس شاعري واتّقاد؛ ولكن تلك الزهور ما تزال هناك، مصونة نقية وندية تحت أغصان ذات نمو متأخر

وطبيعة أكثر جسارة: ربما كنت الوحيد في العالم الذي عرف سر وجودهم، ولكنهم بالنسبة لي جاهزون لأن يَهَبوا عبيراً ويقدمون جمالاً طاهراً ومُشِعّاً.

خلال النهار كان بيتي ومؤسستي مُدارين من قبل مدام بيليت المديرة، المرأة جليلة وأنيقة، حاملة القلق على ملامحها؛ الكثير من الجلال المحسوب في ملامحها: اعتدت على الافتراق عن هذه السيدة مباشرة بعد الإفطار؛ ذهبت إلى كليّتي، وهي إلى صفها، وأعود لساعة واحدة خلال اليوم، لأجدها لا تزال في الصف، مشغولة؛ صمت، مثابرة، احتفالات، اهتمامها بالحضور. عندما لا تكون تعلم، كانت تشرف وتدير بالعين والإشارة؛ بدت حينها يقظة ومهتمة. عندما تعطي التعليمات، تكون هيئتها أكثر حيوية. بدا أنها تشعر بالمتعة في عملها. اللغة التي تخاطب بها طالباتها، بالرغم من أنها بسيطة وغير مدَّعية، لم تكن أبداً تافهة أو جافة؛ لم تتحدث في صيغ روتينية - شكلت جملها بينما تابعت، وغالباً ما كانت جملها منفعلة ومثيرة للإعجاب؛ غالباً، عندما تشرح نقاطها المفضلة في التاريخ، أو الجغرافيا، تزداد فصاحتها وحماسها. طلابها، أو على الأقل أكبرهن وأكثرهن ذكاءً، ميزن جيداً لغة العقل المتفوق؛ شعرن أيضاً، وبعضهنّ أخذن انطباعاً عن المشاعر السامية؛ كان هناك القليل من الملاطفة بين المعلمة والطالبات، ولكن بعض طالبات فرانسيس تعلمن مع الوقت أن يحببنها بإخلاص، كلهنّ يحترمنها؛ سلوكها العام تجاههن كان جاداً؛ في بعض الأوقات عطوفة عندما يسعدنها بتقدمهن واهتمامهن، دائماً مراعية لمشاعر الآخرين ولبقة. في الحالات التي يلزم فيها العقاب والتأنيب كانت دائماً صبورة؛ إن استغل أحد هذا الصبر، وهذا حصل بعض الأوقات، علّمت قسوة كالصاعقة المذنبَ حجم الخطأ المُرتكب. أحيانا لَيّن اللطف سلوكها ونظراتها، لكن هذا كان نادراً؛ فقط عندما تكون طالبة مريضة، أو عندما تشتاق لمنزلها، أو

في حالة وجود طالبة يتيمة الأم، أو واحدة أفقر من زميلاتها، التي جَلَبَ دولابها الزهيد وتجهيزاتها العادية عليها حقد السيدات النبيلات المرصّعات بالجواهر، والأنسات المرتديات الحرير. تبسط المديرة جناحي الحماية على تلك الفراخ الصغيرة: أتت لأسرتهم لتغطيهن بدفء؛ اعتنت بهن في الشتاء لتتأكد من أن لديهن مقعداً مريحاً قرب الموقد؛ كن هن اللواتي يُدْعين إلى الصالة ليأخذن صدقة من الكعك أو الفواكه -ليجلسن على كرسي بجانب النار- ليستمتعن براحة المنزل، وتقريباً حرية المنزل، لمساء معاً -لتتحدث إليهن بلطف، تطمئنهن، وتشجعهن، وتدللهن-وعندما يحين وقت النوم، يصرفن بقبلة حنان صادق. بالنسبة إلى جوليا وجورجيانا، بنات بارون إنجليزي، وبالنسبة لماتيلدا، وريثة كونت بلجيكي، وعدة من بنات النسل النبيل الأخريات، كانت المديرة حريصة عليهن كما هي حريصة على البقية، قلقة على تقدمهن؛ كما بالنسبة للبقية -لكن لم يبدو لها أن فكَّرتْ في تمييزهن بعلامة تفضيل؛ أحبت طالبة من بنات الدم النبيل -بارونة إريلندية شابة - الأنسة كاثرين-؛ ولكن كان ذلك لقلبها المتحمس وعقلها الذكي، لكرمها وعبقريتها، كان اللقب والمكانة بلا فائدة.

أمضيت مساءاتي أيضا في الكلية، باستثناء ساعة انتزعتها زوجتي مني لمؤسستها يومياً، ولم تكن لتتخلى عنها أبداً. قالت إنه يجب عليّ أن أمضي هذا الوقت بين طالباتها لأعرف شخصياتهن، لأكون مدركاً لكل شيء يجري في المؤسسة، لأصبح مهتماً بالذي تهتم هي به، لأكون قادراً على إعطائها رأيي في النقاط المعقدة عندما تطلبها، وفعلت ذلك باستمرار، لا تسمح لاهتمامي بالطالبات أن يخفُت، ولا تقوم بأي تغيير مهم دون علمي وموافقتي. فرحتُ بجلوسها جانبي عندما أعطيتها دروساً (دروسا في الأدب)، يداها على ركبها، أكثر وضعية ثابتة للانتباه. بالكاد كلّمتني في

الحصة؛ عندما كانت تفعل ذلك باحترام كبير؛ كانت سعادتها ومتعتها أن تجعلني أبقى المعلم في كل الأمور.

انتهت ساعات عملي عند الساعة السادسة. رجعت وقتها إلى البيت، لأن بيتي هو جنتي؛ دائما في تلك الساعة، عندما أدخل غرفة الضيوف خاصتنا، اختفت المديرة من أمامي، وعادت بطريقة سحرية، فرانسيس هنري، خياطتي الصغيرة، على ذراعيّ؛ ستكون خائبة الأمل إن لم يكن سيدها وفياً للقاء الحب مثلها، ولم تكن قبلته سريعة في مقابلة «مساء الخير سيدي» خاصتها.

قد تتحدث معي بالفرنسية، وحصلت على الكثير من العقوبات عل عنادها. أخاف أن يكون اختيار التأنيب ألا يكون عادلاً، لأنه بدلاً من تصحيح الخطأ، بدا أنه يشجع على إعادته. كانت أمسياتنا ملكاً لنا وحدنا؛ كانت تسليتنا هي وسيلتنا لتنشيط أنفسنا بعد التخلص من واجباتنا؛ في بعض الأحيان نُمضي الوقت نتجاذب أطراف الحديث، وصغيرتي التي من جينيف، التي تعودت الآن على معلمها الإنجليزي، الآن بما أنها أحبته بكل ما في الكلمة من معنى لتخشاه، اعتمدت فيه على ثقة غير محدودة لدرجة أنه لا تنقصه معها مواضيع المناقشة كما تنقصه مواضيع حيمة على قلبها. في هذه اللحظات، سعيدة كطائر مع زوجه ، قد تريني ما لديها من حيوية، مرح، و أصالة في طبيعتها المتوارثة. قد تظهر أيضاً، مخزونها من المزاح ومن الحقد، ومن الغيظ، والانزعاج، قد تضايقني في بعض الأوقات فيما تسميه غرابة الإنجليز، وجزيرة الأهواء، بخبث ذكي وبرّي يجعلان منها شيطانة بيضاء عندما تُظهرهم. كان هذا نادراً، مع ذلك، وكان القزم المجنون دائما قصيراً: عندما يدفع في بعض الأوقات في حرب الكلمات-لأن لسانها يسهب في الحق بدلا من لبّ الموضوع، الموضوع، رقة لغتها الفرنسية، وهي

اللغة التي تهاجمني بها دائماً - اعتدت أن أنقلب عليها بقراري القديم، وأعتقل جسدياً القزم الذي استفزني. فكرة عقيمة! يهرب القزم قبل أن أمسك بيدٍ أو ذراع؛ أخمدت البسمة الاستفزازية في العيون البنية المعبّرة، سطع شعاع من الجلال تحت الجفون مكان عيونها. لقد أسرت جنية متعبة، و وجدت امرأة مطيعة ومتوسلة بين ذراعي. ثم جعلتها تحضر كتاباً، وتقرأ لي بالإنجليزية لمدة ساعة كَتَوْبَةٍ. عالجتها مراراً بووردسورث بهذه الطريقة، وعدلها ووردسورث سريعاً؛ كان لديها صعوبة في فهم عقليته العميقة والهادئة؛ لم تكن لغته سهلة عليها؛ كان عليها أن تطرح أسئلة، أن تطلب شرحاً، أن تكون كطفلة ومبتَدِئة، وأن تعترف بي أرشد منها وموجهها. امتلكت غريزتها مقاصد كتّاب أكثر توقداً وخيالاً. أثارها بيرون؛ أحبت سكوت؛ احتارت فقط في ووردسورث، وتساءلت بشأنه، وترددت في إعطاء رأيها فيه.

لكن سواء تحدثت معي، قرأت لي؛ سواء استفزتني بالفرنسية، أو توسلت إليّ بالإنجليزية؛ سواء مزحت بذكاء، أو سألت باحترام؛ روت باهتمام، أو استمعت بانتباه؛ سواء ابتسمت لي أو علي، دائما عند الساعة التاسعة تماما كنت أُترك مهجوراً. فهي تحرر نفسها من ذراعي، تغادر جانبي، تتناول مصباحها وتغادر. كانت مهمّتها في الطابق العلوي؛ تبعتها في بعض الأحيان وشاهدتها. أولاً فتحت باب المهجع (غرفة الطالبات)، وانسلّت بهدوء في الحيز بين صفّي الأسرّة البيضاء، وتفقدت كل النائمات؛ لو كنَّ مستيقظات، بالذات لو كنَّ حزينات، تحدثت إليهن وطيّبتْ خاطرهن؛ توقفت لبعض الوقت لتتأكد من أن كل شيء بأمان وهدوء؛ وأطفأت المصباح الذي بقي مشتعلاً طول الليل، ومن ثم انسحبت من الغرفة مغلقةً البابَ خلفها بلا صوت. من ثم تذهب إلى غرفتنا؛ كان فيها حجرة صغيرة أيضاً،

بحثت عنها؛ كان هناك أيضاً سرير، واحد، وهو سرير صغير؛ وجهها (في الليلة التي تبعتها وراقبتها) تغير وهي تقترب من هذا السرير الصغير؛ تغير من الجلال إلى الاهتمام؛ غطت بيدها المصباح الذي كانت تحمله بالأخرى؛ مالت على الوسادة رأت طفلاً نائماً؛ نومه (ذلك اليوم على الأقل، وكالعادة، كما أعتقد) كان هادئاً وعميقاً؛ لم تبلل دمعة رموشه السوداء؛ لم تسخن أي حمّى وجنته المستديرة؛ لم يزعج حلم سيّء ملامحه المتبرعمة. حدقت فرانسيس، لم تبتسم، ومع ذلك ملأ وجهها فرحة غامرة، وتورد وجهها؛ شغّل شعوره بالسرور، والقوة، جسدها كله، الذي كان بلا حراك. رأيت صدرها يتنهّد، افترّ ثغرها قليلاً، أصبح تنفسها متعجلاً؛ ابتسم الطفل؛ وأخيراً ابتسمت الأم أيضاً، وقالت في مناجاة منخفضة، «فليبارك الله ابني الصغير!» اقتربت منه أكثر، وطبعت أنعم القبلات على جبينه، غطت يده الصغيرة في يدها، وأخيراً نهضت وأتت. رجعت إلى الغرفة قبلها. بعد أن دخلت الغرفة بعدي بدقيقتين، قالت بعد أن وضعت مصباحها المطفأ، «فيكتور ينام جيداً: ابتسم في نومه؛ لديه ابتسامتك، يا سيدي.»

المدعو فيكتور كان بالطبع ابنها، المولود في السنة الثالثة لزواجنا: مُنح اسمه المسيحي على شرف السيد فاندنهوتن، الذي استمر بكونه صديقنا المحبوب والثقة.

كانت فرانسيس وقتها زوجة عزيزة علي، لأني كنت زوجاً جيداً وعادلاً ومخلصاً لها. ما الذي ستكونه لو أنها تزوجت برجل قاسي القلب وحسود ومهمل -ماجن، مبذر، سكّير أو طاغية- مسألة أخرى، وهو سؤال سألتها إياه. جوابها، المعطى بعد بعض التأمل، كان، «لكنتُ تحملت الشر لأعالجه لفترة؛ وعندما أجد أنه لا يمكن علاجه ولا يطاق، لكنت غادرت معذّبي فجأة وبصمت.»

«وإن أجبرك القانون أو القوة على الرجوع هناك مجدداً؟»

«ماذا، لغبيّ سكّير، وماجن، ومبذر أناني، وظالم؟»

«أجل.»

«لكنت عدت؛ واثقة مجدداً أن خطيئته وبؤسي قابلان للعلاج؛ وإلا، سأغادره مجدداً.»

«وإن أجبرت مجدداً على العودة، وأُجبرت على الطاعة؟»

قالت على عجل، «لا أعلم، لمَ تسألني، يا سيدي؟»

كان لدي جواب، لأني رأيت نوعا غريباً من الشخصية في عينيها، والذي أصررت على أن أوقظ صوتها.

«يا سيدي، لو كانت المرأة تكره بطبيعتها الرجل الذي تزوجته، لا بد أن يكون الزواج عبودية. وسيثور جميع المحقين، حتى لو كان العذاب ثمن المقاومة، يجب أن يتحديا العذاب: بالرغم من أن الطريق الوحيد للحرية يوجد بين بوابات الموت، يجب أن يتم عبور تلك البوابات؛ لأن الحرية لا غنى عنها.حينها سيدي، سأقاوم بقدر ما تسمح به قوتي؛ عندما تنفد تلك القوة، سأكون واثقة من ملاذي. سيقيني الموت من القوانين والعواقب.»

«الموت طوعا، يا فرانسيس؟»

«لأنه يا سيدي. ستكون لدي الشجاعة لأعيش كل نوبة عذاب مخصصة لي، ومبدئي السعي إلى الحرية والعدل حتى النهاية.»

«أرى أنكِ لم تعطيني إجابة واضحة. والآن، على فرض أن القدر منحكِ نصيب سيدة كبيرة في السن، ماذا إذن؟ كيف كنت ستحبين العزوبية؟»

«ليس كثيراً، بالتأكيد. لا بد وأن تكون حياة سيدة كبيرة في العمر فارغة ومضجرة - وقلبها ملطّخ وفارغ. لو كنت امرأة مسنة لكنت بذلت جهودي لأملأ الفراغ وأخفف الألم. لكنت فشلت، وتوفيت ضعيفة وخائبة الأمل، مهانة وبلا أهمية، كالنساء العازبات الأخريات. ولكنني لست امرأة مسنة.» أضافت على عجلة. «كنت سأصبح واحدة لولا سيدي. لم أكن منسوبة لأي رجل عدا الأستاذ كريمسوورث - لا رجل آخر، فرنسي انجليزي، أو بلجيكي، قد يعتبرني جميلة أو ظريفة؛ وأشك أنه سأكترث لاستحسان الآخرين، لو كان بإمكاني الحصول عليه. الآن أنا زوجة الأستاذ كريمسوورث لثماني سنوات، وما هو في عيني؟ هل هو شريف، محبوب-؟ توقفت، فصل صوتها، امتلأت عيناها. كنا واقفين جنباً لجنب؛ طوقتني بذراعيها، وضمتني لقلبها بإخلاص شغوف: طاقة وجودها توهجت في عينيها السوداء المتسعة، جعلت لون وجنتها قرمزياً؛ كانت نظرتها وحركتها كالإلهام؛ في أحدهما هناك وميض، وفي الآخر قوة. بعد نصف ساعة، عندما هدأت، سألتها أين اختفت كل تلك الحيوية التي حولتها منذ فترة إلى وجعلت نظرتها مشوقة ومتّقدة-أفعالها سريعة وقوية. خفضت نظرها، مبتسمة بنعومة وسلبية.

قالت «لا أعرف أين ذهبت، يا سيدي، لكني أعرف حينما أحتاجها، ستعود مجدداً.»

نحن الآن في نهاية السنة العاشرة، وقد حققنا استقلالاً. سرعة وصولنا إلى هذه النهاية يعود إلى ثلاثة أسباب: أولا: لقد عملنا بجد من أجلها؛ ثانياً: لم يكن هناك عوائق لتؤجل نجاحنا؛ ثالثا: سرعان ما كان لدينا رأس المال للاستثمار، مستشارون ماهرون، واحد في بلجيكا، والآخر في إنجلترا، أي بمعنى، فاندنهوتن وهانسدن، نصحانا بنوع الاستثمار الذي

علينا أن نختاره. كان الاقتراح المقدم حصيفاً؛ ولأنه نُفّذ حالاً، أثبتت النتيجة أنها مربحة - لا أحتاج لأن أقول كم كانت مربحة؛ نقلت التفاصيل للسيد فاندنهوتن والسيد هانسدن؛ لا أحد آخر قد يكون مهتما لمعرفتهم.

بعد أن تم قطع حساباتنا، والتخلص من وظائفنا، اتفقنا على أن الجشع ليس سيدنا، ولم نرغب في تمضية حياتنا في خدمته؛ كما أن رغباتنا قنوعة، وعاداتنا ليست متباهية، لدينا الآن ما يكفي لنعيش به وأكثر - وفرة لنترك طفلنا؛ يجب إلى جانب ذلك أن يكون لدينا توازن من جهة، والتي إن أُديرت بالعطف الصحيح والنشاط الإيثاري، قد تساعد على الصدقة في مشاريعها، وتضع مواساة في يد المعروف.

قررنا أن نطير إلى إنجلترا؛ وصلنا بأمان؛ فرانسيس حققت حلم حياتها. قضينا صيفاً وخريفاً في التنقل في جميع جزر البريطانية، وبعد ذلك قضينا شتاءً في لندن. وثم اعتقدنا أنه حان الوقت لنحدد مكان سكننا. قلبي كان يتوق لمسقط رأسي-شاير؛ وفي-شاير أعيش الآن؛ أنا الآن أكتب في مكتبة منزلي. يقع هذا المنزل وسط منطقة كثيرة التلال ومعزولة، تبعد ثلاثين ميلاً عن X-؛ منطقة لم يفسد خضرتها بعدُ دخان الطواحين، والتي لا تزال مياهها نقية، حيث أراضيها احتفظتْ بجداول من السرخسيات، بينها برّية طبيعة بدائية، مستنقعاتها، أجمة السرخس، الجريس، رائحة قصبها ونبات الخلنج، نسيمُها المنعشُ و الحُرّ. إن بيتي فاتن وليس مسكناً واسعاً، بنوافذ طويلة ومنخفضة، رواق بعريشٍ أمام المنزل، الآن في هذا المساء الصيفي، يبدو كقنطرة من اللبلاب والزهور. الحديقة عبارة عن مرجة خضراء، من مرج الهضبة، بكلأ قصير وناعم كالطحالب، مليئة بأزهارها، الصغيرة والشبيهة بالنجمة. في نهاية الحديقة المنحدرة، هناك بوابة صغيرة، تفتح على ممر، أخضر كالمرج، طويل جداً وظليل، ومألوف قليلاً؛ على

أرض هذا الطريق هناك زهر الأقحوان الربيعي-ومنه أُخذ اسمه، طريق الأقحوان؛ يعمل أيضا كعلامة فارقة للمنزل.

يتهي (أقصد الطريق) في واد مليء بالغابة؛ غابة -بلوط و زانٌ بشكل أساسي- تنتشر بظلالها حول منزل قديم، واحد من الأبنية الإليزابيثية، أكبر وأعرق من طريق الأقحوان، ملكية ومسكن فرد مألوف لي وللقارئ. أجل، هانسدن؛ لأن تلك الفرج في الغابة وذلك المبنى الرمادي، بالعديد من الجملونات والمداخن، المسمى - بقي ليورك هانسدن، الأعزب؛ أفترض أنه لم يجد قدره أبداً، مع أني أعلم أنه على الأقل مجموعة من النساء في نطاق أربعين ميلاً، يرغبن في مساعدته في البحث. انتقلت الأملاك له بعد موت أبيه، منذ خمس سنوات؛ تخلى عن التجارة، بعد أن كسب عن طريقها ما يكفي لدفع بعض العقبات التي أثقلت كاهل ميراث العائلة. أقول إنه يقطن هنا، ولكني لا أزال أظن أنه يسكن خمسة أشهر من الاثني عشر؛ أنه يتجول في أرض الآخرين ويقضي بضع أجزاء من كل شتاء في بلدة: يجلب معه ضيوفاً بشكل متكرر عندما يأتي إلى شاير، وهؤلاء الزوار غالباً أجانب؛ أحياناً يجلب معه شخصاً ألمانياً ضليعا في علم الميتافيزيقا، في بعض الأوقات عالماً فرنسياً؛ مرة استضاف إيطالياً مستاء بمنظر همجي، لم يكن يغني أو يلعب، والذي أكدت فرانسيس أن لديه «جو المتآمر.»

الضيوف الإنجليز الذين يدعوهم هانسدن -فكلهم من بيرمنغهام ومانشستر- رجال قُساة، مشبوكون بفكرة واحدة، وحديثهم في التجارة الحرة. إن الزوّار الأجانب سياسيون؛ يتناولون موضوعاً أوسع -التقدم الأوروبي- انتشار الأفكار الليبرالية في القارة؛ في مذكراتهم الذهنية، مكتوب باللون الأحمر أسماء روسيا، النمسا، البابا. سمعت أحدهم يقول الصواب - أجل، كنت أحضر النقاشات متعددة اللغات قديماً، غرفة طعام

مبطنة بخشب السنديان في بيت هانسدن، أُعطيت بصيرة شخصية عن الأحاسيس التي استقبلتها عقول عازمة بخصوص الطغيان الشمالي القديم، والخرافات الجنوبية القديمة: أيضاً، سمعت ما يكفي من الثرثرات، المحكية بشكل رئيسي بالفرنسية والألمانية، ولكن غضضت الطرف عنها. تحمل هانسدن هراء الباحثين؛ بدا موحّداً اليد والقلب.

عندما يكون هانسدن وحيداً في البيت (والذي نادراً ما يحدث) بشكل عام يذهب لمرتين أو ثلاث إلى طريق الأقحوان. لديه دافع خيري ليأتي ويدخن سيجارته في رواقنا في المساءات الصيفية؛ يقول إنه يفعلها ليقتل حشرات أبو مقص التي تكون بين الأزهار، مع تلك الحشرات، بتدخينه الخيري، أشار إلى أننا مُجتاحون. نكون متأكدين من رؤيته في الأيام الماطرة أيضاً؛ وفقاً له، هذا هو وقت ليثير جنوني بدَوسه على ذرة فكري، ويجبر مدام كريمسوورث على الكشف عن التنين في داخلها، بإهانته لذكرى هوفر وتيل.

نذهب أيضاً بشكل متكرر إلى بيت هانسدن، ونستمتع أنا وفرانسيس بالزيارة كثيراً. لو كان هناك زوار آخرون، تكون شخصياتهم مادة دراسية مثيرة للاهتمام؛ حديثهم ممتع وغريب؛ غياب كل ضيق النظر المحلّي في كل من المضيف ومجتمعه المنتقى يعطي حرية حضارية، وتقريباً عالمية وضخامة للحديث. هانسدن نفسه رجل مهذب في بيته: لديه، عندما يختار أن يوظفها، قوة إمتاع للضيوف لا تنضب؛ بيته أيضا مثير للاهتمام، تبدو الغرف ذات طوابق، والممرات أسطورية، الغرف منخفضة السقف، بأعمدتها الطويلة ونوافذها ذات الشباك المعينية، لديها جو العصر القديم المسكون: جمع سلع فضية، والتي هي الآن محفوظة جيداً في غرفة مزدانة بالرسوم: رأيت هناك

صورة أو صورتين، ومنحوتة أو منحوتتين، يجسده العديد من الخبراء الأرستقراطيين عليها.

عندما تناولت فرانسيس العشاء و أمضت مساء مع السيد هانسدن، عادة ما يسير معنا إلى البيت. إن غابته كبيرة جداً، وبعض الأشجار قديمة وكبيرة. هناك طُرق متعرجة تجعل الوصول إلى طريق الأقحوان يستغرق وقتاً طويلاً. في العديد من الأوقات، عندما استفدنا من وجود قمر مكتمل، وعندما كان الليل لطيفاً وبلسمياً، عندما، علاوة على ذلك، كان هناك عندليب يغني، وعندما يعطي النهر، المختبئ بين الشجر الحرجي، صوتاً مرافقاً جميلاً، قرع جرس كنيسة بعيدة، في قرية مقاطعة على بعد عشرة أميال، منتصف الليل، قبل أن يتركنا سيد الغابة عند رواق منزلنا. كان حديثه في تلك الأوقات يجري بحرية، وأكثر نعومة و هدوءاً من أوقات النهار. ينسى حينها السياسة والنقاشات، ويمكث في ماضي هذا البيت، في تاريخ عائلته، في نفسه ومشاعره - مواضيع كلها غُطيت بمتعة خاصة، لأنها كانت كلها مواضيع فريدة. ليلة جميلة في حزيران، بعد أن كنت أسخر منه وزوجته المثالية وأسأله متى ستأتي وتطعم جمالها الأجنبي لسنديان هانسدن، أجابني فجأة، «أتسميها مثالية، لكن انظر، هاهنا ظلها؛ ولا يمكن أن يكون هناك ظل بلا جوهر.»

قادنا من عمق الطريق الملتوي، إلى فُرجة نكصت عنها شجر الزان، تاركة إياها مفتوحة للسماء؛ سكب قمر غير غائم نوره على هذه الفرجة، وحمل هانسدن تحتها لوحة صغيرة عاجية مصغرة.

تفحصتها فرانسيس بشغف في البداية؛ ثم أعطتنيها - مع ذلك، حاشرة وجهها الصغير قرب وجهي، باحثة في عيني عن رأيي في اللوحة.

حسبت أنها قدّمت وجه امرأة جميلة وذات شخصية مميزة، مع، كما قال هو مرة، «ملامح معتدلة ومتناسقة.» كان الجو مظلماً؛ الشعر، أسود كالفحم، لم يرتد عن الجبين فقط، ولكن عن الصدغين - بدا مدفوعا للخلف بإهمال، كما لو أن جمالاً كهذا تخلص من كره الترتيب. نظرت العين الإيطالية مباشرة إلى عينيك، وكانت نظرةً مستقلة وحازمة؛ كان الفم راسخاً وحسناً؛ وكذلك الذقن. خلف اللوحة كان مطلياً «لوسيا.»

«هذا وجه حقيقي.» كانت هذه نتيجتي.

ابتسم هانسدن.

قال هانسدن «أعتقد ذلك، كل شيء كان حقيقياً في لوسيا.»

«وكانت امرأة كنت ترغب في الزواج بها - لكنك لم تستطع؟»

«بالتأكيد رغبت في الزواج بها، وحقيقة أني لم أفعل ذلك دليل على أنني لم أستطع.»

استعاد اللوحة التي كانت بِيَد فرانسيس، و وضعها جانبا.

«أنا واثق من أن لوسيا لبست القيود مرة وكسرتها،» كان هذا الجواب الغريب. «أنا لا أعنى قيود الزواج،» أضافت، مصححة قصدها، كما لو أنها خشيت سوء الفهم. «ولكن قيوداً اجتماعية معينة. هذا الوجه وجه واحدة بذلت مجهوداً، ومجهوداً ناجحاً ومنتصراً، لتتغلب على قوة قيود لا يمكن تحملها؛ وعندما تحررت قدرة لوسيا، أنا متأكدة من أنها فردت جناحيها أوسع وأعلى من-» ترددتْ.

«أعلى من ماذا؟» سأل هانسدن.

«مما سمحت لك ممتلكاتك أن تتبعها.»

«أظن أنك تزدادين حقداً و وقاحة.»

«داست لوسيا المنصة،» تابعت فرانسيس، «أنت لم تفكر مطلقاً بجدية في الزواج منها؛ أنت أعجبت بأصالتها، وشجاعتها، قوة عقلها وجسدها؛ ابتهجت لموهبتها، بغض النظر عما كانت، سواء كان الغناء أو الرقص، أو التمثيل المسرحي؛ أنت عبدت جمالها ، والذي كان من النوع الذي يحبه قلبك: لكني متأكدة من أنها انتمت إلى عالم من المستحيل أن تفكر بأن تتخذ زوجة منه.»

«بارعة،» أشار هانسدن؛ «سواء صحيحة أم لا فهذه مسألة أخرى. في الوقت الحالي، ألا تشعرين أن مصباح روحك الصغير شاحب، أمام شمعدان كلوسيا؟»

«أجل.»

«على الأقل صريحة؛ وقريباً سيكون الأستاذ غير راض بالنور الخافت الذي تعطينه؟»

«هل هذا صحيح، يا سيدي؟»

«كان نظري دائماً أضعف من أن يتحمل البريق، يا فرانسيس،» وقد وصلنا الآن إلى البوابة الصغيرة.

قلت، قبل بضع صفحات، إن هذا مساء صيفي جميل. وهو كذلك- كانت هناك سلسلة من الأيام اللطيفة، وهذا ألطفهم؛ كان الحشيش مزالاً من ساحتي، ولا تزال رائحته في الهواء. اقترحتْ عليّ فرانسيس، قبل ساعة أو ساعتين، أن نأخذ عدة الشاي للخارج على المرجة؛ أرى الطاولة المستديرة المحمّلة بالخزف، والموضوعة تحت شجرة معينة؛ من المتوقع قدوم

هانسدن-لا، ها هو آت-هذا هو صوته، يتكلم بثقة عن نقطة معينة؛ ردود فرانسيس؛ فهي تعارضه بالطبع. إنهم يتناقشون حول فيكتور، الذي يؤكد أن أمه تجعله مخنثاً. تنتقم مدام كريمسوورث، «أفضل ألف مرة أن يكون مخنثاً على أظن يكون ما يسميه هانسدن «ولد رقيق»؛ وعلاوة على ذلك، تقول لو أن هانسدن سيكون ثابتاً في الحي، وليس مذنباً، يروح ويأتي، لا أحد يعلم كيف، أو لماذا، ستكون منزعجة حتى ترسل فيكتور بعيداً إلى مدرسة تبعد على الأقل مئة ميل؛ لأن بمبادئه التمردية ومعتقداته غير الإيجابية، قد يفسد مجموعة من الأطفال.»

لدي كلمة لأقولها عن فيكتور قبل أن أنهي هذا المخطوط في دُرجي ، ولكن يجب أن يكون مختصراً، لأني أسمع رنين الملاعق على الخزف.

إن فيكتور ولد صغير جميل كما أنا ، أو بحسن أمه؛ إنه شاحب وهزيل، بعيون كبيرة، بسواد عيني فرانسيس، ومصمّمة كعيني. هيئته متناسقة بما فيه الكفاية، ولكن ضعيفة؛ صحته جيدة. لم أر في حياتي طفلاً يبتسم أقل منه، ولا أحد يعقد حاجبيه عندما يجلس لقراءة كتاب يشدّه، أو بينما يستمع إلى حكايات مغامرة خطرة، أو عجيبة، تحكيها له أمه، أو هانسدن أو أنا. ومع ذلك، فهو ليس حزيناً - بالرغم من جديته، فهو ليس متجهماً؛ لديه حساسية تجاه المشاعر السارّة متوقدة، لأنها تبلغ الحماس. تعلم القراءة بالأسلوب القديم عن طريق كتاب التهجئة على رُكَبِ أمه، وبينما أسامر بلا توجيه بهذه الوسيلة، رأت أنه ليس ضرورياً أن نشتري له الأحرف العاجية، ولا أن نجرب أي وسائل تحفيز على التعليم التي هو غَنِيٌّ عنها الآن. عندما تمكن من القراءة، أصبح دودة كتب، ولا يزال كذلك. كانت ألعابه قليلة، ولم يرغب بأكثر من ذلك. لأنه ربى عاطفة

خاصة تجاه الألعاب التي يملكها؛ هذا الشعور، الموجّه لواحد أو اثنين من الكائنات الحية في المنزل، يزداد قوة لحد الشغف.

أعطاه السيد هانسدن جرو درواس، سمّاه يورك، على اسم المانح؛ نما ككلب بديع، والذي كانت ضراوته معدلة برفقة ومداعبة مالكه الصغير. لا يذهب لأي مكان، ولا يفعل أي شيء دون يورك؛ استلقى يورك عند قدميه وبينما تعلم دروسه، لعب معه في الحديقة، تمشى معه في الممر والغابة، جلس بالقرب من كرسيه عند الوجبات، كان دائما ما يطعمه بيده، كان الشيء الأول الذي بحث عنه في الصباح، وآخر شيء تركه في الليل. رافق يورك السيد هانسدن يوما واحدا إلى X، وقد عضه كلب آخر في الشارع. حالما أحضره هانسدن إلى البيت، وأخبرني عما حصل، ذهبت إلى الساحة وأطلقت عليه النار وهو يلعق جراحه: كان ميتاً في لحظة؛ لم يرني أرفع المسدس؛ وقفت خلفه. بالكاد كنت لعشر دقائق في المنزل، عندما ضربت عيني أصوات معاناة: عدت إلى الساحة مرة أخرى، لأنها أتت من ذلك المكان. كان فيكتور راكعاً أمام كلبه، منحنياً عليه، محتضناً رقبته، وتائها في عاطفة أشنع المصائب: شاهدني.

«أوه، بابا، لن أسامحك أبداً! لن أسامحك أبداً!» كان هذا هتافه. «لقد أطلقت النار على يورك-رأيتك من النافذة. لم أصدق أنك قد تكون بتلك القسوة، لا أستطيع أن أحبك بعد الآن!»

كنت مهتاجاً لأشرح له، بصوت رزين، الضرورة الملحّة للفعل؛ لم يزل، باللهجة المريرة التي لا أستطيع ردها، ولكن اخترق قلبي، كرّر

«كان من المحتمل أن يُشفى-كان يجب عليك أن تحاول-كان يجب أن تكوي الجرح بقضيب ساخن، أو تغطيه بمادة كاوية. لم تمنحه وقتاً، وقد فات الأوان-لقد مات!»

انهار على الجثة فاقدة الإحساس؛ انتظرت بصبر لمدة طويلة، حتى أعياه حزنه؛ وثم حملته بين ذراعي وأخذته لأمه، متأكداً أنها أفضل من يعزيه. لقد شاهدتْ كل شيء من النافذة، لم تخرج لأنها كانت خائفة من أن تزيد صعوبتي بمشاعرها، ولكنها كانت جاهزة الآن لاستقباله. أخذته قريباً من قلبها حنون، وفي حضنها اللطيف؛ عزته بشفتيها، وعينيها، وحضنها الناعم، لبعض الوقت؛ وبعد ذلك، عندما قلَّ بكاؤه، أخبرته أن يورك لم يتألم عندما مات، وأنه لو ترك ليموت طبيعياً، لكانت نهايته فظيعة؛ فوق ذلك، أخبرته أني لم أكن قاسياً (لأن هذه الفكرة منحت فيكتور ألماً لذيذاً)، وأنه كانت عاطفتي تجاه يورك وتجاهه هي التي دفعتني لفعل ذلك، وأني الآن كنت حزيناً لرؤيته يبكي بحرقة.

لما كان فيكتور ابن أبيه، لولا هذه الاعتبارات، وهذه الأسباب، همست بصوت خافت و جميل -المرافقة لعناق لطيف وحنون- لنظرات ملهمة بالشفقة الرحيمة - لم تؤثر عليه. كان لهم أثر: أصبح أهدأ، أراح وجهه على كتفها، وبقي ساكناً بين ذراعيها. سأل أمه، رافعاً نظره لفترة قصيرة، أن تخبره مجدداً بما قالته عن كون يورك لم يعانِ من أي ألم، وعن أني لست قاسياً؛ أُعيدت الكلمات البلسمية، توسد صدرها مجدداً، وأصبح هادئاً مجدداً.

بعد بضع ساعات، أتى لي في مكتبتي، سأل إن كنت سامحته وطلب أن نتراضى. سحبت الفتى لجانبي، وأبقيته هناك لفترة طويلة، وتحدثت معه كثيراً، كشف لي خلالها العديد من المشاعر والأفكار التي وافقت عليها في ابني. وجدت هذا صحيحاً، عناصر من «الصديق الجيد»، أو «الصديق الطيب» فيه؛ القليل من الروح التي تحب أن تثور غضباً على كأس نبيذ، أو يثير المشاعر لدرجة لتصبح ناراً مدمّرة؛ لكني رأيت في تراب روحه بذرات

الشفقة والعاطفة، والإخلاص. اكتشفت في حديقة نباهته نمواً غنياً لمبادئ صحية المنطق، العدل، البسالة الروحية، وعدت، إن لم تتضرر، إثماراً وفيراً. لذلك منحته على جبينه الكبير، وعلى وجنته -لا يزال شاحبا بسبب الدموع- قبلة فخورة وراضية، وأرسلته راضياً. مع ذلك رأيته في اليوم التالي مستلقياً على الركام الذي دُفن يورك تحته، ووجهه مغطى بيديه؛ كان مكتئباً لبضعة أسابيع، ومضى أكثر من سنة قبل أن يستمع لأي عرض باقتناء كلب جديد.

يتعلم فيكتور بسرعة. يجب أن يذهب قريباً إلى إيتون، حيث، أشك، ستكون سنته الأولى تعاسة حقيقية: أن يتركني، وأمه، ومنزله، سيمنح قلبه ألماً شديداً؛ ثم لن يناسبه الكدح -لكن المنافسة، والتعطش للعلم، واعتزاز النجاح، سيحركونه ويكافئونه مع الوقت. إبان ذلك، أشعر بنفور شديد لأحدد الساعة التي سأفصل فيها فرع الزيتون خاصتي، وأغرسه بعيداً عني؛ وعندما أتحدث مع فرانسيس عن الموضوع، تسمعني بنوع من الصبر المؤلم، وكأني لمّحت على عملية مخيفة، ترتعد لها فرائصها، ولكن شجاعتها لن تسمح لها أن تتراجع عنها. لا بد أن تُتّخذ الخطوة، وهذا ما يجب، لكيلا تصنع فرانسيس من ابنها مخنثاً، ستعوده على أسلوب معاملة، هوادة ولطف متجانسين لن يجدهما في أي مكان آخر. إنها ترى، كما أرى، شيئاً في مزاج فيكتور -نوع من الحرارة والطاقة المكهربة- والتي تلفظ، بين حين وآخر شعلات مشؤومة؛ يسميها هانسدن روحه، ويقول إنه يجب ألا تُكبح. أسميها خميرة آدم المهينة، وأعتقد أنها يجب أن، إذا لم يُجلد عليها ليتركها، على الأقل أن يتم تهذيبه بشكل صحيح؛ حينها أي كمية عذاب نفسي أو جسدي ستعوّده بشكل أساسي على ضبط النفس. فرانسيس تعطي هذا الشيء الذي في ابنها صفة وليس اسماً؛ ولكن عندما تبدو في صرير أسنانه،

في لمعان عينه، في ثورة مشاعر قاسية ضد خيبة الأمل، سوء الحظ، الأسى المفاجئ، أو الظلم المفترض، تضمه لصدرها، أو تأخذه ليتمشيا وحدهما في الغابة؛ ثم تقنعه كأي فيلسوفة، ومن السهل إقناع فيكتور؛ ثم تنظر إليه بعيون محبّة، ويمكن أن يخضع فيكتور للحب بنجاح؛ ولكن هل سيواجه العالم عنف فيكتور بالحب والإقناع في المستقبل؟ أوه، لا! لتلك الومضة في عينه السوداء -لتلك الغيمة على حاجبه الدقيق- لزمّة شفتيه، سيحصل الفتى على المصائب بدل الإطراء والركلات بدلاً من القبلات؛ ثم إن نوبة الغضب الصامت ستمرض جسده و تغيظ روحه؛ ثم في محنة العناء المُستحقّ والمفيد، والذي سيُخرج منه (أنا أثق بذلك) رجلاً أفضل وأكثر حكمة.

أرى الآن؛ أنه يقف بجانب هانسدن، الذي يجلس على العشب الأخضر تحت شجرة الزان؛ يد هانسدن على ياقته، وهو يضع، مبادئ لا يعلمها إلا الله في أذنه. يبدو فيكتور جيداً الآن، لأنه يستمع بنوع من الاهتمام المبتسم؛ لا يبدو كأمه عندما يبتسم - شيء يدعو للشفقة أن الشمس قلّما تشرق! إن لدى فيكتور أفضلية لهانسدن، كاملة وقوية كما أعتبرها مرغوباً بها، كونه أكثر تصميماً بكثير، وغير متعصّب، أكثر من أي شخصية استضفتها بنفسي. فرانسيس، أيضاً، تنتبه للموضوع بنوع من القلق غير المعبر عنه؛ بينما يستند ابنها إلى ركبة هانسدن، أو يرتاح على كتفه، تطوف بحركات مضطربة حولهم، كحمامة تحمي صغيرها من صقر محلّق؛ تقول إنها تتمنى لو أن لهانسدن أولاداً، وقتها سيدرك خطر تحريض كبريائهم، إهمال نقاط ضعفهم.

تقرب فرانسيس من شباك مكتبتي، وتضع الشجيرة التي تغطي نصفها جانباً، وتخبرني أن الشاي جاهز؛ عندما ترى أني لا أزال مشغولاً، تدخل الغرفة، تقترب مني بهدوء، وتضع يدها على كتفي.

«يتم تطبيقه أيضاً، يا سيدي.»

«سأنتهي قريباً.»

تسحب كرسياً بقربين وتجلس لتنتظر حتى أنتهي؛ إن حضورها محبب لي كعطر القش الطازج والزهور اللاذعة، كوهج الشمس الغربية، كراحة عشية منتصف الصيف لحواسي.

لكن هانسدن يأتي؛ أسمع خطواته، وها هو، منحنياً بين شباك النافذة، التي دفع الشجرة بعيداً عنها بيده، مزعجاً نحلتين وفراشة.

«كريمسوورث! يا كريمسوورث! خذي هذا القلم من يده، يا سيدة، ودعيه يرفع رأسه.»

«حسن، يا هانسدن؟ أنا أسمعك-»

«كانت في X-البارحة! أخو إدوارد يصبح أغنى من كرويسوس بالمضاربة في بورصة السباق؛ يدعونه في قاعة أيل العشرة؛ وقد سمعت من براون السيد فاندنهوتن وجون كلاماً عن مجيئه لرؤيتك الشهر القادم. إنه يذكر آل بيليت أيضاً؛ يقول إن انسجامهم المنزلي ليس الأفضل في العالم، ولكنهم في العمل «لا يوجد من هو أفضل منهم»، واستنتج أن الوضع سيكون تعزية لأي خلاف في العاطفة. لمَ لا تدعو آل بيليت إلى شاير، يا كريمسوورث؟ أرغب في أن أرى حبك الأول، زُرَيْد. لا تغاري، يا مدام، لكنه أحب تلك المرأة لحد الذهول؛ أعرف هذا. يقول براون إنها تزن أحد عشر حجراً الآن؛ أنت ترى ماذا خسرت، أيها الأستاذ. والآن أيها السيد والسيدة، إن لم تأتيا من أجل الشاي، سنبدأ أنا وفيكتور بدونكما.»

«بابا، هيا تعال!» *مكتبة الرمحي أحمد*



THE PROFESSOR

روايات



الأستاذ

هذه الرواية هي أولى روايات **شارلوت برونتي**، وقد كتبت في الأصل قبل رواية **جين إير**، وقدّمت للنشر مع **مرتفعات وذرنغ** و**آغنس غراي**، ثم بعد ذلك قدّمت وحدها، ورفضت من قبل العديد من دور النشر. لكنّها نشرت في عام 1857 عقب وفاة **شارلوت**، بمساعدة **آرثر بيل نيكولز**، الذي قبل بأن يقوم بتحريرها وتقويمها.

تدور الرواية حول حياة شابّ منذ فترة بلوغه وإلى أن أصبح أستاذًا في مدرسة للبنات، وهي رواية سهلة الأسلوب واضحة لا تعقيد فيها، وتحاكي في أحداثها وتقلّباتها حياة كثير من الناس حتّى يومنا هذا، مع العلم بأنّها كتبت في زمن مختلف؛ وبالإضافة إلى انسيابيّتها وسلاستها، فإنّ القارئ يستطيع أن يلمس قراءتها العميقة للنفس الإنسانيّة في أطوارها المختلفة.

والعجيب في الأمر أن حياة **شارلوت برونتي** امتلأت بالقهر و الكبت والحرمان، وكان يفترض أن يفضي ذلك إلى صعوبة في المزاج وتعقيد في الكتابة يوازي التواءات النفس وتعقيداتها. لكنّ الرواية، على العكس من ذلك، كتبت بلغة واضحة جليّة يسيرة على الفهم رغم انشغالها بالتحليل.

لقد رمت الكاتبة، من خلال عملها هذا، إلى أن تبشّر بمستقبل مشرقٍ تزول فيه القيود عن الوعي، ويتغيّر فيه منطق التعامل مع البنات إلى ما هو أرقى وأرحم.

ISBN 978-6589-09-011-3



الأهلية

الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 منشورات 2017
الغلاف: ® 95297109 7 00962